

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الاوقاف
الرباط المغرب الاقصى



العدد الرابع - السنة السادسة
شعبان 1382 - يناير 1963
ثمن العدد 1,50 درهم

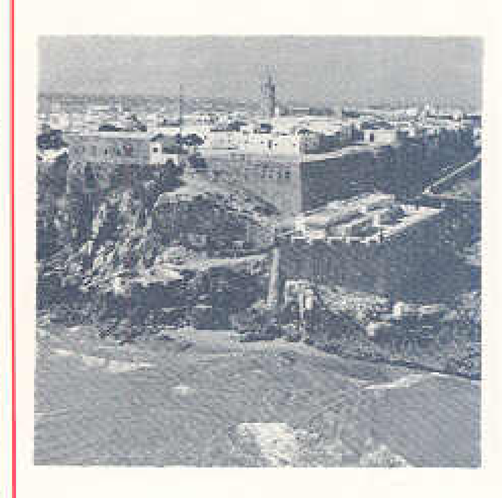
مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد الرابع
السنة السادسة
شعبان 1382
يناير 1963
ثمن العدد 1,50

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف. الرباط - المغرب

صورة الغلاف



قصبة الاودابة بمدينة الربـاط ، ويبدو بجانبها مصب نهر ابو رقراق

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالـي :
مجلة ((**دعوة الحق**)) ــ قسم التحرير ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغـرب .

الاشتراك العادي عـن سنـة 15 درهما ، والشرفي 30 درهمـا فـأكثـر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حســاب :
مجلة ((**دعوة الحق**)) رقم الحساب البريدي 55 ــ 485 ــ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة ((**دعوة الحق**)) ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغـرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

((**دعوة الحق**)) ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط
تليفـون 308.10 ــ 327.03 ــ الرباط

دراسات إسلامية

ذاتية الإسلام
أمام المذاهب والعقائد

للأستاذ: محمد المبارك

الاسلام في العصر الحديث

مر الاسلام في هذا العصر في مراحل كان اولها ما يمكن ان نعنونه بعنوان (الاسلام في قفص الاتهام) فقد وقف دعاة الاسلام في القرن الماضي يدافعون عن الاسلام على انه متهم في قفص . فالاسلام كما يقولون ليس منافيا للرقي ولا مانعا من التقدم ولا معارضا للعلم والعقل . فكأن الاسلام مجرم يراد أن يدافع عنه وهذا ما يلاحظ في المؤلفات الاسلامية التي الفها دعاة الاسلام منذ قرن في كتابات محمد عبده وفريد وجدي واقرانهما . ثم جاء عهد آخر خرج الاسلام فيه من قفص الاتهام ولكنه أصبح يقاس بمقاييس غيره او يقوم بقيم غير قيمه . فالاسلام صالح لانه مبني على (الديمقراطية) والاسلام يستحق البقاء والخلود لانه (متطور) والاسلام حسن لان فيه كذا وكذا من الافكار . وهذه الافكار والمباديء والقيم والمقاييس انما استعيرت من مذاهب أخرى فكأن الاصل اننا نؤمن بمذاهب معينة هي في خارج اطار الاسلام ثم نحاول بعد ذلك ان نقوم الاسلام بهذه القيم التي نستعيرها من تلك المذاهب على انها قيم مسلم بها وعلى انها منبثقة عن مذاهب نؤمن بها . هذا طور ثان مر به الاسلام ، ولا يزال الاسلام في هذا العصر – اللهم الا في بعض طلائع الوعي في بعض البلاد الاسلامية – في هذا الطور الذي يقاس فيه بمقاييس غيره . والمرحلة الثالثة وهي المرحلة التي بدات طلائعها في رايي هي مرحلة الذاتية بالنسبة الى الاسلام . فللاسلام مقاييسه الخاصة ومعاييره الذاتية فهو ليس صالحا لانه موافق للديمقراطية او للاشتراكية او للراسمالية او لان فيه حرية فردية او لان فيه مصلحة الجماعة او لان فيه كذا وكذا وكذا الى غير ذلك من المفاهيم المنبثقة عن مذاهب اخرى . ان للاسلام مقاييسه في الخير والشر والحق والباطل ولا نعني ان هذه المقاييس ليست لها جذور عقلية ترتد اليها ولكنها جذور ممتدة من دوحتها وفروع مشتقة من اصل شجرتها . تلك هي المرحلة التي بدات في العصر الحاضر او بدات طلائعها في عدد من المؤلفات القليلة وفي عدد من الرؤوس المفكرة في العالم الاسلامي . وهي المرحلة التي نتنبأ بانها ستكون مرحلة الاسلام في المستقبل القريب . ولابد لنا ان نعود القهقرى قليلا لنعرف السبب او العوامل التي اثرت في تقويم الاسلام بهذه القيم وفي التباس مفاهيمه بمفاهيم غيره لاسيما ونحن في أعقاب عصور ضعفنا فيها ثم التقينا بحضارة كانت في اوج قوتها وعز نشاطها تلك هي الحضارة الاوربية الغربية الحديثة التي انبثقت هي نفسها من الوجهة المادية الى حد كبير من الحضارة الاسلامية في جانبها المادي .

اوربا التي التقينا بها

ان اوربا التي التقينا بها هي اوربا القرن الثامن عشر والتاسع عشر واوربا في هذين القرنين كانت في ظروف فكرية واجتماعية خاصة . وقد كانت تتميز بنواح ثلاث متلازمة اولها : **الثورة على الدين** فقد آل الامر بالمسيحية في اوربا ان اصبحت غير منسجمة مع التطور الفكري والتفكير العلمي الذي انبثق اثر عصور النهضة فكان في اوربا صراع ، صراع بين العلم والدين ، بين العقل والدين وكان هذا الصراع شديدا لاهبا . **والظاهرة الثانية** وهي لا تقل قيمة وخطورة عن الظاهرة الاولى فان الصناعة الكبرى اثر اختراع الآلة ادت الى نشوء طبقات جديدة وادت الى انفصال راس المال عن العمل وكان من ذلك ان نشأت طبقة العمال ونشأت الحركة الاشتراكية لازالة ما كان يلحق تلك

الطبقات من المظالم الاجتماعية ونشأت عن ذلك مفاهيم للحرية والديمقراطية والاشتراكية هي وليدة تلك الظروف التاريخية المحلية . **والظاهرة الثالثة** التنافس القومي في اوربا فان التنافس بين شعوب اوربا وقومياتها ادى الى ردود فعل خاصة جعلت من القومية اساسا تدور الحياة حولها وعقيدة تبنى عليها الحياة السياسية والفكرية وتلك العقيدة انما نشأت في ظروف معينة هي التي املتها ولم يملها منطق العقل او منطق الحقيقة . تلك هي ابرز الظواهر التي ظهرت في اوربا حين التقينا بها . ونشأ بنتيجة ذلك في ميادين الفكر والاقتصاد والسياسة افكار متنوعة متعددة تأثرنا نحن بها . وعلى سبيل التمثيل اليكم بعض الامثلة لبعض الافكار التي اعتبرها وليدة هذه الظروف الخاصة فمن ذلك مثلا افكار كثيرة تتعلق بالدين هي بنت تلك الظروف وتلك الحقبة من التاريخ وكثير من التعابير التي نستعملها اليوم ونستعيرها هي نتيجة تأثرنا من الحضارة التي انتقلت الينا في تلك المرحلة وذلك كمشكلة **الصراع بين الدين والعلم** او بين الدين والعقل وهي وان كانت مشكلة قديمة لكنها لم تأخذ هذا الشكل العنيف الحاد ، وكذلك الازدواج في التعليم بين ديني ومدني وتعبير رجال الدين . ولو نظرنا في كتبنا القديمة في العصر العباسي وما بعده وما قبله لما وجدنا مثل هذا التعبير الذي لم تعرفه العربية ولم يعرفه الاسلام من قبل . ومن ذلك فصل الحياة الى جزئين منفصلين، لا يكاد يحدث بينهما اتصال ، الدين والدنيا ، وفصل الدين بنتيجة ذلك عن المجتمع وعن الدولة بجعل الدين امرا شخصيا لا علاقة له بالحياة العامة وهذا ايضا من المفاهيم التي انتقلت الينا وادت الى مفهوم آخر هو مفهوم العلمانية ومعناه حياد الدولة وعدم تدخلها في شؤون الدين ، واللادينية ومعناها محاربة النزعة الدينية . ومن تلك المفاهيم ايضا **نسبية الاخلاق** وهي وليده ازمات خاصة بها اصطدمت فيها الاخلاق الدينية بالاخلاق الواقعية والاوضاع الاجتماعية والسياسية القديمة باوضاع ثورية جديدة ، بعد ان ثبتت تلك الاخلاق والاوضاع مدة طويلة . وهي ولا شك فكرة خاطئة بدليل ان كثيرا من الحقائق او الاحكام والقيم الخلقية لا تزال ثابتة منذ آلاف السنين كاستنكار الغصب والاضرار بالغير والزنى الذي لا تزال القوانين تحرمه في اكثر بلاد العالم ولا يعبأ ببعض احوال المجتمعات التي تكون على خلاف ذلك لانها احوال مرضية شاذة واستحسان بعض المجتمعات في بعض العصور الاستبداد والظلم لا تجعل منها امرا مستحسنا ولا تغير الحكم بكونهما شرا يجب مكافحته .

ومن هذه الافكار الخاطئة التي انتقلت الينا من المجتمع الاوربي بعد ان راجت فيه ظروف اجتماعية وفكرية خاصة اعتبار التطور قانونا اخلاقيا اي اعتبار كل طور جديد افضل من الطور الذي سبقه على الاطلاق مع ان التطور قانون اجتماعي واقعي ولا يقتضي مطلقا تفضيل الطور الاخير على الاطوار السابقة له . ان فكرة التطور الاجتماعي اخذت من فكرة التطور الحيوي (البيولوجي) والتطور في الحياة يكون تحسنا وارتقاء وقد يكون ترديا وانتكاسا بل انقراضا .

فان اكثر المذاهب الفلسفية والاجتماعية في اوربا تقول ان الاخلاق ليس لها مقاييس ثابتة ولا احكام ثابتة فلكل قوم اخلاقهم فقوم يرون ان شرب الخمر رذيلة وشر ، وغيرهم يرى فيها غير ذلك ، وبعضهم يرى ان الزنى شر ورذيلة ، وبعضهم يرى فيه اكراما للضيف فالقضية قضية نسبية وليس هنالك قواعد اخلاقية مطلقة وليس هنالك حقيقة اخلاقية مطلقة وانما القضية نسبية ، فاختر اذن ما بدا لك وكلما تطور المجتمع نحو فكرة خلقية جديدة فهي الاخلاق التي يجب ان تتمسك بها . هذه الفكرة ايضا من الافكار التي اعتقد انها نتيجة من نتائج الظروف التي مرت بها اوربا .

ان هذا الغزو الفكري الذي غزينا به بنتيجة الالتقاء بين المجتمع الاسلامي والمجتمع الاوربي كان له تأثير عميق في الفكر الاسلامي الحديث . حتى ان جمهرة الشعوب الاسلامية والطبقة المثقفة منهم خاصة بل غير المثقفة تأثرت بهذه الافكار سواء اولئك الذين يتنكرون للقيم الاسلامية واولئك الذين يقبلون الاسلام ويدينون به .

ازدواج الشخصية

فمن المسلمين – وهذه ظاهرة تلفت النظر – من هو مسلم في شعائره ولكنه غير مسلم في تفكيره بمعنى انه يتألف من شخصيتين مزدوجتين . فهو قد عاش في بيئة اعتادت التدين فهو متدين ولكنه نشأ في بيئة ليس لها من المفاهيم الفكرية الاسلامية ما يتناسب مع مستوى تفكيره فهو يفكر تفكيرا غير اسلامي اذا فكر في شؤون الحياة سواء في شؤون الحياة العامة الفكرية او الاجتماعية او الخلقية او السياسية او غير ذلك وهو في حياته الخاصة يعتبر مسلما . هذا نوع من المخلوقات الفكرية او النفسية الجديدة في عالمنا . وكان في العالم

الاسلامي نوعان مزدوجان من التعليم : تعليم اسلامي ولكنه قديم بطريقته ووسائله ومستواه يعود الى القرون التي تلت العصور السباسية ، وتعليم مصدره اوربا وافكار اوربا والحضارة الاوربية الحديثة . وقد ادى ذلك فى بعض الاحيان بسبب هذا الازدواج والتناقض وبسبب الازمة الفكرية النفسية التي حدثت فى بعض الناس الى ظواهر غريبة او الى ظواهر من نوع معين كظاهرة تاويل كثير من احكام الاسلام تاويلا فيه كثير من المواربة والتعسف من اجل المطابقة بين الاسلام والمذاهب الاخرى ولكن على حساب الاسلام كما يقولون فكانه يراد ان يشذب الاسلام ويقطع حتى يدخل فى قارورة فمها ضيق ولو ادى ذلك الى ان تقطع منه يداه او رجلاه او جهاز من اجهزته العضوية الاساسية. ولا باس ان اضرب على ذلك امثلة وهذه الامثلة اسمحوا لي ان اقول انها راي شخصي لي ، وقد يكون غيرها اولى منها بالاستشهاد فى هذا الموضع . فمن هذه الامثلة مسالة التماثيل . فان كثيرا من المتدينين يحاول ان يسوغها ويحللها ويروج لها فى مجتمعنا الاسلامي الحديث ذلك لان اقامة التماثيل اصبح امرا شائعا بين الامم على اعتبار ان اقامة هذه التماثيل كان محرما لعلل وقد بطلت هذه العلل وزالت . ان هذا التفكير فى رايي باطل من اساسه لان الفكرة هي اعمق مما يظنه هؤلاء السطحيون ممن يريدون بهذه الطريقة الدفاع عن الاسلام . فاقامة التمثال له مغزى فلسفي عميق . ذلك ان الامة التي تقيم التمثال لبطل من ابطالها انما تجسد البطولة فى شكل مادي ولو رجعنا الى العصور الاسلامية لوجدنا ان اعطاء الشخص فى جسمه وفي ذاته قيمة عليا فكرة مردودة . فاعظم شخصية في الاسلام هي شخصية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي يعتبر بشرا ولكنه فوق جميع البشر بصفاته وكماله . ومما لا شك فيه انه لم تخلد شخصية فى التاريخ وفى خلال العصور فى نفوس الناس وفى اذهانهم وفى الكتب والدراسات كما خلدت شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . فما هي الطريقة التي اختارها المسلمون لتخليده . لاشك اننا جميعا نعرف ان تخليد شخصية الرسول (ص) كان تخليدا معنويا خالصا وكان تخليدا اعظم واقوى من اي تخليد لاي شخصية كانت . ولا يزال يرن فى اذني صوت لعجوز هندية فى الباكستان فى حديقة كراتشي فى امسية من تلك الامسيات التي كنت فيها هناك أزور تلك الحديقة فسمعت هذه العجوز الجالسة على الارض تسال الناس وتقول اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد ، فقلت عجبا لهذه المراة الهندية حفيدة المجوس وعباد الاوثان عجبا لهذه المراة التي لا تعرف العربية والتي يفصلها عن محمد عليه الصلاة والسلام آلاف الاميال فى المكان ومئات السنين فى الزمان كيف تنطق بلفظ عربي مبين باسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتشيد بشخصيته .

وقد اقمت سنين فى اوربا ، وكنت اشاهد في شوارع باريس وحدائقها كثيرا من التماثيل وأؤكد لكم أن كثيرا من الفرنسيين الذين كانوا يزاملونني فى الدراسة كانوا مثلي لا يعرفون كثيرا من هذه التماثيل ولا معانيها ولا نواحي البطولة التي يمثلها اصحابها . ولو استعرضنا الامم لوجدنا ان تلك التي تقدس المادة وتتجه اتجاها ماديا هي التي تجسد البطولة فى شكل مادي وهي التي تخلد الابطال فى شكل تماثيل ، بل هي الامم التي كانت فى الحقيقة قديما وثنية فى اعتقادها ودياناتها كاليونان والهنود وقد اخذت هذه الوثنية شكلا آخر من الاشكال الحديثة المدنية . فاليونان كانت اساطيرها تعج بالابطال والبطل لايتصور ان يكون بشرا فى نظرهم لانهم اعجز من ان يتصوروا الانسان بطلا ، فاذا ما اصبح بطلا نقلوه من صف البشر الى صف الآلهة . واما المسلمون فانهم كانوا على خلاف ذلك فلو ذهبت اليوم الى اقصى حدود المغرب والى اقصى حدود الهند والصين ونطقت باسم علي او ابى بكر أو باسم عمر او خالد لوجدت رنينا لهذه الالفاظ لا تجده ابدا لتمثال مقام فى موسكو او فى برلين او فى باريس . فالقضية اذن ليست قضية تحليل التماثيل فالتماثيل محرمة فى الاسلام لفلسفة عميقة هي اعمق بكثير مما يظن هؤلاء السطحيون من الذين يحسبون انهم يدافعون عن الاسلام .

ومن امثلة ذلك اليانصيب التى اعتبرها ظاهرة مغزاها العميق ان معين الاخلاق المنبثق عن الايمان قد نضب من القلوب وان الناس اصبحوا ماديين لا يهتمون الا بالمادة والربح والاغراء بالربح ولابد من اغرائهم بالربح حتى تاخذ منهم المال لعمل خيري . فاليانصيب مبني اذن على فكرة نضوب معين الاخلاق من القلب لا على اساس محاولة انبثاق الاخلاق من القلب والعاطفة والنفس فى شكل تضحية حقيقية بل بشكل اغراء خسيس بالكسب . وهكذا كثير من هذه المشاكل التي اكتفى بضرب هذه الامثلة عليها مع انني اميز بين هذا النوع او هذه الظاهرة التي اسميها التعسف في التاويل وبين تكييف الحوادث والنوازل الجديدة التي

ينبغي استنباط احكامها من الشريعة الاسلامية مما سأذكره بعد قليل .

تشويه المفاهيم الاسلامية

ان هذه الظاهرة ظاهرة تشويه المفاهيم الاسلامية بسبب الالتقاء بالحضارات الاخرى ليست جديدة في تاريخنا ففي تاريخنا القديم مثل ذلك . فقد التقينا بالفكر اليوناني وكان نتيجة الالتقاء ظواهر كثيرة كمسائل علم الكلام فلم تكن العقيدة الاسلامية وعلى الاصح الايمان الاسلامي — لان لفظ العقيدة كذلك حادث — في عهد الرسول (ص) والصحابة آخذا هذا الشكل الجدلي الفلسفي الذي اخذه في العصر العباسي

فقد كان الايمان — وهي الكلمة القرآنية — محتويا على معنى عقلي وعلى معنى نفسي عاطفي ملتبسين متداخلين كل التداخل في العهد الاول عهد ظهور الاسلام . واذا بنا نرى ان الاسلام يتشعب الى شعب ثلاث : شعبة تأخذ بمظاهر الاحكام والشعائر في العبادات والمعاملات . وفرع آخر يأخذ من الاسلام نواحي الاعتقاد العقلي وهو الكلام او العقيدة او علم التوحيد . وفرع آخر للاسلام يأخذ من نواحيه القلبية والخلقية وهو الاخلاق او الزهد او ما سمي بعد الصدر الاول بالتصوف . فاذا بالاسلام يتألف من شعب ثلاث ينفصل بعضها عن بعض : الفقه والكلام والاخلاق . ولا اقصد من هذا ان الفقهاء كلهم لم يكونوا ملمين بشيء من الكلام وان المتكلمين جميعهم لم يكونوا على شيء من الفقه وان الزهاد والوعاظ لم يكونوا يعنون بالفقه والعقائد ، ولكن كان يغلب على الرجل ان يكون متكلما او متفقها او زاهدا متصوفا وان كان بعضهم قد جمع هذه الجوانب كلها . واصبحت هذه الجوانب منفصلة بعضها عن بعض بعد ان كان الاسلام وحدة شاملة . وهذا يعطي عن الاسلام صورة جانبية ، فهنالك اسلام علم الكلام وهناك اسلام الاخلاق وهناك اسلام الفقه ، والاسلام هو الاسلام ليس الاسلام اسلام الكلام او الفقه او التصوف . والصورة الجانبية لا يمكن ان تعتبر صورة كاملة تامة في رايي ولذلك فان في تشعب هذه النواحي وان كان فيه تسهيل من الناحية العلمية والدراسية تجزئة لحياة موحدة لا يحصل في اجزائها ما يحصل في تركيبها جملة واحدة . والاسلام الاول اسلام الصدر الاول من الصحابة الذين كانوا ملتفين حول الرسول (ص) يجمع هذه العناصر الثلاثة جمعا منسجما متوازنا حيويا . وعلى هذا فلا بد لنا اذن من ان نفصل الاسلام في ذاته عن فهم المسلمين للاسلام خلال العصور . فهنالك الاسلام في اصله وينبوعه في الكتاب والسنة في مصادره الاصلية ، وهنالك فهم المسلمين في كل عصر فقد يخطيء بعض المسلمين في فهم الاسلام في بعض العصور فذلك امر لا يعيب الاسلام في ذاته وفي مصادره الاصلية ولا في صورته الحقيقية . ولا شك ان الفهم الذي يمكن ان نعتبره اقرب للتصوير الحقيقي للاسلام والذي نستأنس به نحن في فهم الاسلام هو فهم الصدر الاول أي فهم الصحابة والتابعين . ولست في هذه العبارة اعني أي غض من مفهوم المسلمين للاسلام في سائر العصور التالية فقد ظهر في كل عصر من كبار العلماء والباحثين والمدركين لحقيقة الاسلام كثير ممن لم تنقطع حلقاتهم وسلسلتهم حتى عصرنا هذا . فللاسلام في الحقيقة اذن اذا كشفنا عنه غواشيه سواء في هذا العصر او في العصور السالفة ذاتيته وحقيقته والاسلام في الحقيقة نظام كامل ، فهو من جهة فهم للحياة وتصور شامل للوجود وايمان بهذا الفهم ونظام عملي ينبثق من هذا التصور والايمان .

ويتلخص التصور او المفهوم الاسلامي العام في ان هذه الطبيعة التي تحيط بالانسان والكون الذي يعيش فيه مهما يتسع افقه ومسافاته ، ان هذا الكون كون مخلوق من ورائه وجود مطلق وقوة خارقة حية مدركة هي قوة الخالق والانسان في هذا الكون وبهذه الارض بالذات مستخلف من الله الخالق ليعيش فيها وليتمتع بما فيها من نعم وطيبات وارزاق بل ملذات محللة مشروعة على ان يعلم انه في استخلافه هذا وفي تمتعه وسعيه وعمله محاسب ومسؤول امام هذه القوة الخالقة المدركة المحاسبة . وينبثق عن هذا الفهم وعن هذا الايمان عمل وعبادة متصلان أيما اتصال من حراثة وزراعة للارض وتأمل لهذه القوة التي خلقته وانعمت عليه وهذا العمل والعبادة هما من نوع واحد فهو يطيع الله في ان يشق الارض بالمحراث او يحرك الآلة في يده وهو في ذلك مطيع لله عابد له وكذلك هو مطيع متعبد حينما يخلو في سويعات من يومه ليفكر في خالقه وليتأمل فيما وراء هذه الحياة من مسؤولية وحساب . وينبثق عن هذه الفكرة او العقيدة او الايمان على الاصح تعاليم اخلاقية وهي تعاليم تأخذ من ناحية بشيء من الواقعية في الحياة وتسمو من ناحية اخرى لترقية الروح فتفسح المجال للغرائز وتصريفها في حدود معينة وتضبطها وتعمل على انسجامها مع الرقي الخلقي والروحي . ولست الآن لالخص في اكثر مما قلت المذهب الاخلاقي في الاسلام .

والانسان الذي يؤمن هذا الايمان ويعمل فى الحياة فى هذا الطريق ليس هو الانسان الفرد بل هو الانسان الموجود فى اطار اجتماعي الذي يعيش فى مجتمع يحدد الاسلام اتجاهاته وصفاته وعلاقات افراده بعضهم ببعض ، ويعني به كذلك باعتباره مجتمعا او جماعة ، ويقيم له تشريعا تنسجم فيه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . فيقيم له نظاما اجتماعيا يكفل له هذا الرقي الانساني المادي والروحي ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على نظام للحكم اساسه الشورى والمساواة والعدالة والمسؤولية، وعلى نظام اقتصادي مبني على العدالة من جهة وعلى التكافل الاجتماعي من جهة اخرى كما يشتمل على نظام للاسرة الخلية الطبيعية الاولى والبيئة التربوية لكل مجتمع سليم .

هذا المجتمع الذي ينظم الاسلام جوانب حياته السياسية والاقتصادية والاسرية فى سبيل سعادة الانسان وارتقائه يقوم على اسس اعتقادية خلقية تكون جذور نظامه واسس بنائه . فالتشريع الاسلامي بالاضافة الى موضوعيته وتنظيمه على اسس ظاهرة وضوابط موضوعية له جذور خلقية فى النفس واصول اعتقادية تغذيه وتمده وتدعم بناءه . فالتشريع غير منقطع الصلة بالاخلاق وان كان لكل منهما قواعد لا تلتبس بالاخرى ، وهذه الاخلاق ترتكز على نظرة الى الوجود او فلسفة شاملة او عقيدة كاملة .

وبذلك يتصل فى نظام الاسلام عقيدته او فلسفته واخلاقه وتشريعه الاجتماعي وتؤلف كلها وحدة متكاملة تقابل وحدة الحياة وهذه مزية هامة من مزايا الاسلام تميزه عن غيره من الانظمة الاخرى التي تعالج جانبا واحدا من جوانب الحياة او تعالجها منفصلة دون ان تنظر اليها على انها وحدة كاملة . ان الوحدة والتوازن والانسجام والشمول خصائص تميز نظام الاسلام من الانظمة الاخرى المادية منها والروحية الوضعية والدينية .

ضبط النسب فى نظام الاسلام

والى جانب خاصة الوحدة فى نظام الاسلام خاصة اخرى لا تقل عنها شأنا وهي ضبط النسب بين جوانب الحياة وقيمتها فالمال واللذة والعمل والعقل والمعرفة والقوة والعبادة والقرابة والقومية والانسانية قيم من قيم الحياة ، والاسلام جعل لكل منها موضوعا فى نظام الحياة ونسبة محدودة لا تتجاوزها حتى لا تطغى قيمة على قيمة . وان من التشويه للاسلام تبديل هذه النسب بحيث تزاد عن حدها او تنقص بالنسبة الى غيرها كما حدث فعلا فى بعض العصور الاخيرة فان تغيير النسب فى نظام الحياة كتغيير النسب فى التصوير الهزلي الذي يعطي من الانسان المعالم والمشابه ولكن على وجه هزلي ساخر وكتغيير النسب فى اجزاء الدواء فقد يؤدي الى افساده وتغيير صفاته وخصائصه وربما انقلب الى مادة ضارة او سامة . فلو جعلنا الحياة مئة جزء لوجدنا ان الاسلام خص العبادة منها باجزاء وكذلك الانفاق والكسب والجهاد والتمتع بالملذات المشروعة لكل منها نصيب محدود ولو غيرنا هذه النسب فقللنا قيمة الجهاد وزدنا فى نصيب العبادة وانتقصنا من حظ المال كسبا او انفاقا وغالينا فى الملذات او الغيناها لخرجنا من ذلك بنظام يخالف فى حقيقته وفى روحه نظام الاسلام واخللنا بالتوازن الذي اقامه بين قيم الحياة وجوانبها ، فالمسلم الكامل فى بعض العصور الاخيرة هو المنصرف الى العبادة بمعناها الضيق لا يشتغل بسواها ، المعتكف فى محرابه لا يبارحه ، الملتزم لاذكاره واوراده . ان هذه الصورة لا تشبه مطلقا الصورة التي كان عليها الرسول الكريم صلوات الله عليه واصحابه المقتدون به فلئن كانت العبادة جزءا اساسيا فى حياتهم فان الجهاد كان مالئا لصفحاتهم ، الجهاد فى سبيل تحرير المجتمع من العقائد الفاسدة وترشيح العقائد الصحيحة وتحريره من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين لحماية المستضعفين واقامة العدل بين الناس . وكذلك تكون حياة المسلم المنشغل بالجهاد والاصلاح الاجتماعي ناقصة مشوهة بالقياس الى الصورة الاسلامية الكاملة اذا كانت خالية من العبادة ضعيفة الصلة بالله .

وقد انتبه فقهاؤنا المتقدمون الى هذه الفكرة فكرة النسب فجعلوا ما يطلب من المسلم من الفرائض وغيرها متفاوتة فى قوة طلبها كما جعلوا الممنوعات والمحرمات مختلفة كذلك فى درجة منعها او حرمتها . فليس سواء فى الاثم ترك المجاهد المرابط فى صف الجهاد مكانه وفسحه المجال لدخول العدو وشرب الخمر او اكل لحم الخنزير مع ان كلا الامرين حرام . وتشير آيات واحاديث كثيرة الى هذه الفكرة كقوله تعالى : « اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا

يستوون عند الله » (※) . وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ واعادوا عليه مرتين او ثلاثا وهو يقول لا تستطيعونه ثم قال مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد (※) وفى الصحاح قيل يا رسول الله أي الناس افضل قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قيل ثم من قال رجل فى شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره (※) وروى الامام أحمد بسند صحيح قول الرسول صلى الله عليه وسلم درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية . فالربا وهو من انواع الظلم المالي أشد حرمة من الزنى. ولو حاولنا ان نجمع امثال هذه الاحاديث التي تقدر القيم بعضها بالنسبة الى بعض لخرجنا منها بنسب رياضية بين قيم الحياة . كقوله عليه الصلاة والسلام يوم من امام عادل افضل من عبادة ستين سنة (※) وقوله : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم (※) وقوله : فقيه واحد أشد على الشيطان من الف عابد(※)

ومن هنا يتبين خطأ من يصرفون هممهم الى امر قد يكون فى ذاته مطلوبا او ممنوعا فى الاسلام ولكن في مقابله امر أخطر منه بكثير ، فالبلاد الاسلامية مبتلاة فى هذا العصر بخطرين عظيمين هما الاستعمار والالحاد أي الاستيلاء على الارض والاستيلاء على العقيدة اي اتلاف ثرواتها المادية والمعنوية وسلبها ولو تم الاستيلاء على البلاد وتهديم العقيدة واستمر لما امكن اقامة شعائر الدين ولا القيام باوامره وتطبيق احكامه ولذلك فان صرف اذهان الناس الى قضايا اخرى وجعلها محور النضال الاسلامي الهاء عن اهم القضايا الاساسية التي هي الاستيلاء على البلاد الاسلامية او السيطرة عليها بطريقة مباشرة او غير مباشرة وتهديم العقيدة الاسلامية بشتى الاساليب ونشر الافكار والمذاهب الالحادية على اختلاف صورها . فهل يجوز فى مثل هذه الحال تقسيم المسلمين الى من يقولون بأن التراويح ثمانية ومن يقولون بأنها عشرون والى القائلين بتكرار الجماعة او عدمها او احتدام معركة السنة والبدعة فى امور لا تمس العقيدة . انا لا أقول ان لا تبحث هذه الامور بحثا علميا بل أقول انه يجب التنبيه حينما يكون الامر ماسا بالعقيدة ويحسن التنبيه الى الطريقة الصحيحة فى العبادات لان العبادات توقيفية فلا زيادة ولا نقصان فيها عما امر به النبي صلوات الله عليه او فعله ومع ذلك فاذا كان ذلك يحدث فتنة او يحدث خصومة وعداوة بين فئتين من المسلمين وجب ترك ذلك لما يترتب عليه من منكر اعظم ولما ينشأ عنه من تقسيم المسلمين الى فئات متعددة فى ظروف واحوال لا يجوز فيها تفتيت القوى ولا الاشتغال الا بالقضايا الاساسية الكبرى .

(يتبع) ـ دمشق ـ **محمد المبارك**

※) سورة التوبة 19 .
※) اخرجه الستة الا ابا داود .
※) اخرجه الستة الا مالكا .
※) وفى رواية عدل ساعة افضل من عبادة ستين سنة بقيام ليلها وصيام نهارها ، وجور ساعة فى حكم اشد وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة (الطبراني فى المعجم الكبير والاوسط) .
※) اخرجه الترميذي وصححه .
※) اخرجه الترميذي وقال هذا غريب لا نعرفه الا عن الوليد بن مسلم .

موقف الغزالي من تحديد النسل

بقلم : الدكتور عبد الكريم اليافي

توزعت عصر الغزالي مشكلات سياسية واجتماعية وفكرية مشتبكة كثيرة نجد أصداءها في كتبه يعالجها متجمعة أو متفرقة كما تتجمع أو تنتشر الازاهير بالوانها المختلفة في الحقول الواسعة .

وغاية بحثنا هذا أن نبين موقفه تجاه مشكلة ديمغرافية خاصة هي قضية النسل واباحة ضبطه في بعض الاحوال رغبة في علاج جانب من مسالة اصبحت في العصر الحاضر من مسائل علم السكان الكبيرة مقتبسين تفهم هذا العلاج من تاريخ ثقافتنا العربية التليدة الواسعة .

ولاجل هذا نشير في البداية بخطوط سريعة الى جوانب من الحركة الديمغرافية للشعب العربي في صدر الاسلام ثم نظهر آراء الغزالي في الذرية مجيئها او تحاميها معتمدين خاصة على ما جاء في كتابه المشهور « احياء علوم الدين » .

لقد مر العرب في بداية حضارتهم الاسلامية بمرحلة كانوا فيها كثيري النسل والاولاد . وفي تاريخ الادب العربي اشارات متعددة الى ذلك اوردناها في كتابنا « في علم السكان » (※) .

وقد انتبه القدماء الى أهمية النسل من الوجهة القومية وكافأ الحكام كثرة الاولاد . ولعل من اطرف الروايات التي تشف عن ذلك ما جاء في كتاب الاغاني في اخبار الشاعر الراجز أبي النجم . قيل : « كان عند عبد الملك بن مروان ، ويقال عند سليمان بن عبد الملك يوما وعنده جماعة من الشعراء وكان ابو النجم فيهم والفرزدق وجارية واقفة على راس عبد الملك او سليمان تذب عنه ، فقال : من صبحني بقصيدة يفتخر بها وصدق في فخره فله هذه الجارية . فقاموا على ذلك ، ثم قالوا : ان ابا النجم يغلبنا بمقطعاته يعنون الرجز . قال : فاني لا اقول الا قصيدة فقال من ليلته قصيدته التي فخر فيها وهي :

علق الهوى بحبائل الشعثاء ...

ثم اصبح ودخل عليه ومعه الشعراء فأنشده حتى بلغ الى قوله :

منا الذي ربع الجيوش لظهره
عشرون وهو يعد في الاحياء

فقال عبد الملك : قف ان كنت صادقا في هذا البيت فلا نريد ما وراءه ،

فقال الفرزدق : وانا اعرف منه ستة عشر ومن ولد ولده اربعة كلهم قد ربع . فقال عبد الملك او سليمان ولد ولده هم ولده ، ادفع اليه الجارية باغلام فقلبهم يومئذ (※) » .

※) طبعة 1959 من صفحة 32 الى 38 ومن 37 الى 51 .

※) مطبعة التقدم ج 9 ص 75 .

ولكن حياة المسلمين قد تبدلت تبدلا كبيرا بعد اذ أصبحوا سادة الارض والمشرقين على خيراتها ومواردها فتعقدت شؤونهم واستسلم بعضهم للترف واكثر من اللهو والمجون وانصرف بعضهم عن الزواج واكتفى بالاماء واختلطوا بالشعوب الاخرى اختلاطا شديدا

تستدل على ذلك بما راج في كتب الادب من الاقوال التي تشيد بقيمة الاماء وتنوه بفضلهن على الحرائر : « من اراد قلة المؤونة ، وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر »، وكذلك « عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج بالحرائر » . ويروى عن مسلمة بن عبد الملك انه قال : « اني لاعجب من ثلاثة : من رجل قصر شعره ثم عاد فأطاله او شمر ثوبه ثم عاد فاسبله او تمتع بالسراري ثم عاد الى المهيرات » .

وازداد الامر تفاقما في دولة بني العباس . ولقد غالى هارون الرشيد في ايثار الجواري وتقريبهن ، وكان معظم اولاده ابناء اماء واكثر الخلفاء العباسيين امهاتهم امهات ولد .

وايثار الاماء والسراري وتعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية رافقهما عزوف عن النسل ، ونشأت دعوات متشائمة تحذر من النسل وترغب عنه .

يقول الشاعر المولى ابو العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير الى ذهاب

وينوه الشاعر الفيلسوف ابو العلاء المعري بتحاميه الزواج وبسلامته من عدواه :

تواصل حبل النسل من عهد آدم
الي فلم توصل بلامي باء

ويذهب الى ابعد من ذلك فيعد النسل جناية يجنيها الوالد على الولد في بيته المشهور :

هذا جناه أبي علي
وما جنيت على احد (※)

وينصح للذين لايطيقون تحامي الزواج ان يؤثروا العقيمات من النساء :

اذا شئت يوما وصلة بقرينة
فخير نساء العالمين عقيمها

الى غير ذلك من اشعار اخرى كثيرة .

ولا شك ان تلك الدعوات المتشائمة صدى من اصداء تعقد الحياة الاجتماعية وصعوبة الكسب ومشكلات التربية .

ويشف عن ذلك ايضا قول ابن الجوزي الذي ولد في القرن السادس الهجري بعد وفاة الغزالي بثلاث سنين وذلك في كتابه « صيد الخاطر » : « وان تزوج جاء الاولاد فمنعوه اللذة والكسر في نفسه وافتقر الى الكسب عليهم (※) . وكذلك قوله : «والابن ان مرض ذاب الفؤاد وان خرج عن حد الصلاح زاد الاسف وان كان عدوا فمراده هلاك الاب ثم ان تم المراد فذكر فراقه يذيب القلوب (※) » .

ويلوح ان ضبط النسل قد بدا في بغداد قبل البلاد العربية الاخرى يدل على ذلك هذه النادرة التي نجدها في (يتيمة الدهر) بين اخبار ابي بكر الموسوس المعروف بسيبويه وذلك في القرن الرابع الهجري . فقد قال يوما للمصريين : « يا اهل مصر ! اصحابنا البغداديون احزم منكم لا يقولون باتخاذ الولد حتى يقتنوا له العقد والعدد فهم ابدا يعزبون ولا يقولون باتخاذ العقار خوفا من ان يملكهم شر الجار فهم ابدا يكنزون ولا يقولون باظهار الغنى في موضع عرفوا فيه بالفقر فهم ابدا يسافرون » .

فلا غرو اذا اصبح تحامي النسل قضية ينتبه لها المفكرون ويعالجونها ويبينون شرائط جوازها .

ولقد كان الباحثون يمسون ذلك بوجه عام او يشيرون الى فوائد الزواج وآفاته ويوضحون الاسباب التي تحمل على ايثار العزبة . فابو طالب المكي مثلا في كتابه المشهور « قوت القلوب » وهو الكتاب الذي كثيرا ما يعتمد عليه ابو حامد الغزالي في كتابه « الاحياء » وينقل اخبارا واحاديث وفقرات منه يظهر مزايا الزواج ومزايا العزبة دون ان يتناول قضية ضبط النسل .

هذا وربما غدت حاجة ضبط النسل ماسة في عصر الغزالي وغدا بحثها شائعا ولا سيما من جهة تكاليف تربية الاولاد ونفقات العيال وتعذر طرق الكسب . وفي كتب الغزالي اشارات متفرقة الى قضايا الكسب وشؤون التربية .

※) الرواية المشهورة جناه وكلتاهما صحيح .
※) طبع الخانجي ص 177 .
※) ص 397 .

مؤلف « الاحياء » من الذين اذا نظروا فى قضية من القضايا انتبهوا الى جوانبها المتقابلة وحدودها المتناقضة فعرضوا تلك الجوانب واوضحوا تلك الحدود ليطلع القارىء على جهة السلب وجهة الايجاب فى كل راي ونظر وليحيط علما بتلك التقابلات والتناقضات فيكون على بينة من موقفه الذي يتخذه وفى جلية من حكمه الذي يصدره ولكيلا يفوته امر من تلك الامور التى تدخل فى نطاق القضية التى يعالجها ويبحث فيها.

وربما كان هذا هو السبب الذي من اجله اتصف الغزالى إنه قد يعرض من حجج الذين يريد الرد عليهم ما لم يخطر لهم ببال . وليس ذلك مأخذا بل تلك ميزة فى ميدان الفكر الذي ينشط بالاستناد الى الحدود المتغايرة وينمو ويتقدم باصطراع العناصر المتضادة .

ان مثل هذا الاتجاه طبيعي فى شخصية الغزالى واصيل لديه . وقد ظهر فى سلوكه بشكل ازمة حادة عند ما فكر وهو فى اوج شهرته ومجده العلمي ببغداد أن يترك المدرسة النظامية ويعتزل التدريس ويسلك طريق الصوفية ويجرب تجربتهم . فكانت تتلاحم امام فكرته جوانب السلب والايجاب والنفي والاثبات شديدة متعارضة كاقوى ما يكون التعارض مصطرعة كاعنف ما يكون الاصطراع ملحة كاطول ما يكون الالحاح اذ قد استمرت تلك الازمة نحوا من ستة شهور حتى افضى ذلك به الى المرض ولم ينقذه منه الا عزمه على اختيار التجربة الصوفية ومعاناتها .

شخصية الغزالي بهذا الاعتبار يبدو الفكر الجدلي من اعمق خصائصها ويتصل بهذا الفكر ما يتصل من ذكاء متوقد تثيره المتناقضات ومن تشوف يستند الى التوفيق بين تلك الحدود المتغايرة ومن تفهم عميق فاحص للامور ومن رفق يتناسب مع هذا التفهم ومن اخلاص عميق يتوطد عند اختيار الموقف الذي يقفه تنضاف الى ذلك عاطفة مشبوبة بالتقوى المتبصرة والايمان المتيقظ مخضلة بصدق الانفعال مشربة بحب الخير تتجلى فى اسلوبه الحي المتوثب النابض القوي .

وربما كان ذلك كله سببا فى نجاحه الكبير الذي صادفه فى التدريس اذ كان بهذا الاتجاه المتشعب ينقع غلة مريديه وطلابه ويمتع ميولهم الفكرية المختلفة وطبائعهم المتفاوتة . فقد « اعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة واشاراته اللطيفة واحبوه (❋) »

على انه فى ذلك كله كان كأنما يمتاح من معين ينبجس فى قلبه او كأنما يقتبس من شرار يتقدح فى نفسه على حد استعماله المتكرر للفظ الانقداح . وانما كان ذلك مصدر حدس فطر عليه واشتهر به منذ ان كان طالبا فقد كان استاذه الجويني امام الحرمين يقول فيه : « الحدسيات للغزالى (❋) » ويقول فيه ايضا : « بحر مغدق » (❋) ولهذا كله يتصعب علينا هنا فى هذا البحث الموجز ان نفصل جميع الآراء التي يعرضها حجة الاسلام فى بحث الزواج والنسل وانما تقتصر منها على ما يمس الرغبة فى مجيء الاولاد او تحاميهم .

❋ ❋ ❋

يشيد المؤلف بمكانة الاولاد فى بحث فوائد الزواج التي يلخصها ويحصيها اولا ثم يشرحها ، فيجدها خمسا وهي : « الولد ثم يأتي كسر الشهوة وتدبير المنزل وكثرة العشيرة ومجاهدة النفس بالقيام عليهن» فهو يضع الذرية فى ذروة هذه الفوائد .

فالولد هو الاصل ، وله وضع الزواج .«والمقصود ابقاء النسل والا يخلو العالم من جنس الانس » فالميل باعث مستحث « كالتلطف بالطير فى بث الحب الذي يشتهيه ليساق الى الشبكة » ، اذ اقتضت الحكمة الالهية ترتيب المسببات على الاسباب فى هذا الشكل مع امكان الاستغناء عنها . وعند التأمل نجد فى السلالة « قربة من اربعة اوجه : الاول موافقة محبة الله بالسعي فى تحصيل الولد لابقاء جنس الانسان والثاني طلب محبة رسول الله (ص) فى تكثير من بمباهاته والثالث طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده والرابع طلب الشفاعة بموت الولد الصغير اذا مات قبله » .

ويشرح المؤلف الاوجه الاربعة ولا شك ان الوجه الاول اهمها وادقها واقواها . وذلك ان امتناع النسل بعدم الزواج تعطيل للحكمة الازلية المدرجة فى الكون وافساد للفطرة المقصودة . « ولذلك عظم الشرع الامر فى القتل للاولاد وفى الوأد لانه منع لتمام الوجود ، واليه اشار من قال : العزل احد الوأدين » .

❋) طبقات الشافية ج 4 ص 104 .
❋) المرجع نفسه ص 106 .
❋) المرجع نفسه ص 103 .

وقد يرد انه اذا كان بقاء النسل والنفس محبوبا فان فناءهما مكروه ، وقد قدر تعالى الموت والحياة « فكلاهما بمشيئة الله وهو غني عن العالمين فمن اين يتميز عنده موتهم عن حياتهم او بقاؤهم عن فنائهم ؟ » فالجواب عندئذ ان « المحبة والكراهة يتضادان وكلاهما لا يضادان الارادة فرب مراد مكروه ورب مراد محبوب فالمعاصي مكروهة وهي مع الكراهة مرادة والطاعات مرادة وهي مع كونها مرادة محبوبة ومرضية . اما الكفر والشر فلا نقول : انه مرضي ومحبوب بل هو مراد » .

اما الوجوه الباقية فيوضحها المؤلف معتمدا على ما ورد في ذلك من احاديث متفاوتة في درجات اسنادها. ومن المناسب هنا ان نبين موقف الفقهاء ومنهم الغزالي من وفيات الاطفال . فهم يرون ان الولد اذا مات وهو صغير كان شفيعا لابويه فهو ذخر يقدم وفرط يفترط على حد التعبيرات المتداولة عندهم ، ولا شك ان في ذلك تسلية وعزاء للآباء والامهات اذ كانت وفيات اطفالهم تحز في نفوسهم ، وقد ادرك المفكرون كثرة هذه الوفيات بالنسبة الى بقية مراحل العمر وعجبوا لهذا التلف الذاهب سدى بسبب هؤلاء المواليد الذين انما ولدوا لاجل الحياة والتعمير . قال ابو العلاء المعري مشيرا الى ذلك :

واعمار الذين قضوا صغارا
كاثواب بلين وما لبسنه

ولم يكن علم السكان متقدما لبيان ان القسم الاكبر من هذه الوفيات انما تاتي من اسباب اجتماعية خارجية وان نصيبا ضئيلا منها انما يرجع الى اسباب داخلية تكوينية . وانما مثل هذا التفصيل ادى اليه تقدم الاحصاء الذي خول قياس كل نوع من نوعي الوفيات وضبطه في السنوات الاخيرة من العصر الحاضر .

ويعود الغزالي الى شرح بقية فوائد الزواج فيذكر « التحصن عن الشيطان وكسر التوقان » . وهنا « ليس يجوز ان يقال المقصود اللذة والولد لازم منها كما يلزم مثلا قضاء الحاجة من الاكل وليس مقصودا في ذاته بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة، والشهوة باعثة عليه » .

على ان لذة الدنيا يصح ان تعتبر دالة على لذة الآخرة و « منبهة على اللذات الموعودة في الجنان اذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقا لا ينفع ... واحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ليكون باعثا على عبادة الله » .

ثم يذكر « ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة اراحة القلب وتقوية له على العبادة » ثم يورد « تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الاواني وتهيئة اسباب المعيشة » ثم تاتي « مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الاهل والصبر على اخلاقهن واحتمال الاذى منهن والسعي في اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لاجلهن والقيام بتربيته لاولاده . فكل هذه الاعمال عظيمة الفضل فانها رعاية وولاية والاهل والولد رعية وفضل الرعاية عظيم » .

ونرى انه اغفل في الايضاح كثرة العشير وقد ذكرها عند ما اجمل في البداية فوائد الزواج فذكر بدلا منها ترويح النفس وايناسها بالمجالسة والنظر ولم يشر هو ولا شارحه الزبيدي الى هذا الاغفال .

ثم هو يذكر جريا مع اتجاه تفكيره الولادة في جملة « الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المراة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده » اي « ان تكون المراة ولودا فان عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها ، قال عليه السلام (عليكم بالولود الودود) فان لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعي صحتها وشبابها فانها تكون ولودا في الغالب مع هذين الوصفين » (*)

ما قدمناه يؤلف العناصر الايجابية الدافعة الى الرغبة في الذرية . ومن المعلوم ان الاسلام في طليعة الاديان التي تحث على الزواج والانسال . هذا وعندنا ان اباحة تعدد الزوجات في بعض الشروط تدخل في العناصر الايجابية لتكثير النسل . ونتفهم هذا بسهولة اذا انتبهنا الى ارباء عدد النساء على الرجال في صدر الاسلام بسبب شهداء المجاهدين ، الذين فتحوا جوانب الارض ، وكذلك ورث المسلمون الاوائل ما خلفته جاهليتهم من آثار التقاتل والتفاني بين القبائل اذ كانت الحروب والغارات سجالا بينهم ولا شك ان آثارها كانت مشؤومة على الذكور ولا يمكن ان يعدلها وأد البنات الذي كان محدودا وانما عرف عند قليل من القبائل فحسب .

(*) حديث معقل بن يسار : تزوجوا الودود الولود

ولقد كـان الفقهـاء في تعليمهـم ومؤلفاتهـم لا يتحرجون من معالجة ما نسميه في العصر الحاضـر بالتربية الجنسية التي راجت عند بعض المجتمعات الغربية المتقدمة . والذي يطالع كتب الفقهاء والمفكرين يدرك الى اي مدى كانوا ينبهون الى مختلف تلك الامور تعبدا من جهة ورغبة في توفير اسباب السعادة للازواج جميعا لان الدين انما اتى لصالح الناس ولاسعادهم في الدارين وكانوا ينتهون في ذلك الى ادق التوجيهات .

وتبدو تلك الكتب الفنية الخصيبة ينابيع غزيرة لضروب متنوعة من البحث والتفكير فهي الى جانب صفتها الفقهية والدينية تضم الوانا انيقة من التفكير الاخلاقي وحقولا زاهية من التفكير النفسي واضاميم رشيقة من التفكير الاجتماعي ، ولا تتخلى زيادة على ذلك كله عن الانتباهات الفيزيولوجية والديمغرافية ، فانه لا حياء في معالجة امور الدين . ولقد تبع الفقه الاسلامي المرء في جميع اموره الدنيوية وحاجاته ومآربه ومصالحه ورسم له احتمالات من السلوك وخططا عامة تعينه في تصرفه فضلا عن اموره الاخروية . ولا غـرو فان الدنيا سبيل الآخرة ، وميدان العمل الذي يؤدي الى الخلاص والنجاة « وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون » .

ولا عجب بعد ذلك كله ان نجد الفقهاء قد تعرضوا لقضية ضبط النسل في صدد بحوثهم فيمـا دعونـاه « التربية الجنسية » . ويذكر الغزالي في كلامـه على آداب الزواج « الا يعـزل » ، ولا شـك ان البحـوث الفيزيولوجية وغيرها تشير الى طرق شتى في ضبـط النسل بعضها طبيعي يتصل بزمن عقم المراة في غضون دورة الطمث بـه اليها العالم الياباني اوجينو وبعضهـا كيميوي او آلي متعدد الاشكال . واذا بحث الغزالي او امثاله هذه القضية فذكروا العزل فاننـا نستطيـع ان نقلب جوانب الاباحة او الكراهة على جميع تلك الطرق اذ كانت اخف وطأة منه واقل ايذاء ولاسيما طريقـة اوجينو . نعمد شيئا من هذا التفصيل لان موقـف الكنيسة الكاثوليكية في العصر الحاضر اضحت تفرق بين تلك الطرق وتبيح اتباع طريقة اوجينـو بعـد اذ كانت تمنع ذلك القصد مطلقا ولقد تطور موقف المذهب البروتستانتي فاصبح اكثر تسمحا وتساهلا في ذلـك كلـــــه .

وعند ما يتناول الغزالي هذا البحث يشير الـى اختلاف العلماء في الاباحة والكراهة « على اربعة مذاهب فمن مبيح مطلقا بكل حال ومن محرم بكل حال ومـن قائل يحل برضاها ولا يحل برضاها وكأن هذا القائـل يحرم الايذاء دون العزل ومن قائل يباح في المملوكة دون الحـــرة » .

والصحيح في راي الغزالي الذي هو اكثر تسمحا في هذا الشأن من غيره ان ذلك مباح . واذا حصلت الكراهة في بعض الاحيان فانها « كما يقال يكره للقاعـد في المسجد ان يقعد فارغا لا يشتغل بذكر او صلاة ويكره للحاضر في مكة مقيما بها الا يحج كل سنة والمراد هذه الكراهة ترك الاولى والفضيلة فقط ، وهذا ثابت لمـا بيناه من الفضيلة في الولد » .

وهكذا يفرق الغزالي بين درجات الكراهيـة : كراهية التحريم وكراهية التنزيه وكراهية ترك الاولى والفضيلة مثل جمهور كبير من الفقهاء .

ثم يتناول المؤلف الفقيه النية الباعثة عليه . وهنا لابد من ان نشير الى ان الحكم المتعلـق بالسـراري والاماء قد زالت فائدته بزوال موضوعه . ولقـد كان اتجاه الاسلام متشوفا نحو تحرير الرق عامة فالاحكام المختلفة المتعلقة به اصبحت لها الصفـة التاريخيـة فحسـب . اما الحكم المتعلق في هذا الشأن بالزوجات فانه يدل على بلهنية الحضارة اذ ذاك من جهـة وعلى التفكير في استبقاء جمال الزوجة اذ يذكر صاحـب الاحياء بين النيات الباعثة على ضبط النسـل : «استبقاء جمال المراة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتهـا خوفا من خطر الطلق وهذا ايضا ليس منهيا عنه » .

وكذلك من جملة النيـات « ان تمتنـع المـراة لتعززها ومبالغتها في النظافـة والتحـرز من الطلـق والنفاس والرضـاع . . . فيكون القصد هو الفاسد دون منع الولادة » .

وايضا من جملة النيات « الخـوف مـن الاولاد الاناث لما يعتقد في تزويجهن من المعرة كما كان من عادة العرب في قتلهم الاناث فهذه نية فاسدة » . يأثم المرء لو ترك بسببها الزواج وكذلك الامر في تحامي مجيء الاولاد .

ثم ان ضبط النسل في ذلك الوقـت يـدل على تصعب اسباب الرزق في تلك الحياة المشتبكة الوجوه المعقدة المداخل بحيث لا يضمن المرء دائما الكسـب الحلال وذلك كما يحصل في العصر الحاضر في المدن الكبيرة اذ يغدو الولد عبئا اقتصاديا على الاهل .

ولا عجب اذا راينا الغزالي في كثير من كتبه يشير الى قضايا الكسب وينبه على آداب المعاش ويشير الى

اختلال توزيع الثروة في بعض الاحيان . وقد نشأت في ظلال الدولة العباسية حركات سياسية متعددة كانت تثور او تعلن في جملة مطالبيها السعي الى تحسين الامور الاقتصادية وعدالة توزيعها . يذكر الغزالي في كتابه « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » صفحة من هذا الاضطراب عند بيان صحة امامة المستظهر والتنويه بمزاياه وكفايته فيقول : « ولما استأثر الله بروح الامام المقتدي واستمع كافة الخلق بالامامة الزاهرة المستظهرية وقد وافق وفاته احداق العساكر بمدينة السلام وازدحام اصناف الجند على حافاتها والزمان زمان الفترة والدنيا طافحة بالمحن متموجة بالفتن والسيوف مسلولة في اقطار الارض والاضطراب عام في سائر البلاد لا يسكن فيها اوار الحرب ولا تنفك عن الطعن والضرب وامتدت اطماع الجند الى الذخائر ففغروا أفواههم وكان يتداعى الى تغيير الضمائر وثور الاحقاد والضغائن . . » (*) .

ويعمد الغزالي بعد قليل في الكتاب عينه الى بيان اصناف الاموال المنصبة في خزائن الخلافة وجهات صرفها وما يذكره في هذا السبيل يمكن ان يعتبر من الوثائق التاريخية التي تسجل الحياة الاقتصادية في ذلك العهد (*) .

وكذلك يتناول المؤلف غب الفراغ من فصول آداب الزواج في « احيائه » بحث آداب الكسب والمعاش وهو يكشف عن بعض صور الاخذ والعطاء والبيوع والتجارة في ذلك الوقت بالاضافة الى ما يذكر غيره .

ويلوح ان الحياة الاقتصادية قد تعقدت في ذلك العصر بحيث اصبح فريق من الناس يتعذر عليهم اعالة انفسهم او اهليهم ، ونجد المؤلف الورع يعمد في مواضيع متفرقة من كتاب « الاحياء » فيشير الى ذلك

ولا عجب هنا في مجال الكلام على ضبط النسل ان يذكر ايضا في جملة النيات الباعثة عليه اذ كانت الاولاد تقتضي نفقات لا بأس بها فيورد « الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الاولاد والاحتراز من الحاجة الى التعب ودخول مداخل السوء . وهذا ايضا غير منهي عنه فان قلة الحرج معين على الدين » . ولكنه لا يلبث ان يضيف : « نعم الكمال والفضل في التوكل والثقة بضمان الله حيث قال (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) . ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الافضل ولكن النظر الى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضا للتوكل لا نقول انه منهي عنه » (*) .

والخلاصة ان الغزالي في بحثه للزواج ولآدابه انما يسلك مسلك اغلبية فقهاء الشافعية مضيفا الى ذلك اعتبارات فكرية لطيفة تظهر جهات السلب والايجاب وتوضح تغاير الحدود وتفاوت النظر . ومن المعلوم ان الزواج عند الشافعية من الشهوات لا من القربات . فالتخلي للعبادة لغير التائق للزواج عندهم افضل من الزواج . وهو بهذا الاعتبار ليس عبادة على حين اشتهر عن الحنفية انه عبادة .

اما اهمية النسل فتبدو في كونه الغاية الاولى من الزواج وهو مقصد الفطرة وتحقيق حكمة التكوين . ومع ذلك فان قضية تحديده وضبطه اشتد فيها تشتت الآراء . واكثر تلك الآراء تجعل اباحته متعلقة باذن الزوجة في بعض الاحوال . ويحرم بعض فقهاء الشافعية امثال العز بن عبد السلام على المراة استعمال دواء مانع للحمل .

هذا ومن المناسب ههنا ان نشير الى موقف الامام ابن حزم الظاهري . فهو في كتابه « المحلي » (*) يعتبر

(*) ص 71 ، 72 .

(*) 73 ، 74 ، 75 . وكانت اموال الخليفة تشمل المستغلات وهي اموال موروثة له وأموال الجزية واموال التركات لا وارث لها كانت تنصب في بيت المال واموال الخراج المأخوذة من ارض العراق وهي من عبادان الى الموصل طولا ومن القادسية الى حلوان عرضا وهي التي وقفها عمر بن الخطاب على المسلمين ليكون خراجها منصبا الى بيت المال ومصالح المسلمين .

اما مصاريف تلك الاموال فيجمعها الغزالي في اربع جهات 1 ـ المرتزقة من جند الاسلام 2 ـ علماء الدين وفقهاء المسلمين 3 ـ محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية 4 ـ المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس .

(*) يذكر ابن قدامة الحنبلي في تسويغ ضبط النسل « ان يكون لحاجة مثل ان يكون في دار الحرب» المغني ج 7 ص 23 .

(*) ج 10 ص 70 .

الزواج فريضة على القادر . وكذلك يمنع ضبط النسل مطلقا .. وكأنه يحكم حياته في الاندلس كان يريد ان تكثر اولاد العرب بأي وجه تلقاء قوم آخرين كانوا اشد ازديادا . وقد يكون من الطريف انشاء دراسات دقيقة في المستقبل حول الاطار الاجتماعي لتلك المذاهب الفقهية الفكرية التي لم ترد فيها نصوص قاطعة وحول تلك المواقف الاجتهادية للائمة على نسق ما نجد في العصر الحاضر من دراسات متشعبة حول الصفة الاجتماعية للثقافة .

واذا اردنا ان نترجم الآن مذاهب الفقهاء والمفكرين المسلمين في مصطلحات العصر الحاضر فاننا نرى ان الفقه الاسلامي بوجه عام ينظر من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية الى النظرية المالتوسية على انها باطلة تخالف روح الاسلام واتجاهه العام ولا سيما قوله تعالى : « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » وكذلك فحوى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » ، « ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » وهي تخالف ما ورد في الحديث عن معنى تحديد النسل : « ذلك الواد الخفي » والاسلام يتفق في هذا الموقف مع النظرة الاشتراكية الحديثة التي تسعى الى تنظيم الاقتصاد بحسب السكان لا الى تنظيم السكان حسب الاقتصاد. ثم اننا في ميادين المذاهب الفقهية الاسلامية نجد بعض المفكرين متسمحين امثال الغزالي فهو يعتبر القضية من الوجهة الشخصية فقط فيبيح تحديد النسل عند رغبة الابوين فيه لاسباب متعددة ولكن اباحته تبقى متصفة بالكراهية التي هي ترك الاولى وترك فضيلة لا كراهية التحريم ، كما نجد بعض المفكرين متشددين حين يقتصرون على النظر الى الناحية الاجتماعية الصرف امثال ابن حزم .

* * *

اسمحوا لي في الختام وقد اطلت عليكم ان استطرد فاذكر جانبا من تنكيت الغزالي واشاراته اللطيفة وهي ربما كانت سببا من الاسباب الكثيرة التي ادت الى نجاحه في تدريسه وفي تآليفه كما ذكر ذلك السبكي في كلمته المتقدمة في مستهل هذا الحديث وتبدو في نكته واشاراته هذه ثقافته العربية الواسعة . فهو في بحث آداب الزواج يورد من عادات النساء العربيات انهن كن « يعلمن بناتهن اختبار الازواج وكانت المرأة تقول لابنتها اختبري زوجك قبل الاقدام عليه والجرأة عليه انزعي زج رمحه فان سكت فقطعي اللحم على ترسه فان سكت فكسري العظام بسيفه فان سكت فاجعلي الاكاف على ظهره وامتطيه فانه حمارك » .

ولكنه يورد ايضا وصية اسماء بن خارجة الفزاري لابنته عند التزوج وهي مشهورة متداولة يحسن ان تكون دستورا لكل زوجة : « انك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت الى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه . فكوني له ارضا يكن لك سماء وكوني له مهادا يكن لك عمادا وكوني له أمة يكن لك عبدا لا تلحفي به فيقلاك ، ولا تباعدي عنه فينساك ، ان دنا فاقربي منه وان نأى فابعدي عنه واحفظي أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك الا طيبا ولا يسمع الا حسنا ولا ينظر الا جميلا » .

دمشق : **عبد الكريم اليافي**

شجاعة المرأة في الإسلام وجرأتها الأدبية

للأستاذ محمد جميل بيهم

تجري الامم على دستور طبيعي وضعه الباري لجميع ما خلق ، وبمقتضى هذا الدستور تمر الجماعات ، كما تمر الافراد ، في ادوار الطفولة والشباب والشيخوخة ، وتزور المقابر أو ما هو بمعناها . ثم اذا بعثت حية بعد الانحلال فانما تبعث بروح جديدة لتمر في هذه الادوار كرة اخرى .

وقد كان العرب في الازمان الغابرة أمة ذات حضارة وشأن ادركت ، بعد عظمتها ، الشيخوخة في الجاهلية ، واشرفت على الهلاك فاذا بالاسلام يبعثها حية ، واذا به يجمع شتاتها ، ويقوم اخلاقها ، ويجعلها جديرة بأن تخفق اعلامها ، مدة اجيال ، في ربوع العالم، وتأتيه بحضارة هي من خير الحضارات كانت في سلسلة الحضارة الانسانية حلقة اتصال ربطت بين ما سلف من مدنيات وما خلف .

ومن سنن الدستور الطبيعي ايضا أن الامة التي تحلق في سماء التقدم والرقي ترتفع في الجملة وكأنها طائرة اذا حلقت في الفضاء لا يتخلف شيء من جهازها في الارض . وعلى هذه القاعدة فان الاسلام ما أن كان حافزا للعرب للوثوب وثبتهم الاولى حتى خلق فيهم روحا جديدة بدت آثارها ظاهرة في اوساط رجالهم ونسائهم على السواء .

فالاسلام اذ جعل النساء شقائق الرجال اكسب المرأة صفات لا عهد لها بها في العصر الجاهلي ، صفات كانت حافزة لها للمساهمة في تحمل اعباء ذلك الانقلاب الاجتماعي الكبير الذي اضطلع به العرب من اجل اعلاء كلمة الله .

وحين عجزت الحجة ، وعجزت الدعوة بالحسنى طوال ثلاث عشرة سنة قضاها محمد (ص) في يثرب يستعين بهما لهدي المشركين ، وأصر هؤلاء على المكابرة كان لابد للرسول أن يخاطبهم ، منذ استقر في المدينة ، باللسان الذي لا يفهمون سواه فانتضى السيف . ولكن السيف لا ينفع اذا لم ترافقه الشجاعة والايمان ، فاذا بهاتين الخلتين الطيبتين تبرزان الى جانب السيف ويتحلى بهما النساء مثل الرجال . واذا بالمرأة تبرز الى الميدان ، وتبدي في عهد الرسول وخلفائه ، من الشجاعة والبسالة والتضحية مالا عهد لامة به في التاريخ .

لقد لقي السيد المسيح نصيرات عطفن عليه ، والتففن حوله ، اما سيدنا محمد فالى ذلك وجد من النساء الشجاعات اللواتي خضن المعارك معه ! واشتركن في الفتوحات من بعده ، واللواتي كان لهن رايهن المستقل حينما اختلف المسلمون على الخلافة .

ففي عهد النبي (ص) نذكر ام عطية ، وام عمارة وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . فأم عطية شهدت مع الرسول سبع غزوات ، وابلت فيها بلاء حسنا . وأما ام عمارة نسيبة بنت كعب المازنية فاشتركت في غزوة احد ، وبيعة الرضوان ، ويوم اليمامة ، وكانت تقاتل في تلك المعركة مع ابنها عبد الله حتى قطعت يدها ، وجرحت اثنا عشر جرحا . اما موقفها الباسل في غزوة احد فكان اكليل غار توجت به رؤوس بنات جنسها . فلما تناولت سيوف المشركين اصحاب النبي فولوا الادبار كانت بين العشرة الذين وقفوا يدافعون عنه ، فانتضت سيفها ، وذهبت تصول وتجول بين يدي الرسول حتى كانت من اظهر القوم أثرا ، واعظمهم في نجاته .

وقد رآها الرسول يومئذ تعصب جرحا ينزف دما في ذراع ابنها عمارة ، فما انتهت منه حتى دفعته

للكفاح . ويرمقها الرسول بنظرة حانية قائلا لها : « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة » ؟

ثم لما نهد المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين لافتتاح الامصار فيما وراء جزيرة العرب مبتدئين بالشام كان بعض نسائهم يرافقنهم في تلك الفتوحات . اما الشجاعة التي ابدتها المسلمات في تلك الحروب فنترك للمؤرخ ادوار جيبون الحديث عنها . فقد نوه بها في كتابه « تاريخ الامبراطورية الشرقية » وهو الكتاب الذي يتكلم عن الامبراطورية البيزنطية وقال:

« ان الشجاعة التي اعربت عنها المراة المسلمة في موقعة اليرموك ، وفي غضون حصار دمشق لاعظم مما يتناوله التاريخ . »

واذا كان لابد من ايراد ذكر واحدة من بطلات هذه المعارك التي كانت بقيادة سيف من سيوف الاسلام المسلولة خالد بن الوليد فحسبنا التنويه بخولة بنت الازور . وقد تحدث عنها الواقدي في كتابه فتوح الشام حديثا لا عهد للتاريخ بمثال له .

واما في حرب العراق فكانت خزامة بنت خالد بن الوليد بن جعفر بن قرط ، في جيش سعيد بن ابي وقاص ، كابنة الازور في جيش ابن الوليد . فقد حضرت ، فيما حضرت ، فتح الحيرة ، وابرزت فيها من الشجاعة ما لا يوصف .

وما كانت ام الحرام الرميصاء بنت ملحان ، اقل منهما شجاعة في جيش الامير معاوية بن ابي سفيان ، فقد ركبت البحر معه ، يوم كان ركوبه كدود على عود، ومضت لفتح قبرص حتى كان البر لم يعد متسعا لجهادها ، واستشهدت في عهد هذا الفتح ، ودفنت في مدينتنا بيروت .

ثم لما عصفت اعاصير الخلاف بين المسلمين الاوائل من وراء النزعات القبلية القديمة لم تحد المراة عنها ، بل خاضت الصراع مثل الرجل ، وقاتلت دفاعا عن رايها ، فكان فريق من النساء حزبا للامام علي ، وفريق آخر مناوئا له ، وعلى راسه عائشة أم المؤمنين . والسيدة عائشة لم تكن في عداد الذين عارضوا خلافة علي بن ابي طالب فحسب ، بل قادت جيشا بنفسها لقتاله . وان التاريخ ليذكر مواقفها الباسلة في وقعة الجمل وهي لاتفتأ تثير الحماس في نفوس اجنادها ، وتحضهم على الثبات رغم اصابة الجمل الذي كان يقل هودجها .

وما السيدة عائشة الا واحدة من النساء الكثيرات اللواتي اشتركن في ذلك الصراع الداخلي : فئة منهن كانت من انصار الخليفة علي بن ابي طالب ، وفئة اخرى كانت من انصار السيدة عائشة الهاشمية والامويين . والفئتان لم تتنافسا على صعيد الراي والاجتهاد فحسب ، بل ساهمتا في الحروب التي نشبت حول تاييد هذا الراي ، او ذاك الاجتهاد .

وهناك فريدة في الشجاعة ظهرت في صدر العصر الاموي يجدر بي ان لا انساها في معرض التنويه بشجاعة مسلمات ذلك العهد الذي كان نارا ونورا ، واعني بها غزالة الحرورية زوج شبيب بن يزيد قائد الخوارج . فقد كانت وبعلها يتعاقبان على قيادة الجيش بشجاعة لا مثيل لها .

من منا لا يسمع بالحجاج الثقفي الذي خاطب العراقيين الثائرين بقوله :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى اضع العمامة تعرفوني ؟

لقد هزمت غزالة هذا الجبار المشهور ببطشه . وما هزمته لكثرة عصابتها بالنسبة لاجناد الدولة ، وانما بالشجاعة التي ابدتها في تلك المعركة حيث شكته بسنانها بين كتفيه فهلع قلبه ، وولى الادبار . وقد عيره بذلك عمران بن حطان اذ لج الحجاج في طلبه وقال:
اسد علي وفي الحروب نعامة

فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة في الضحى
بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بعساكر
تركت كتائبه كامس الدابر

الشجاعة الادبية

في العصر الذهبي تبرز الفضائل عند الامم بكثرة حتى يزاحم بعضها بعضا . ومن هنا لم يكن نساء العرب في صدر الاسلام شجاعات فحسب ، بل الى جانب شجاعتهن ، واعتمادهن على انفسهن ، كن

متحليات بخلال اخرى حميدة ، وعلى راسها الشجاعة الادبيـــة .

ان موقف تلك المراة فى المسجد حينما اراد عمر بن الخطاب تحديد مهور النساء كان مثالا حيا على هذه الشجاعة الادبية . عمر بن الخطاب امير المؤمنين المهاب لا تتورع امراة عن معارضته والقول لـه :

« بماذا يحـل لك هذا والله يقـول : « وآتيتـم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا » على ان الروعة كانت ابلغ حينما أنصت لها الخليفة ، ثم قـال :

« امراة اصابت ، ورجـل اخطـا . »

وهذا الحوار الذي جرى بين عمر بن الخطـاب وبين تلك المراة العجوز لم يدل على شدة الجراة الادبية فحسب ، بل كان ، فى نفس الوقت ، يـدل على اثـر الاسلام فى تهذيب الاخلاق . فعمر رضي الله عنه كان، قبل الخلافة، ، على شدة فى الاخلاق ترهبهـا النـاس ، فاذا به ، بعد اسلامه فتوليه الخلافة ، يشتهر بالتواضع والتقشف والرحمة بالمؤمنيـن .

هذا وكان من المفروض أن تسد النوافذ امـام الجراة الادبية بعد ان صارت الخلافـة ملكـا عضودا ، ولكن اصالة البداوة فى الامويين بالاضافـة الى حلـم معاوية بن ابي سفيان امد فى اجلها . وفى الجزء الاول من العقد الفريد لابن عبد ربه وغيره امثلة كثيرة عليها. وحسبنـا ان نقـرا فيـه اخبـار الوافـــدات تباعـا على معاوية من نصيرات الامام علي ، كاروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمارة ، وام سنان بنت جشمة ، ودارمية الحجونية لنرى الدليل اثر الدليل على توفـر تلك الجراة بين نساء ذلك العصـر .

على ان حلم معاوية وسع ايضا اللواتـي حملـن السيوف فى صف علي ، وقاتلنه كالزرقاء بنت عـدي ، وام الخيـر بنت حريش . فلمـا استتب لـه الامـر استقدمهما اليه ، وحاورهما فكان حواره معهما مثالا حيا على الجراة النسائية ، وعلى الوفـاء .

استقدم ، معاوية الزرقاء عزيزة مكرمة ، فرحب بهـا ، وهش لها ، وقـال :

« كيف حالك يا خالدة ، وكيف رايت مسيرك ؟ » قالت « خير مسير كاني كنت ربيبـة بيت ، او طفـلا ممهدا » قال : « بذلك امرتهم . فهل تعلمين لم بعثت اليك ؟ » قالت « سبحان الله اني لي بعلم ما لم اعلم ؟ » قـال « بعثت اليك لاسالك . الست راكبـة الجمـل الاحمر بصفين بين الصفين توقدين الحرب ، وتحثين على القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ » قالت يا اميـر المؤمنين « انه مات الراس ، وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ، ومن تذكر ابصر . والامر يحدث بعده الامر . » قال لها « صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ » قالت « ما احفظه » قال « ولكني والله احفظه. لله أبوك لقد سمعتك تقولين (وذكر مقالتها) ، ثم قال « والله يا زرقاء لقد شركت عليا فى كـل دم سفكه . » فقالت « احسن الله بشارتـك ، يا اميـر المؤمنيـن ، وادام سلامتك ، مثلك من بشر بالخير وسر جليسـه . » قال: « وقد سرك ذلك ؟ » قالت « نعم لقـد سرني قولك ، فاني بصديق الفعل ؟ » قال « والله لوفاؤكم له بعـد موته احب الي من حبكم لـه فى حياتـه ؟ اذكري مـا حاجتك ؟ » قالت « يا امير المؤمنين اني قد آليت على نفسي الا اسال اميرا اعنت عليه شيئا ابدا ، ومثلـك اعطى من غير مسالة ، وجاد من غير طلب . » قـال : « صدقتك » فاقطعها ضيعة غلتها فى اول سنة عشرة آلاف درهم ، وردها والذين معها مكرمين . وقد مات معاوية بعد ذلك ، ولكن الجراة الادبية لم تمت بموته ، ولا سيما فى شبه جزيرة العـرب . ذلك بان شمائلهـا رليدة الزمان ، ولا بقضي عليهـا الا من كرور الزمان . وعلى رغم ما استفاض من انبـاء شدة عبد الملك بـن مروان القائل فى احدى خطبه :

« والله لا يامرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقـه . »

وعلى رغم محاولته اخفات صوت الجراة الادبية فان محاورته مع عزة كثير ، وبثينة جميل تشير الـى عجزه عن اخفات صوت الحرية فى جزيرة العرب .

روى ابن حجـة الحمـوي فى كتابـه « ثمـرات الاوراق » هذا الحـوار فقـال :

« دخلت عليه بثينة وعزة فانحرف الى عزة وقال: « انت عزة كثير ؟ » فقالت « لست لكثير بعزة ، ولكني ام بكـر » . قال ، وقد اراد التلميح بـتلو محبها لها ، « او تروين قول كثير ؟ »

وقـد زعمت انـي تغيـرت بعـدهـا
ومـن ذا الـذي يا عـز لا يتغيـر ؟

فاجابته ، وهي تريد انكار ذلك على عشيقها ، والتنويه بشغفه بها : « لست اروي هذا ، ولكنني اروي قوله :

« كانني انادي او اكلم صخرة
من الصم لو تمشي بها العصم زلت »

ثم انحرف عبد الملك الى بثينة وقال : « أنت بثينة جميل ؟ » قالت « نعم يا امير المؤمنين » قال: « ما الذي راى فيك جميل حتى لهج بذكرك بين نساء العالمين ؟ » قالت : « الذي راى الناس فيك فجعلوك خليفتهم . »

فضحك عبد الملك حتى بدا له ضرس أسود ، ولم ير قبل ذلك ، وفضلها على عزة بالجائزة . ولكن لكل بداية نهاية . فهذه الشمائل ، التي حملها العرب معهم من شبه جزيرتهم الى انحاء العالم ، لم تلبث ان اصطدمت بالاخلاق الاخرى الاعجمية ، وانتهى التفاعل بينها وبينهن الى غلبة الكثرة على القلة . ثم تبخرت بعد ان دالت دولة العرب ، وأمسوا وقتئذ رعية للاعاجم . « وتلك الايام نداولها بين الناس . » .

بيروت : محمد جميل بيهم





للأستاذ: عبد السّلام الهرّاس

ان من طبيعة الجماهير ان تنقاد وان تبحث عن قيادة تسير وراءها ، ولم تخل امة من الامم من قيادة حتى الامم المنحطة البدائية ، تلك سنة الله فى خلقه ، وقيمة الامة فى قيادتها الفكرية ، ولقد كانت القيادة فى العصور القديمة بسيطة لبساطة الحياة ، كما كانت تعتمد اكثر على القوة الجسمية لان الصراع كان اقوى فى ميدان السنان والحروب ، غير ان التطورات الانسانية اصبحت تفرض على القيادة فى العصر الحاضر ان تتسلح بسلاح الفكرة ، ذلك السلاح الذي اصبحت تعتمده الدول العظمى لغزو الشعوب الضعيفة ؛ مستغلة فراغها الفكري وبلبلتها الروحية ، مستهدفة من وراء ذلك تكوين مستعمرين جدد يؤمنون بعبودية جديدة للاستعمار وبشرعية استغلاله وباهمية قيادته وبسرمدية تفوقه ، وتكون لهم – اي للمستعمرين بفتح الميم – قدرة ونشاط على العمل لارضاء السادة كما تجهز لهم ثقافة مختارة محددة لا تسمح لهم بالشعور بكرامة امتهم ولا تحملهم على الحنين لامجاد ماضيهم ، بل انها تقطع الصلة بينهم وبين تاريخهم وبين اسلافهم الا من ثقافة محلية زورها الاستعمار وشحنها بالاكاذيب ، وزيف حقائقها وقلب وقائعها وصور للوطنيين تاريخهم على نحو يحملهم على التنكر له والاشمئزاز منه والفرار من عاره وهكذا يستسلمون لاحضان ثقافة سيدهم التي هي نسيج من الاضاليل وتزييف الحقائق حيث تجعل من الرذائل صورا رائعة من الفضائل ، وتسطو على كل مفخرة من مفاخر الانسانية وتنسبها لنفسها ، غير ان المهم من هذا ، هو تكوين قيادة مزيفة ، ولكن مؤمنة باهداف الاستعمار الثقافي ، وهكذا تبتلى الامم الضعيفة بطراز سخيف وخطير من القيادات يجهل مبادىء الاجتماع وحقائق التاريخ ، ويحاول ان يجعل من امته امة ان لم تكن شبيهة بتلك التي لقنته ثقافتها المجهزة ، فعلى الاقل ان تحاول التظاهر ببعض مظاهرها ، وبما ان شرط الابداع والحضارة منعدم فى امة تكون قيادتها على هذا الشكل فان المسخ هو الذي يسود حياتها بشكل مضحك ومؤلم معا .

ولا يهم الاستعمار ان تظل الامة عاجزة عن التشبه ببلاده بل بالعكس يهمه اكثر ان تظل الامة الواقعة تحت سيطرة كيان ثقافته حائرة تدور فى الفراغ ، قلقة الخطى سطحية التصاميم ؛ لان فى ذلك فرصة له فى الاستمرار والقيادة ، ولهذا يلاحظ ان الامم التي ما تزال تتعثر فى سيرها ؛ هي تلك التي ما تزال قيادتها تتبنى وتؤمن بتلك الثقافة المسمومة التي تشل الارادة وتقيد الفكر وتجعل بعض قادة هذا النوع يتهمون امتهم بالبلادة وبانخفاض الوعي وبعدم القدرة على التجاوب مع الافكار التي يظنون انها سامية ، ولهذا كان من شرط نجاح القيادة ان تتعمق فى فهم النفسية للامة فهما مستقلا عن كل تاثير اجنبي او توجيه استعماري، وبذلك تستطيع القيادة ان تقف على حقيقة آمال الامة واهدافها ومكامن القوة والضعف فيها وطبيعة تكوينها ومزاجها وعلاقاتها التاريخية والعقائدية والفكرية ، فان استطاعت ان تصل الى ذلك الفهم وان تؤمن بمبادىء الامة ايمانا عميقا خلاقا فانه يسهل على القيادة تعبئة الامة روحيا وفكريا وجسميا ، والاهابة بها الى البناء والتشييد ، وسترى المعجزة الجبارة التي تستطيع الامة ان تظهرها فى لحظة وجيزة من الزمن .

ولهذا لا نستغرب ان وجدنا الفشل يحالف دائما وابدا القيادة الغريبة عن الامة ، مما يجعل الفراغ

الفكري والعقائدي يستفحل ويتعمق بمرور الزمن ، الا ان هذا الفراغ لا يمكن ان يظل خاليا من فكرة او معتقد ولهذا يسارع الاستعمار الى محاولة ملء هذا الفراغ بكل ما لديه من وسائل وسيطرة ظاهرة وباطنة حتى يستعمر الافكار والقلوب ليملك الارض ومن عليهـا ...

والخطر الذي يداهم امتنا اليوم من جراء انعدام القيادة الايدلوجية الاسلامية هو هذا الذي يزحف زحفا شاملا على عقول ونفوس اطفالنا وشبابنا من الجيل الصاعد الذي سيكون عما قريب عنوان الامة وقائدها ، فلقد اصبح هذا الجيل ينمو في اجواء خاصة مكيفة تكييفا آسنا خطيرا على الفكر والعقيدة والحضارة الاسلامية ، انه يعد اعدادا مدروسا لكي يصبح « مسلما » من طراز عصري يحمل اسما اسلاميا عربيا ولكنه غريب القلب عن الاسلام وغريب اللسان عن العروبة .

وان الاهمية العظمى التي يوليها اعداء الاسلام للمغرب من اجل جعله قنطرة تعبر عليها المؤامرات التبشيرية والدسائس الفكرية لتدل على مدى شعور الكفار الجاحدين للقيم الانسانية بخطر هذه الامة العظيمة ، ذلك الخطر الذي يكمن في عقيدة المغرب المسلم ، وان اعداء الاسلام لم ينسوا الهزائم المنكرة التي منوا بها في ميدان التبشير ، تلك الهزائم التي كانت اشد خطرا عليهم من هزائمهم في ميدان السلاح ، وقد كان ابطال تلك المعارك جماعة من البسطاء لا يحملون سوى عقيدة بسيطة وسوى رغبة في نشرها عبر القارة الافريقية ، ولقد كان المبشر اول من يتشاءم عند ما يسمع بان في منطقته مسلما من ذلك النوع الذي حذره منه اسلافه الذين فشلوا في ميدان التبشير ، وانه ليصيب في تشاؤمه اذ لا يلبث هذا الصوفي البسيط ان ينقض في لحظة كل ما بناه المبشر في اعوام .

ومن المعلوم ان افلات الافراد والجماعات من سيطرة المبشر معناه في الحقيقة تحريرهم من قبضة الاستعمار ، غير ان من طبيعة الاستعمار عدم اليأس ومواجهة الظروف بالخطط المناسبة ، فهو يصارع التطور ويحاول ان يسابقه وان يبادره بما قد يخدم اهدافه ويجعل الحاضر والمستقبل لصالحه وطوع يمينه ، ولذلك لا تستغرب من الاستعمار عندما يتكرم على بعض الشعوب بالاستقلال لان هذا النوع من الاستقلال اصبح ضمن خطة استعمارية بعيدة النظر ، وفي الوقت الذي تحتفل فيه الشعوب الضعيفة بعيد استقلالها بما لديها من ابواق واجواق وفولكلور وخطب رنانة ، في هذا الوقت بالذات يشرع الاستعمار في تنفيذ الخطة الجديدة لتخريب الامة من داخلها ، ولذلك ما نزال تلفت انظار ارباب الحضارة الاسلامية في هذا البلد ، الا اننا الآن يجب ان نحدد طبيعة المعركة بيننا وبين الاستعمار ونقدرها قدرها ، كما يجب ان نحدد ميادينها ووسائلها بدقة حتى لانظل حيارى نتيه في متاهات الارتجال والاعتباطية ، وان من اهم الميادين المستهدفة للاستعمار الجديد هي هذه الاعداد الكثيرة من اطفالنا وشبابنا الذين يحاول بهم افساد نظرتهم للحياة وتوجيه افكارهم وجهة لاترضي الله ، وفي القريب العاجل سيصبح هؤلاء الاطفال والشباب الجيل الكبير وسيتلوهم جيل صغير يتجرع نفس السم الذي تجرعه آباؤهم ، وهكذا سيتحد الجميع في صفة واحدة الا وهي الفراغ من العقيدة ، ولهذا يجب ان نبادر نحن الى افساد خطة الاستعمار الجديد بخطة جدية مؤمنة واعية قبل فوات الاوان ، وان المومنين مدعوون بكل الحاح الى تدارس الامر من جميع وجوهه، وبكل حماس ، وكفانا ثرثرة وجعجعة لا تغني ولا تسمن، وان محاولة الفرار من مواجهة المسئولية الجسيمة ببعض التعويضات التافهة وباتخاذ بعض الاساليب السلبية لنصرة الاسلام لهي حجة ضد اولئك الذين يظنون انهم يحسنون صنعا وهم في الواقع لا يزيدون الا انكبارا امام السيول الجارفة من خطط اعداء الاسلام ، واذا لم يكن للاسلام انصار في الوقت الحاضر يجندون انفسهم بالايمان والصراحة والتضحية والصمود فمتى سيكون له ذلك اذن ؟ ان الحاضر لينذر بخطر المستقبل هذا المستقبل الذي ان اخضعناه لعملية حسابية فان حاصل نتيجته سيكون الاجهاز على الاسلام والعياذ بالله .

تطوان : عبد السلام الهراس

اشتراكية الاسلام

للاستاذ محمد كمال شبانة

روى البخاري عن المعرور قال : « لقيت ابا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألته عن ذلك . فقال : اني سابيت رجلا فعيرته بامه ، فقال لي النبي «ص» : يا أبا ذر ، أعيرته بامه ؟ انك امرؤ فيك جاهلية ، اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت ايديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فاعينوهم » رواه البخاري فى كتاب « الايمان »

روى هذا الحديث ايضا مسلم عن المعرور وغيره من طرق متعددة ، وكذا رواه ابو داود والترمذي واختلفت الروايات فى بعض عبارات الحديث : وسنعرض لها فى حينها .

قوله : « لقيت ابا ذر بالربذة » الربذة موضع بين المدينة والبادية ، بينه وبين المدينة ثلاث مراحل ، قوله : « وعليه حلة وعلى غلامه حلة » الحلة فى الاصل ثوبان من جنس واحد ، وظاهر حديثنا يدل على ان كلا منهما كان يلبس ثوبا واحدا ، اذ جاء فيها « رايت عليه بردا وعلى غلامه بردا » ، فقال « لو اخذت هذا فلبسته كانت حلة » ومثل هذا ما جاء فى رواية مسلم « فقلنا يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة » وكذلك جاء فى رواية ابي داود : « فقال القوم : يا ابا ذر لو اخذت الذي عند غلامك فجعلته مع الذي عليك لكانت حلة » وحينئذ يجب التوفيق بين هذه الروايات والرواية الاولى للبخاري ، وذلك يتأتى بانه اطلق فى حديثنا الحلة على الثوب الواحد من باب اطلاق الكل على الجزء تجوزا ، كاطلاق الاصابع على الانامل ، « يجعلون اصابعهم فى آذانهم » فالحديث بظاهره يدل على ان ما كان يلبسه الغلام من جنس ما يلبسه ابو ذر ؛ لان الحال التي كان عليها ابو ذر وغلامه استلفتت نظر القوم ، لانها كانت غير مألوفة لهم ، فاجابهم ابو ذر بما يدل على انه اتبع فى ذلك نص الحديث وفيه : « وليلبسه مما يلبس » أي من جنسه .

وقوله : « فسألته عن ذلك » يراد منه أنه سأله عن سبب الباسه الغلام من جنس ما يلبس ، لا عن شيء آخر كنوع الملبوس أو وصفه ، وباقى الحديث يدل على ان هذا هو المراد ، وانما سأله عن هذا السبب، لان ذلك كان غير المألوف من عادات الناس فى ذلك الحين اذ كان من عادتهم ان تكون ثياب المملوك دون ثياب سيده .

قوله : « انى سابيت رجلا . . . الخ » ليس فى هذه العبارة ما يدل على كنه الرجل الذي سابه أبو ذر ، اعظيم هو ام حقير ؟ سيد ام عبد ؟ او خادم ليس بعبد ؟ ولكن آخر الحديث ظاهر فى انه كان من الخدم، والخدم اكثر ما كانوا من العبيد ، وذلك قوله « اخوانكم خولكم » ورواية ابى داود تدل على أن هذا الخادم كان عبدا ، اذ جاء فيها « فشكاني الى الرسول «ص» ، فقال يا ابا ذر انك امرؤ فيك جاهلية » قال « انهم اخوانكم فضلكم الله عليهم ، فمن لم يلائمكم فبيعوه ، ولا تعذبوا خلق الله » ، فقوله « فبيعوه » يدل على انه كان عبدا ، وقد قال صاحب (منهج الراغبين) : « الذي نعرفه انه بلال » وقد زاد مسلم فى رواية فقال : « سابيت رجلا من اخواني » اي اخوان ابى ذر ، وهذا يشعر بان الرجل كان عظيما ، وليس بخادم ، وعلى هذا تكون رواية البخاري جاءت مطلقة ، ورواية مسلم قيدت الرجل بانه من اخوانه ، أو تكون رواية مسلم فى ظاهرها متعارضة مع رواية ابى دواد ؛ لما اشعرت به

رواية مسلم من عظمة الرجل ، وما نصت عليه رواية ابي داود من انــه كان عبدا ، غير ان هذا الظاهر مــن التناقض يذهب متى علمنا ان الرسول «ص» قـــال: « اخوانكم خولكم » في كل من رواية مسلم وابي داود وغيرهما ، فقد بين ان العبيـد اخــوان السادة ، اذ لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وقد نبه الله الى ذلك بقوله : « انما المؤمنون اخــوة » ، ولم يفرق بين سيد وخادم في ذلك . .

قوله : « ساببت رجلا » معنـاه : وقعت بينـي وبينه مسابة اي شاتمته ، والمسابة ماخوذة من السب، فالمسابة فيها مقاطعة بين المتسابين او قطع للمسبوب عن اللحاق بمن سبـه ، ولفظ الحديث يـدل على أن السب قد حصل من الجانبين اخذا من المفاعلة ، وقـد صرحت رواية مسلم بما يفيد هذا ؛ اذ جاء فيهـا . . « قال اعيرته بامـه ؟ » فقلت : من سب الرجال سبوا أبـاه وامـه » .

قوله : « اعيرته بامـه ؟ » ، اي نسبته الـى العار بسبب امه ، وذلك لانه قال لـه : « يا ابن السوداء » ، كما يدل على ذلك قوله في رواية أخـرى : « قلت لـه : يا ابن السـوداء » ، او لانه قال له : « يا ابن الاعجمية » كما يدل عليه ما جاء في رواية ابي داود « وكانت أمــه اعجمية ، فعيرته بامه » والفاء في قولـه « فعيرتـه » تفسيرية ، ومعنى ذلك أن السب من أبي ذر كان التعيير بالام ، وقد يؤيد هذا الاخير ما جاء في روايـة مسلم ، قال : اعيرته بامه ؟ فقلت : « من سب الرجال سبـوا ابـاه وامـه » فقوله « وامـه » يشعر بانه زاد بتعييره بامه ؛ ا لو كان التعيير غير زائـد على السب لقـال : « من سب الرجال سبوه » .

قوله : « اعيرته بامـه ؟ » قـول الرسول عليـه السلام ، وظاهر انه استفهام انكاري ، ولهذا قال الرسول عليه السلام ، عقب هذا الانكـار : « انك امـرؤ فيك جاهليـة » ، ولم يتبين من حديثنا ما اذا كان الرسول كان سامعا لهذا السب فتكلم بناء على ذلك مع ابي ذر ، أم بلغه فقال ما قال ، ولكن رواية ابي داود تبين وجـة المسالة ؛ اذ جاء فيها فعيرته بامه فشكاني الى رسول الله «ص» فقال : يا ابـا ذر . . . الخ .

قوله : « فيك جاهلية » اصل الجاهلية ، الفترة قبل الاسلام ، ولكن المراد هنا فيك خصلة من خصـال الجاهلية ، فالرسول يزيـد على توبيخـه في الجملـة السابقة بالافصاح في هذه الجملـة عـن أن التعييـر بالامهات من الخصال التي تتنافر مع خصال الاسلام ، فيكون من قوله « اعيرته بامـه » وقوله : « انك امـرؤ فيك جاهليـة » كمال الاتصال ، نظرا الى ان الثانيـة جاءت في مركز التاكيد المعنوي للاولى من حيث أنهـا جـاءت مقررة للمراد منهـا وان خالفتهـا في اللفظ ، ومن هنا فصلت عنها ولم تعطف عليها . ونحـــن اذا استعرضنا خصال الجاهلية التي هي معاصي وجدناها الشرك ا وما هو دون الشرك مما عده الاسلام من كبائر الذنوب او صغائرها ، ولا جائز ان المـراد هنا الشرك ونحوه كالكفر ؛ لان منزلة ابي ذر رضي الله عنـه مـن الايمـان كانت في الذروة ، وليس مـن المعاصي غيـر الشرك ما يجعل صاحبه كافرا ، اللهم الا عند الخوارج فانهم يكفرون ببعض الذنوب ولكن النص القرآني يرد هذا الزعم بقوله : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فقد اعتبر المعاصي قسميـن : اولا : قسم لايغفره الله وهـو الشرك ، وثانيـا : قسم يغفره ان شاء ، وهو ما دون الشرك ، ولسنـا نريـد بالشرك الذي لايغفر ما لايعم الكفر ، بل المـراد منـه ما يعمه ، ضرورة ان من آمن بالوحدانية وكفر بمحمد «ص» يكون ممن لايغفر لهم ؛ لقوله التالي في آية اخرى: « ان الذين كفروا من اهـل الكتاب والمشركين في نـار جهنم خالدين فيها ، اولئك هم شر البريـة » .

والظاهر ان هذا التعيير الذي حدث من ابي ذر كان قبل ان يعرف ان هذا محرم ، فكانت هذه لاتزال باقية عنده ، ويشير الى هذا ما جاء في رواية البخاري لهذا الحديث في كتاب الادب : « قلت علـى ساعتي هـذه من كبر السن ؟ قال . . نعم » ، فان هذا يشعـر بانـه تعجب من خفاء هذا الحكم عليه مع كبر سنه .

قوله : « اخوانكم خولكم » الاخوة هنا مجاز عن مطلق القرابة ، لان الكل اولاد آدم ، او مجاز عن أخوة الاسلام ، وعلى الاخير يكون المماليك الكفـرة تابعيـن للمماليك المؤمنين في هذا الحكم ، قياسـا عليهـم ، اي انهم يكونون كالمماليك المؤمنين في مستلزمات الاخـوة الاسلامية كحسن المعاملة ، واعانتهم فيما يثقل عليهم ، « والخول » جمع خايل وهو الراعي ، او الخادم ، وكل هؤلاء يقومون بالخدمة ،فهم يتخولون شؤون مخدوميهم اي يصلحونها ، اخذا من قولهم : خال المال يخوله اذا اصلحه واحسن القيام عليـه ؛ والظاهـر من سيـاق الحديث انه يريد ان يخبر عن الخـول بانهـم اخـوان لمخدومهيم فكان مقتضى هذا الظاهر ان يقول : « خولكم

اخوانكم » ولكن عدل عن هذا بتقديم الخبر على المبتدا للاهتمام بالاخوة التي يريد ان يسبغها على هؤلاء الخادمين ، وليكون في ذلك افادة قصر الخول على كونهم اخوانا ، اي ليسو الا اخوانا ، وهذا مما يستوجب الاحسان اليهم ، وترشيح هذا وصاية بهم بقوله في آخر الحديث : « فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما ياكل ... الخ ، وكذا قوله : المؤمن أخو المؤمن ، سبابه فسوق ، وقتاله كفر » فلم يفرق بين الخدم وغيرهم ، ولكن كثيرا منا تاخذه العزة بالاثم ، فيظن الخدم جنسا دون جنسه ، فمثل هؤلاء مخالفون لاصول الدين ، التي لو راعيناها لحمتنا من المبادىء الهدامة .

قوله : « جعلهم الله تحت ايديكم » اي ان ايديكم مبسوطة عليهم ، وهذا مجاز عن قدرة السادة او تملكهم لعبيدهم . قوله : « فليطعمه مما ياكل ، وليلبسه مما يلبس » الاصل في الامر ان يكون لايجاد المطلوب ، لكنهم قالوا .. ان الامر هنا خرج عن اصله الى الاستحباب ، وسندهم في هذا ما حكوه من الاجماع على ذلك ، فيكون المعنى : يستحب ان يطعمه من جنس ما ياكله ويلبسه الخ .. » ولو اطعمه ما يقوته ولو لم يكن من جنس ما ياكل لكان قد ادى الواجب ، وكذا لو البسه مما يقيه الحر والبرد وان لم يكن من جنس ما يلبس . فيكون ابو ذر في عمله متورعا ، ياتي باوسع مما يستلزمه الامر ..

قوله : « لا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فاعينوهم » التكليف الامر بما فيه كلفة ومشقة ، وليست مطلق المشقة في العمل مما يجعله داخلا تحت النهي الذي هنا ، بل الذي يجعله داخلا هو المشقة التي يصعب معها العمل ، ولذا قال : ما يغلبهم ، اي لا تامروهم ان يقوموا بما يغلبهم وتعجز قدرهم عن القيام به ، ثم استدرك على هذا فقال : « فان كلفتموهم » أي ما يغلبهم فاعينوهم ، اي ساعدوهم على عمله ، فمفعول كلفتموهم محذوف ، لدلالة ما قبله عليه .

« ما يستنبط من هذا الحديث »

1 ـ الكف عن سب الخدم احرارا كانوا أم عبيدا وكذا من يماثلهم في الخدمة من الاجراء الذين قد يحتاج اليهم لاداء عمل ما ، فلا يجوز لاحد تعييرهم بشيء من مكروه يعرفه في خاصة انفسهم او آبائهم .

2 ـ عدم الترفع على المسلم ولو كان عبدا او خادما او نحوهم من الضعفاء ، فقد تضافرت الادلة على التلطف بهم وعدم احتقارهم ، ولقد امر الرسول (ص) نفسه ـ وهو من هو في علو الخلق ـ بخفض الجناح للمؤمنين في قوله تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .. فان في ذلك تقوية للوحدة ، وتوثيقا للتعاون ، ولا صلاح لامة الا بذلك .

3 ـ العمل على اطعام الخدم مما يطعم مخدوموهم ، والباسهم مما يلبسون بحيث ترضى نفوسهم ، ولا يتولد الحقد في قلوبهم على اسيادهم .

4 ـ عدم تكليفهم ما لا يطيقون من الاعمال ، سواء اكانت عدم الطاقة ناشئة من استدامة العمل او عدم القدرة عليه من الاصل ، فان كلفناهم بذلك وجب علينا اعانتهم ، وعلى هذا يكون ارباب الاعمال الذين يستخدمون الاجراء ، ويضطرونهم الى العمل المتواصل ساعات طويلة من الليل ، فلا يتركون لاجرائهم من الوقت ما يقضون فيه حوائجهم مخالفين لمقتضى هذا الامر العظيم ..

طنجة ـ محمد كمال شبانه



أفق الكلمة والمفهوم

للدكتور: محمد عزيز الحبابي

لا يتعدى هذا الحديث ان يكون تعبيرا عن تجارب شخصية لرجل يحترف التعليم ، ويستهلك الحروف والكلمات والجمل ، قراءة وكتابة .

انني احيا تلك التجربة منذ سنين ، وساحاول ان اجعلكم تحيونها معي هذه الليلة. انها تجربة صراع بين ذاتيه وموضوعية . اما الذاتية فهي انا الذي احس واشعر ، فادرك واعي ، ثم احاول ان اجعل من ذلك حصيلة لتفكيري ولتاملي ، واما الموضوعية ، فيجب ان تفهم فى معنى خاص : يكون الشيء موضوعا اذا وقع عليه البحث او التجربة ، وبالنسبة لما نحاوله الآن ، فان وسائل التعبير هي ذاك الشيء الذي نموضعه ، اي نجعله اداة وموضوعا للادراك والتفكير والتأمل .

الكلمة والمعنى :

الانسان حيوان يتواصل ، بالطبع ، مع الاخرين والكائنات والعالم . انه حيوان مدفوع بالغريزة والتكوين العضوي الى التعبير ، فالجسم البشري يرسم تعابير فى حركات تصدر عن مختلف اعضائنا ، مثلا : انتفاخ الشدق ، يعني (لا ابالي بتهديداتك) ، او (انك فشار)، ولمس السبابة بالابهام حركة يقصد منها (الدراهم) ، وهز الراس من الخلف الى الامام يدل على القبول (نعم)، والكلمات هي الاخرى تتصل مباشرة بالجسد ، ان الالفاظ ليست اصواتا ؛ بل اشياء تخرج من حلقومنا وفمنا ؛ وتشارك فى ايجادها الاسنان والشفتان واللسان .

هناك تعابير مستقلة عن الجسم البشري ، مثل الظاهرات الطبيعية من برق ورعد وضباب وتغريد الطيور ونباح .. فكل ذلك لغة نفهمها ونستجيب لها .

ونتفاهم بلغات اصطناعية ، كما فى الفنون مثل التشابيه ، كقولنا : (الوادي المذهب) ، والصور الشعرية كما جاء فى هذا البيت لمامون الشناوي :

انـي سمعتكمـا ، انـي رايتكمـا
عيناك فى عينه، فى شفتيه، فى كفيه، فى قدميه

ولنا لغة اخرى ، ولكنها اصطلاحية ، هي لغة العلوم ، انها تستعمل الصفر والابجدية فى الكيمياء والاجرومية الرياضية (*) .

* * *

ان المجموعات التعبيرية تكون اما فردية او جماعية ، واما تعابير تتألف من الصنفين السابقين معا . يرمي التعبير الى احداث صورة ما وادخالها فى مجموعة منظمة من الصور ، فقد يحصل تعبير بالصورة منفصلة ، او بالصورة فى مجموعة من الصور ، كما يحصل معنى ثالث من التصاق الصور ، ويمتاز عن المعنيين السابقين . ففي البيت السابق نجد ان الصورتين الاوليتين (عيناك فى عينيه) و (عيناك فى شفتيه) من الصور الفقيرة المبتذلة ، اذا ما اعتبرنا كل واحدة منهما على حدة ، لكنهما يكتسبان خصوبة وجدة بالتحامهما ، فيتجاوزان معنيهما الى معنى ثالث ليس فى ايهما منفردة ، فاذا اضفنا اليهما الصورة الثالثة (عيناك فى كفيه) والاخيرة (عيناك فى

(*) L'algorithme ، علم يرجع الفضل فيه الى الخوارزمي .

قدميه) هزنا شعور عنيف ، فتنفتح اعيننا على لوحة من اروع واحيى اللوحات الفنيــة .

ان التعبير عن شيء بمثـابـة خلـق جـديـد لذلك الشيء ، لانه تعيين، وتحديد، وتحقيـق لهويته.

***

اذا تاملت في شيء فانـي ، في الواقع ، اقـــوم بتعيينه ، ما دامت العملية التي تميـز بهـا الاشيـاء تحمل ضمنيا ، معنى او معاني ، **والمعنى هو الرابطة التي تجمع بين حياتـي الفكرية وبين العالم** . فاذا عدت لا اسمي ما في العالم ، اي لا ارى الاشيـاء تجسم ما في ذهنـي من معانـي ، وفي شعوري من احساسات ، ولا توحي الي بمعاني واحساسات اخرى ، امسيت اجنبيا في العالم واجنبيا بالنسبة لذاتي ، فلا تتم وحدة (الانا) الا في عالـم المسميـات . فاذا اضمحلـت قوتـي على التعبيـر ، انفجـرت وحـدتـي الذاتيـة (امـراض الشخصيــة) .

للوجدان الفردي قوة تخوله التاليف بين ما في العالـم من متناقضات وعناصر متبايـنـة ، وفي نفس الـوقـت توحد بيـن مختلـف العمليـات الفكريـة المتنوعـة ، فالوجدان هو مقر المعاني ومصنعهـا ، تصدر عنـــه ولصالحه ، لانه يحيـا بهـا ولهـا .

ان واقعية الشعور لا تتجلى الا في المعانـي التي نجدها في العالم ، فنطلقها على الاشيـاء والكائنـات والمعـاني التي نريد ان نعطيها للعالم ولمعالم العالم .

فالمعنى شيء مجرد ينتج عن عمليات ذهنيــة مختلفة تكاملية : بتخيل الفكر الاشكال (والعالم كلـه اشكال) ويدخل التخيل على الاشكال رمزية فتتكون لدينا صور ، اما الذاكرة فتحتفظ بشيء يبتعد عـن الشكـل بقدر ما يقترب من الصورة ، ويبتعد عـن الصورة لانه في صميمه شكل : هذا هو المعنى ، نعنـي شيئـا بين الشكـل والصورة ، اما عمليـة التذكـر فجهاز تجاذبي حيث لكل معنى ميل طبيعي للتداعـي مع معاني اخـرى ، فلا حقيقة للمعنى المنفصل .

يتم التنسيق بين كل هذه الفعاليـات داخـل الوجدان ، ففيه تقع عملية التوليـد الاخيرة للمعاني ، اي للاشارات ، وهل الاشارة ، في الواقع ، الا حركـة مع دلالـة ؟ واكبر ما تمتاز به الاشارات انه لا غايـة لها في ذاتهـا ربما كانت الاشـارة محسوسة (لوحـة زيتيـة ـ لحن موسيقى ـ لافتة ..) لكن لها دائمـا غاية تتعالى فوق واقعيتها المادية . والالفاظ ، كذلك ان هي الا اشارات في افق تهيمن عليه مدلولات ، فمـا الجمال مثلا ؟ انه حقيقة نعترف بوجودها وتاثيرها في واقعنـا ، ولكن ليس من بيننا من يستطيـع أن يحدد (معنى الجمال) في تعريف ما :

عباراتنا **شتـى** وحسنـك **واحد**
وكل الـى ذلك الجمـال يشيـر)

اذن ، الاشارة وسيلة ، وبمـا ان كل المفـردات انما هي اشارات كما قدمنـا نستخلـص ان اللغـة آلة تحل محل شيء آخر هو المعانـي .

والمعنى لا يتولد عن حـروف مقطعة ، بل عـن كلمة ، او على الاصح ، **عن كلمـات نظمت على نسـق خاص** . ففي داخل هذا النسق تاخذ كـل كلمـــة كثافتها وثقالتها ، قد تقع ولادة المعنى دفعـة واحدة كالبرق ، ولكن غالبا ما يحصل المعنى بشيء من التدريج مثله في ذلك مثل زيت او مداد فوق الورق النشـاف : تنتشر حولها بسرعة وتدريجيا في آن واحد . فاللغة، على هذا ، تستهدف خلق افق يتعدى نطاق الكلمـات في الكلمات ، وب ـ الكلمات ، ولكنه **فوق** ـ الكلمات وابعد من الكلمات . نسمي هذا الافق بـ الميطالغة (*)

***

ان اللغة صـور محسوسة ظاهرة يتكيف فيهـا الوجدان الفردي ليتفهم ذاتيته ، وليعبر عن مكنوناته، وليتصل بشعور الآخرين . فحتى في المنام يفعـل الحالم حركات ، او يتحدث جهرا ، وذلك الحاح مـن الذات التي تركز حيويتها عن طريق الحواس .

فليـس لاية قدرة من القدرات العقلية (تفكيـر ارادة ، تخيل ..) من سبيل الى القيـام بمهامها دون الصور الجسمية أو الكلامية . **فكل فكرة لا تصدر الا عن طريق الاشارة** . والروابط التي توجد بين الاشياء لن تستطيـع ، ابدا ، أن تظهر لنا لولا وساطة الكلمات، اي الاشارات الفكرية التي تستعملها للتقدير، والترتيب والفهم ، وغالبا ما تصاحب الكلمة حركات (ابتسامة، او دمعة ، او تهديد بضم الاصابـع في الكف مـع مـد اليد) . فالكلمات بوصفها اشارات لابد لها ان تتشيـا

(*) كما نقول (الميطافيزيقا) اي مـا وراء وفـــوق الطبيعـة الفيزيائيـة .

في بيئة بشرية ، حيث تجبر ، وتغير ، وتدفع الى التفاعل . فالكلمات نقطة انطلاق الاعمال الفردية والجماعية ، انها منبع الحياة ومنبع الوجود ، بالنسبة للصور والافكار .

❋ ❋ ❋

دور الفعل :

اهم أصناف الكلمات هي الافعال اذ عليها تتأسس الجمل : الفعل يحدد الزمن ، ونوع الحركة او الحالة . لقد اتهم بعضهم اللغة العربية بالعقم ، لان وضعية الفعل فيها وضعية فقر ، اذ اشكال الفعل العربي قليلة جدا اذا قورنت بعدد اشكال الفعل في اللغات الهندية ــ الاروبية . فالفعل في لغتنا العربية لايتعدى شكلين اساسيين ، الماضي والمضارع (أما الامر فهو صورة من المضارع يدل على معنى خاص) .

هذا هو الاعتراض الاول وهو اعتراض وجيه ، ومما يجدر بالذكر ان فقهاء اللغة العربية قد لاحظوا ذلك قديما ، واقره نحاة الكوفة ، كابن الانباري ، (❋) لكن الذي قد غاب على المعترضين هو اهتمام اللغويين العرب في عصور الازدهار ، بالافعال ، وكيف كانوا مجددين ثوريين الى حد انهم اشتقوا الافعال من اصول جامدة ، فمثلا : لفظة «اسم» كلمة قديمة توجد في اللغات السامية الاخرى ، اخذها العرب واشتقوا منها « سمى ، يسمى » ومثل هذا بالنسبة الى «رأس» الذي أعطى « ترأس » و « وتبنى » من « ابن » . فنحن اليوم لا تحدث بدعا عندما نشتق شيأ ، وكيف ، وحين ، وزمن ، واطر من شيء وكيف وحين وزمان واطار . فعلام ضجة الجامدين ؟ . وقد تغافل ايضا الناقدون ان لغتنا تجعل الفعل في مكان الصدارة من الجملة ، اقول: « الصدارة » لا البداية ، لان الجملة الاسمية وان بدات بالاسم تؤول وتركز على اعتبار ان الفعل هو الاساس (❋) فاذا قلنا ، مثلا « ان الليلة باردة » انعدمت كل فائدة من هذه الجملة اذا لم تفهم البرودة في علاقتها بذات تقول : « اشعر بالبرد ، هذه الليلة » او خذ معطفك ، ان الليلة باردة » .

ثم ان الاسماء هي ايضا ، « فاعل » واما «مفعول» فالفعل ، هو المحدد لحركة الاسم ، يرفعه او ينصبه سواء تقدم أم تأخر وسواء كان مذكورا ام مقدرا . ونزيد على ذلك ان الاقدمين قد عدوا (ليس) من بين الافعال وهي اداة نفي . أما الاعتراض الثاني فيتعدى قلة اشكال الفعل في العربية الى اتهام هذه اللغة بالخلط بين انماط الزمن . يضرب المنتقدون على ذلك مثلا بتداخل الفترات الزمانية في الآية القرآنية (البقرة 2 ــ 91) : (قل : فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مومنين ؟) . فالقتل قد وقع (من قبل) في حين أن الآية تعبر عنه بالمضارع الذي يدل على الحال او المستقبل .

نعم ، هذا صحيح ، ولكن من حيث الصيغة فحسب ، ان جميع القصصيين اليوم يستعملون هذه الطريقة لجعل القارىء او السامع يتصور الاحداث الماضية وكأنها تمر حاليا امامه ، كأنه يشارك فيما يقص عليه (❋) لقد فطن قدماء النحويين ورجال البلاغة والتفسير الى تداخل انماط الزمن في الجملة الواحدة ذات المعنى التام المستقل ، فالزمخشري في **الكشاف** ، عندما وصل الى الآية (فريق كذبوا ، وفريق يقتلون) علق عليها بما ياتي : « فان قيل : لم جيء باحد الفصلين ماضيا والآخر مضارعا ؟ قلت : جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية استعظاما للقتل واستحضارا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها » (❋) .

❋) في كتاب « الانصاف » المسالة 72 .

❋) انظر ابراهيم السامرائي (دراسات في اللغة) بغداد 1961 ص 42 الى 50 .

❋) تعرف هذه الطريقة عند الفرنسيين بـ Le présent de narration وهو لون حي من الوان البيان يسمى في العربية (حكاية الحال) .

❋) ج 1 ص 270 الطبعة العامة الشرقية سنة 1307 . وفي تفسيره للآية (والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت) يعطينا الشرح الآتي : (فان قلت : لم جاء فتثير على المضارع دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها اثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب او تهم المخاطب ، او غير ذلك) ج 2 ص 239 .

اصناف الاشارة :

لقد قلنا ان الكلمات اشارات ، لكن ، يجدر بنا ان نفرق بين الاشارة والرمز ، فالرمز اشارة مصورة، لها شكل يحتوي على صلة معقولة تربطه بالشيء ، او بالفكرة ، او بالحركة ، عن هذه الصلة تخاطب العقل فيفهمها . هذا معنى اول للرمز ، اما المعنى الثاني فيجعل من الرمز اصطلاحا مجردا ، **((شيئا))** اعتباطيا، اي اشارة خاصة تتكيف لتصير جهازا تفسيريا مركبا، وفي وقت واحد اداة استعمال هذا الجهاز. فلابد للرمز من ان يتوفر على مجموعة من صفات تحدد العمليات التي يتضمنها والتي تقصد من وجوده ؛ (مثل الرموز الرياضية). على ان المعنيين المتقدمين لا يتناقضان بل على العكس ، يتصلان : ففي كليهما دلالة واختصاص. فالرمز المصور ليس اقرب الى الطبيعة من الرمز الاصطلاحي ، فلناخذ تمثالا من مرمر ولنتأمله فاذا اعجبنا بقدرة الفنان الذي صنعه ، وبهرنا بالدقة التي نحتت بها العينان ، وبالمهارة التي صورت بها الملابس الى غير ذلك ، حصل بيننا (كذوات) ، وبين التمثال (كموضوع) تواصل وشبه حوار صامت . ان هذا التمثال ، او بتعبير اصح ، هذا الرمز يعبر عن شيئين اولا عن انتصار الانسان على المادة التي صنع منها التمثال ، ويرمز ثانيا الى المعنى الذي تسبغه عليه (انتصار ، او موت ، او ثورة ..) فللرمز ، اذن وظيفة مزدوجة : انه تعبير في حد ذاته (في المعنى الاول) وهو محرض على التعبير (في المعنى الثاني) ، ثم ان الرمز يعكس اشارة ، ويتجلى كحركة انسانية ، كعمل صادر عن قصد : فتمثال « الليل » لـ (ليونار دي فانسي) يدل على بؤس ايطاليا وعلى الشقاء عند الانسانية عامة ، والتمثال التذكاري ببورسعيد ، يعود بنا الى العدوان الثلاثي على قناة السويس وذكرياته الاليمة ، وتمثال محمد الخامس بالمتحف الشعبي بحي الليمون في الرباط ، يمجد به الفنان احمد الادريسي انتصار القوات التحررية على الاستعمار ، كل ذلك صفحات تاريخية غير مكتوبة ، ولكنها فصيحة .

* * *

يجب أن نضيف الى الاشارة والرمز ، عنصرا تعبيريا ثالثا ، هو **العلامة** ، فالاشارة تعتمد على علامات مثلا : الالوان المنظمة لسير السيارات بالمدن:

الاحمر : خطر = قف !

الاخضر : سلم = تحرك !

فموقفنا من هذين اللونين يختلف من الايجاب الى السلب . هناك لون آخر ، هو الاصفر ، الذي يدل على الحياد ـ تهيا ، انه يستلزم موقفا ثالثا ، قد يكون ايجابيا او سلبيا للسير او الوقوف . ان الاشارات تهدف الى تكييف سلوكنا من بعض الوجود : فالهندام ، والاناقة ، وتاثيث البيت ، تعابير حضارية ، ونفس الشيء يقال عن طرق الاكل واللباس .

يحكى في المغرب ، عن شاعر من شعراء الملحون السيد عبد الرحمن المجذوب دفين مكناس ، انه ذهب يوما لوليمة كبرى وقد لبس جلبابا وسخا وسلهاما باليا ، فلما دخل الى دار الحفلة،قيد الى جانب السوقة والطفيليين ، فاغتاظ من ذلك ، وقصد توا منزله فلبس ثيابا نظيفة ملائمة ، ثم رجع الى الوليمة فاستقبل باحترام وترحيب يلائم مكانته، وانزل في جهة الضيوف، وعند الطعام ، اخذ يغمس كمه في الطاجين ويقول : (كل يا كمي .. انك المستدعي ، لا انا ..)

ماذا نستخلصه من هذه الحكاية ؟ ان المظهر الخارجي من العناصر الاساسية التي تكون شخصيتنا المجتمعية ، ذلك ان الـ « انا » لا ينحصر في الكينونة . بل انه الكائن والعندية او التملك (l'être et l'avoir)
فالسيد عبد الرحمن المجذوب لم يكن على صواب عندما غضب لما حصل له ، ذلك ان المجتمع لايستطيع ان يتعرف على اي شخص الا من خلال افق مزدوج : ما هو هذا الشخص وما له .

فالعندية مجموعة اشارات ضرورية للتعريف تتجلى في المظاهر الخارجية ، من ثياب ، واناقة والهندسة المعمارية ، والزخرفة ، وكل ذلك اشارات حضارية مميزة .

للعلامات الخارجية قيمة مجتمعية هامة ، خصوصا العلامة القصدية، انها تهدف الى ردود افعال مستعجلة مثلا : السعال يشير الى وجود زكام او اصابة صدرية، أما السعال المصطنع فيدل على التهكم لان له معنى خاصا يتعدى به مستوى العلامة الى مستوى الاشارة ، ولكنه يبقى دون الرمز ، ما دامت لاتدخل فيه الصورة ، فالعلامة ، ولو نتجت احيانا عن عمل انساني ، ليست الا جزءا من شيء ، وهذه الصفة وسيلة للمعرفة (السعال يحدد موقف الطبيب ونتائج الفحص الطبي، ويحدد سلوك المريض ومن حول المريض ، كالوقاية من العدوى ومراعاة ما يسهل معالجة المريض) .

هكذا تصدر عن العلامة ، وعن الاشارة ، وعن الرمز اعمال جسمية يتدخل فيها العقل : ان رد الفعل حكم يؤمر بتنفيذه (اللون الاحمر يشير الى الخطر اذن ، فيجب ان اوقف السيارة) فالعلامة والاشارة والرمز تخبرنا ، وتامرنا (ومن هنا فهي تقرير للواقع واحكام ، ثم انها ، احيانا تفرض علينا أن نقوم بردود فعل ، ومن هنا تصدر احكاما تقويمية) .

ان السيكولوجيا المرضية والتحليل النفساني يعتمدان كثيرا على الرموز والاشارات والعلامات ، لدراسة الشخصيات غير السوية :

فالرمز : شيء مادي محسوس له قوة تمثيلية تجعلنا نتجاوز ماديته الى دلالة معنوية .

والاشارة : نتيجة صادرة عن عمل انساني يرمي الى غاية ، اي ان الاشارة موجهة : الغرض منها اقرار واقع خارجي وابلاغه للاخرين .

والعلامة : اما شيء طبيعي يصدر بكيفية مستقلة عن كل قصد او سلوك موجه (مثلا سعال المريض ، أو سقوط الاوراق في الخريف ..) واما شيء اصطلاحي تكسبه ماديته معنى خاصا ، موقتا او قارا .

فالرمز ، والاشارة ، والعلامة ، اذن ، ادوات تعبيرية ، لان التعبير نتيجة سلوك انساني (او جزء من هذا السلوك) يستهدف ترجمة حالة من الاحوال الشخصية ، او على الاقل ، يترجم عما في هذه الحالة قابل للابلاغ ، قابل لان يكون اداة تواصل .

❊ ❊ ❊

هذه هي انواع الاشارات ، وقد عرضناها منفصلة الواحدة عن الاخرى ، فلننظر اليها الآن متكاملة متداخلة متجسمة في الظاهرات الاساسية لسلوكنا ، مثلا :

اللغة : هي الواقع المباشر الذي يتحقق فيه التفكير والوعي ، ان اللغة انعكاس وانعكاس العالم المادي في فكرنا ووعينا ، انها المادة الطبيعية التي يختمر فيها التفكير ويتمخض عنها التواصل بين الناس . نعم ، اللغة ، اما مجموعة اصوات واما علامات مكتوبة ، فالمفهوم لا ياتي من هذه الاصوات والعلامات ، ولكن من التصاقها بشعور من صدرت عنه ، وحلولها بشعور سامعها او الناظر اليها . فاللغة ، اذن ، تعابير تتعدى المظهر المادي المحسوس : انها مجموعة روابط تنشا بين شعوري كمتكلم او ككاتب ، وشعور مخاطبي وقرائي ، حاضرا واستقبالا (عن طريق تسجيل الصوت او المخطوطات او المطبوعات) .

والدين : يعنى بالمصير الانساني يدفع المومنين الى التعالي ، متجاوزا عالم المحسوسات ، بيد ان الدين في نفس الوقت مجموعة طقوس يعبر بها عن عواطف ميتافيزيقية مقدسة وعن معتقدات تتعلق بعالم الغيب ، ويصدى وانفعال تلك المعتقدات في وجدان المومن وسلوكه .

والفن : يخلق اشكالا تعبر عن ميل للتناسق وتحقيق معايير جمالية مشتركة . فليست مختلف الحقول الفنية الا اساليب تعبيرية مختلفة ، الفن مجموعة من اشكال الوعي المجتمعي من ميادين المعرفة.

والعلم : منظومة مجموع ما وصلت اليه التجارب الانسانية من معلومات عن الطبيعة وعن الكائن البشري وعن البيئات الانسانية ، عبر التاريخ . مهمة العلم ان يترجم ، بعلامات واشارات ورموز ، الظاهرات الكونية والبشرية ، وان يعبر عن الحتمية التي تنسق العلاقات بين القوانين التي تنظم السير العام في الكون .

والدستور : يحدد كيف يجب ان يكون السلوك الفردي والسلوك الجماعي ، ويخط نطاق الاعمال المشتركة (التجارة ، والامن الداخلي والخارجي ، والسياسة الاقتصادية ..) فالدستور لغة من حيث شكله (لانه مكتوب) ولغة من حيث محتواه (لانه مجموعة تعابير عن ارادة المشرع) .

❊ ❊ ❊

هكذا نرى **ان اللغة تتركز في جسمنا ، وهي محور حياتنا الفكرية ، والوجدانية ، والمجتمعية ، انها لا تنفصل عن مجموع الفعاليات الانسانية .** لذلك لا يجوز ان تدرس مشكلة التعريب ، وبصفة اعم مشكلة التعبير ، منعزلة عن سير التاريخ الحضاري الانساني ، وعن الدور الذي لعبه العرب في الماضي، وعن الدور الذي يجب ان يلعبوه اليوم بالنسبة للحضارة الانسانية المشتركة . فاللغة اي لغة ، لا تحيا الا حين تنتشر الثقافة ، الا حيث يسود الفكر الخلاق ، فكلما شجع المثقفون على القيام بمهامهم تقوت اللغة وكان رد الفعل لهذا التشجيع ان اللغة بدورها تنمي انتشار الثقافة والمساهمة في رقي الحضارة ، ان اسس الحضارة هي المعتقدات والفنون والعلم والدساتير . وما اللغات الا منظومات من الوسائل للتعبير عن تلك الاسس ولتوعيتها في الافراد والبيئات ، فليست الثقافات الوطنية ولا الحضارة الانسانية الا تفاعلا مستمرا بين المعاني والتعبير عنها .

— يتبع —

الرباط — محمد عزيز الحبابي
عميد كلية الآداب

الفكر الفلسفي واللغة العربية

للدكتور حكمة هاشم

الدكتور حكمة هاشم من الاساتذة المبرزين في جامعة دمشق والذين يرتبط اسمهم بالنهضة التعليمية في سورية ، يحمل اجازة في الحقوق واخرى في الاداب ودكتوراة الدولة في الفلسفة من جامعة باريز ، مارس التعليم مدة طويلة ، اذ عين عميدا للمعهد العالي للمعلمين ثم استاذا بكلية الاداب في الجامعة ، وانتخب عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد مثل بلاده في مؤتمرات علمية كثيرة في اقطار متعددة من اوربا وامريكا واسيا ، وفي سنة 1958 عين مديرا لجامعة دمشق . وفي المدة الاخيرة استدعته جامعة محمد الخامس بالرباط ليقوم بتدريس مادة الفلسفة .

من مؤلفاته : نقد الغزالي لمذهب المشائين ، والافلاطونية المحدثة ، ميزان العمل بالفرنسية ، المدخل الى علم النفس الجماعي ، المجتمع العربي ، ابحاث في التربية .

ودعوة الحق التي تعتز بصداقة الدكتور حكمة هاشم تتمنى له مقاما سعيدا ، وترجو أن تظل علاقته بقرائها متينة ومتصلة .

((دعوة الحق))



* ان الموضوع الذي طلبت الي المحاضرة فيه هو « الفكر الفلسفي واللغة العربية » وهو جزء من موضوع اكبر يدور حول علاقة الفكر باللغة . وليس من شاننا هنا ان ناخذ في دراسة هذه المشكلة الواسعة ، ولا ان نتناول بالتفصيل المذاهب المتعددة المتصلة بحلولها ، فقد كفانا الباحثون الاختصاصيون من علماء النفس وعلماء الاشتقاق مؤونة ذلك ، وانتهوا الى تقرير صلات عضوية ملتحمة بين التفكير الذي هو طريقة تصورنا للوجود في جملته ـ بما في ذلك تصور الذات ـ وبين اللسان على اعتباره اداة لنقل ذلك التصور وابلاغه للآخرين . ولهذا جاز من حيث المبدأ ، ان يدور بحث عن طبيعة العلاقة بين فكر ما ، كالفكر الفلسفي ولغة كاللغة العربية ، ولذلك اثار بعضهم مشكلة من النوع التالي : هل اللغة العربية اداة ميسورة مطواعة للتفكير الفلسفي ؟ والى اي حد يمكن اعتبار هذه الاداة كاملة بالقياس الى اللغات الاخرى ؟ وابادر فاعترف لكم ، ايها السادة ، انه قد يبدو لبعضكم ان من باب المفارقة العجيبة اطلاق لفظ « مشكلة » على مثل هذا التساؤل ، وانتم على حق في هذا العجب لانكم تعلمون مبلغ ايمان العرب اجمعين باتساع هذه اللغة الشريفة التي شاء لها شاعر النيل حافظ ابراهيم ان تنشد :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات

*) القيت هذه المحاضرة على مدرج كلية الاداب بجامعة محمد الخامس ، وتدخل في اطار الموسم الثقافي الذي تقوم به الكلية ويشرف عليه عميدها الدكتور محمد عزيز الحبابي .

وناهيكم بها سعة تروعنا ، نحن الناطقين بالضاد، وتملأ اذهاننا وقلوبنا وارواحنا اعجابا وفتنة وسحرا ، بيد ان الامة العربية بالبداهة ليست وحيدة في هذا الكون ، وهناك الى جانبها امم اخرى ذات شأن لا تشعر باي مركب نقص تجاهنا رغم اننا نطويها جميعا تحت لفظ « الاعاجم » ، بل ان من هذه الامم مجموعة لا يستهان بها تمضي الى ابعد من ذلك فتنفي علينا ملكة الافصاح وحسن التعبير ، ومنها من يجادل في قابلية بياننا الصريح لاداء الفكر الذي يرقى عن اغراض الحياة الدنيا الى سماء التجريد زاعما ان العلم يدلل على ذلك، واذا كانت الفلسفة ارقى اشكال التفكير المجرد كما هو معلوم ، (اذكروا كيف كان اريستوفان يمثل سقراط في محفة معلقة بين السماء والارض) ، واذا صح قول جان سكوت اريجين ان ما من احد يلج ملكوت السموات الا من باب الفلسفة ، فمعنى ما تقدم اننا عاجزون عن الرقي الى اجواء التفكير الجدي والنظر العقلي ، واننا في تلك الميادين الرفيعة مقضي علينا ان نظل كالطيور زغب الحواصل قاصرين مقصرين .

وحسبكم من تأكيد كهذا يرسل باسم العلم ان مآله الى سبة دائمة على وجه الدهر تلحق بامة تعتبر نفسها خير امة اخرجت للناس ، ولو لم يكن من خطر هذه الوصمة الا انها تشكك المرء بقيمة ذاته فضلا عن تشكيك الآخرين بمثل تلك القيمة لكفى بذلك حافزا الى تحليلها وتمحيصها ورجع البصر فيها كرتين ، واذن ، فنحن نحب في هذه المحاضرة ان نعالج هذه المشكلة متدبرين وجوه القول فيها ، عارضين عليكم حجج اصحابها بصورة موضوعية ، ثم معترضين على ما يكون فيها من مواطن الضعف لا مسوقين بفكرة سابقة ولا صادرين عن غرور واهم او عصبية عمياء ، وانما نمارس في هذا عملية النقد بالمعنى المنزه عن الغرض الذي كان البدوي الاول اسرع الى استعماله يوم قال في ناقته :

تنفي يداها الحصا في كل هاجرة

نفي الدراهم تنقاد الصياريف

الا ان هذه العموميات ممعنة في التبسيط ، والمشكلة اعقد مما نظن ، فهي محتاجة الى جهد تحليلي قد يؤول الى عكس ما يتبادر الى الذهن بادىء الراي من ان اللغة مرآة الفكر فلننشر مصباحا قليلا قبل الدخول في جوف الموضوع ، ولنضع الصورة في اطارها العام .

ولنبتدىء فنقرر انه لم يعد يجادل احد اليوم في معضلة طالما شغلت الباحثين ، وهي التساؤل عن اللغة اهي وحي نزل كاملا على قلوب طائفة من بني آدم ولا يد لهم في تبديل خلقه ، ام هي مجرد اصطلاح اتفق عليه البشر اتفاقا بصورة من الصور ، وقديما خاض الامام السيوطي صاحب المزهر في هذه المسألة بالتطويل وعرض لاراء من يقولون انها « توقيف » متخذين دليلا من قوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) ، ثم بين حجج من جزموا بانها (وضع) و (وتواطؤ) ، كما ان مفكري العصور الحديثة لم يفتهم الجدل حول هذا الشأن ، ومن اواخر اصحاب النظرة الاولى التي تجعل اللغات ضروبا من السجايا الغريزية موهوبة من تلقاء الفطرة البيولوجية جوزيف دوميسترو دوبونالد ، ومن الذين جعلوها غريزة عقلية رونان وتين ، الا ان اتجاه العلم البسيكولوجي والسوسيولوجي الحاضر قائم على التسليم بانها وضع اجتماعي لا مجال للشك فيه . وعلى الرغم من ان تقرير هذا الامر ينفي كون اللغة ظاهرة (حيوية) تتفاوت بتفاوت العروق وتستلزم تبعا لهذا ان تطورها راجع الى قوانين خارجة عن جبلة البشر الطبعية ، وحتى عن ارادتهم الاعتباطية ، فان مما لا جدال فيه ايضا ان اللغة لا تقوم الا في الاذهان وان ذلك التطور لا معنى له الا اذا تم في افهام تتفاعل ديناميكيا مع ما حمل اليها ، فمن هنا ، كان للمعضلة جانب نفسي يجب ان يؤخذ في الاعتبار ، ولابد من ادخال عوامل تصورية اتية الى جانب عوامل التطور الخارجية الموضوعية ، وهذه المسلمة هي ما اعتمده رجل مثل السيد فاندريس عميد كلية آداب باريز السابق ، وهو من ائمة علم الاشتقاق في كتابه الشهير : اللغة

ذهابا من هذه النقطة خاض العلماء في طبيعة اللغة وصلتها بالتفكير ، ولاحظوا ان اللغة انما هي تعبير رمزي عن التأثرات الداخلية للكائن الحي ، فالانفعالات المختلفة التي تعتلج في صدور الاحياء لا تلبث في مبدا امرها ان تتلبس سحنة ظاهرة تتجلى بالملامح لكي تفصح عن ذاتها للآخرين ، وما ائتلاق الحدق ، وانتفاخ الاوداج وتحريق الأرم ، ولجلجة الصوت الا آيات عفوية اولية بها يتميز الحيوان من الغيظ ، لكنه مذ يتم للكائن الذكي مستوى عقلي مرتفع من شأنه القدرة على التحكم الارادي بالصوت جاعلا اياه اشارة على غرض من الاغراض الباطنة ، اي عند ما تتوفر للفرد ملكة الربط بين اللفظ والمعنى يصطنع النطق المفيد او لغة الخطاب سبيلا للابانة عن ذات نفسه . نعم ان هناك احوالا من التفكير اشار العلم

السيكولوجي الى استحالة تلبسها بثوب البيان الكلامي وهذا ما اشار اليه المتنبي منذ الف سنة في بيته الخالد :

رب مالا يعبر اللفظ عنه
والذي يضمر الفؤاد اعتقاده

ولكن الحال السوية والعامة انما هي اتخاذ القول وسيلة للافادة عن المشاعر ، وان يكن من الواجب التحفظ على هذا الاطلاق بالصيغة التي اجملت في بيت الحطيئة على نحو عبقري :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

كيف ما كان الامر فان الالسنة تظل الادوات الوحيدة لابلاغ المقاصد ، وان شئتم فقولوا انها ضروب من التكنيك ، نستعين بها على الخروج من ذواتنا والنفاذ الى الآخرين ، وهي ، ككل ضروب التكنيك ، قيمتها متوقفة على درجة صلاحها للوصول الى الغرض الذي ابتغيت من اجله ، وعلى مقدار حظها من التطور (الذي هو مرتبط بمبلغ مرونتها وقابليتها للتكييف) يكون نفعها وجداؤها ومردودها ، فاللسان المتطور انما هو ذلك الذي قدم للفكر من بين جميع المخططات الصوتية الممكنة خيرها للترجمة عن الدقائق الخفية التي تدور في خلده ، هو ذلك الذي وفر لصاحبه بما وضعه في يده من آلات التحليل قدرة على تمييز مفاصل الفكر تمييزا واضحا مبينا ، هو ذلك الذي وفق لاختراع قوالب في التعبير تنصب فيها المعاني بيسر وسلامة ، ولكن دون ان يورثها القالب من جراء صلادته تحجرا لا سبيل معه الى نمو حي ، وبعبارة ابسط هو ذلك الذي تجاوب مع التفكير في حركته الموارة فلم يعوق مجرى تلك الحركة، بل اعانها على التقدم المطرد .

ولعل هذه الخصلة التي اتينا على بيانها هي التي دعت الى قيام علم اللغات المقارن لتتضح الخصائص المميزة لكل لغة من اللغات فتتجلى بذلك خصائص فكر اصحابها ، وعندها يحصل التساؤل بصورة طبيعية : اي الالسنة ادى دوره خير اداء ؟ وايها احق ان يصطنع لكونه ادنى الى المثل الاعلى واشدها تكاملا ان لم يبلغ مرحلة الكمال ؟ .

والواقع انه قد اجريت بالفعل ابحاث مستفيضة في فقه الالسنة (في مظهريها السيمانتيكي والمورفولوجي) واستندت هذه الابحاث على دراسة المعاجم من جهة ، وعلى دراسة الاجروميات من جهة اخرى ، والتهى فيها الى حقائق ثمينة بالنسبة الى اكثر اللغات . ولست بحاجة الى ان اشير الى الجهد المنقطع النظير الذي بذله علماء العربية الاقدمون في هذا الميدان ، وان كتبا كخصائص ابن جني ، ومجمل ابن فارس ، و مزهر السيوطي هي من الكنوز النادرة التي لا تقل في شانها بالنسبة للغتنا عن شان كتاب ككتاب برونو الشهير « الفكر واللغة » بالنسبة للسان الفرنسي ، الا ان هذه الدراسات على جلالة قدرها اشبه بان تكون « مونوغرافيات » او تحاليل مستقلة للغة بعينها ، وليس يقوم علم اللغات المقارن الا اذا كانت هذه التحاليل استنفادية تستغرق لغات الارض بحذافيرها فلا تدع منها صغيرة ولا كبيرة الا احصتها واستوفتها دون تفريط في جانب من الجوانب ليمكن بعد ذلك قيام « تركيب » سليم بالمعنى العلمي الصحيح . وعلى الرغم من ان تركيبا علميا كهذا لما يتوصل اليه ، فان المحاولات الجدية التي باشرها اصحاب فقه اللغات المقارن اسفرت عن بعض الحقائق الخطيرة ، ومن هذه الحقائق حقيقة احب ان اشير اليها بصورة خاصة نظرا لاهميتها بالنسبة للموضوع الذي نعالجه وهي عدم التوازي بين المنطق والاجرومية ، اي ان نظام الفكر وقواعد العبارة غير متلازمين ولا متساوقين ، ولذلك استوى من حيث القيمة تقديم الفعل على الفاعل في بعض اللغات وتاخيره عنه في بعضها الآخر ، على الرغم من قيام ترتيب منطقي بينهما من حيث الاصل وبتعبير آخر ، ان مقولات المنطق (وهي العلاقات الصورية المختلفة التي يعتبرها الفلاسفة سائدة التفكير : كالكيف والكم والجوهر والعرض . الخ . .) لا تطابق « مقولات » النحو وهي اجناسه الكبرى ان صح التعبير (كالاسم والفعل والحرف والتذكير والتانيث والبناء والصرف والافراد والتعديد والتثنية وهلم جرا . .) فهنالك من جهة لغات تتفاوت في عدد الصور النحوية زيادة ونقصا ، والتثنية التي عندنا بالعربية لا وجود لها بالفرنسية ، كما انه في بعض اللغات مدلولات لا جنس لها (شانها كشان الملائكة) اي ان ارباب تلك اللغات يزيدون على ما عندنا شيئا (حياديا) لا ندخله نحن في تانيث ولا في تذكير . ومن جهة ثانية ، ليس لبعض انحاء التفكير صورة نحوية الا في بعض اللغات فقط ، ولئن كانت اكثر اللغات متسعة للمقولات التقليدية (كالعشر الشهيرة عند ارسطو) فما ابعد مقولات ذهن كذهن كانط ان تجد لها كفاء في سواد اللغات المتطورة العريقة في المعرفة بله الابتدائية .

ان لهذه الملاحظة في نظرنا لاهمية ممتازة بصدد ما نحن آخذون فيه ، ذلك انه لو صح بمعنى الكلمة الحر في ان اللغة مرآة التفكير لعكست آجروميات لغات المتمدنين صورة منطقهم السليم ، والحال ان اهل تلك اللغات الراقية يشاركون غيرهم من اهل اللغات الموهوم بها التفيقر « لا منطقية » نحوهم على الاقل ، واذن فقد بطل الزعم بان الالسنة مرايا الافكار ، فيها ينعكس ظلها وشكلها وهيئتها الاولية . ويترتب على هذا ـ وهنا بيت القصيد ـ القيمة النسبية فقط التي يجب ان نوليها لضرب من الابحاث ناجم عن تلك النظرات المبسطة : ذلك هو امر بسيكولوجيا الشعوب المستندة فيما تستند الى اللغات المقارنة . ان بعض علماء اللغات المغرمين بالكشوف الطريفة قالوا بامكان قيام سيكولوجيا « فرقية » لشعب من الشعوب بالاعتماد على طرائق تعبيره اللغوية والتغييرات اللاحقة بمدلولات الفاظه ، ونقطة الانطلاق في هذا النهج انما هو الافتراض بان اللغة من صنع العقل الجماعي فلابد ان تكون مستودعا يستقر فيه كل ما نشا عن هذا العقل من آثار ، ومن امثلة ذلك انصرافهم الى تفحص اللغات غنى وفقرا من حيث التراث اللفظي الذي يدل على تنظيم بدوي او حضري ، والنهوض به دليلا على عقلية غريزية معينة . فاذا اتفق للانكليزية ان كانت غنية بالالفاظ الاقتصادية ، زعم الزاعمون ان اهلها « مفطورون » على التجارة ، او اتفق لليونانية رصيد موفور من الالفاظ المجردة ، وللعبرانية حصيلة لا باس بها من الالفاظ الدينية قال القائلون : لامر ما كانت الفلسفة في يونان ، والنبوءات في بني اسرائيل . لا جرم ان النقاد اجازوا مباشرة مثل هذا البحث الى حد ما من حيث ان هناك لوينات خاصة نفسية واجتماعية تفصح عنها دراسة خصائص لغة قوم من الاقوام ، ولكنهم ابوا ان يقروا (وهذا هو موقف فاندريس) بان تكون معيارا يعايرون به العقلية القومية لعرق من العروق . ولئن طاب لنا مثلا ان نستشف من وراء اطلاق اسماء الحيوانات على الاشخاص عند الالمان او الفرنسيين ميلا نفسيا عند هؤلاء واولئك فنتخذ منه شاهدا بحسب الاحوال على عقليتهم المتميزة بالتهكم او المداعبة او الاحتقار او الشتمية ، فانه مما لا يجوز بحال من الاحوال ان نتخذه سبيلا نسقيا الى بسيكولوجيا « عرقية » كتلك التي باشرها ارنست رونان بحق الساميين ـ والعرب جزء منهم ـ والتي سنتناولها بشيء من التفصيل . ولكن قبل ان نمضي لشأننا نحب ان نفتح معترضة تاريخية فنشير الى ان القضية ليست جديدة علينا نحن العرب ، وان تاريخنا الادبي قد سجل منذ القديم آثار المقارنة بين العرب وغيرهم من الاقوام من زاوية اللون المميز او الهيئة التي تبدو بها على الالسنة ثمار القرائح . ومن امتع ما في هذا الباب كلام للشهرستاني من رجال القرن السادس الهجري (الثاني عشر م) فقد قال في الملل والنحل : (من الناس من قسم اهل العالم بحسب الاقاليم السبعة ، واعطى اهل كل اقليم حظه من اختلاف الطبائع والانفس **التي تدل عليها الالوان والالسن** ، ومنهم من قسمهم بحسب الاقطار الاربعة التي هي الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ووفر على كل قطر حقه من اختلاف الطبائع وتباين الشرائع ، ومنهم من قسمهم بحسب الامم فقال : كبار الامم اربعة : العرب ، والعجم ، والروم ، والهند . ثم زاوج بين امة وامة فذكر ان العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، **واكثر ميلهم الى تقرير خواص الاشياء ، والحكم باحكام الماهيات والحقائق ، واستعمال الامور الروحانية** . والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد واكثر ميلهم الى تقرير طبائع الاشياء والحكم باحكام الكيفيات واستعمال الامور الجسمانية) وسواء احمل هذا النص ـ كما فعل احمد امين في فجر الاسلام ص 49 ـ على محمل الشبه بالراي الذي قرره بعض المستشرقين من ان « طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة » ام لوحظ فيه ـ بمثل براعة مصطفى عبد الرزاق ـ استعداد العرب وميلهم الى « الاحكام الكلية والامور العقلية والمجردات » ونزوعهم الى « الروحانيات » فان فيه التفاتا الى قيام رابطة من شانها ان تتميز بالدقة والاحكام بين تفكير العرب ومظهر هذا التفكير ، وقد سبق لصاعد الاندلسي (المتوفى قبل الشهرستاني بزهاء بضعة عقود من السنوات) ان تحدث بهذا المعنى في طبقات الامم (*) فقال عن العرب : « واما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز شيئا منه ، ولا هيا **طباعهم** للعناية به ، ولا اعلم احدا من صميم العرب شهر به الا ابا يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وابا محمد الحسن الهمداني » . هذا ، ولا ننسى ان ننبه في هذا المقام على موقف ابن خلدون حول المقارنة التي نحن بصددها ، ذلك الموقف الذي ربما رمي بالشعوبية من اجله ـ ولكن ظلما

(*) ص 45 (طبعة بيروت)

وبهتانا ـ فالمعروف ان الرجل خاض فى انصراف العرب عن الفلسفة والعلوم العقلية ولكن التحليل الدقيق الذي تجلت به نظرية مفكرنا العبقري الفذ انما يستند الى الشرائط الاجتماعية التي احاطت بالعرب من جراء « احوال السذاجة والبداوة » ثم مشاغل الرياسة « والقيام بالملك » و « الانفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع » (※) اكثر مما يعتمد على اعتبارات عرقية راجعة الى الجبلة الاصلية .. ولعل فى وسعنا ان نصل بين كل دعوى من هذا القبيل وما كان جرى على قلم الجاحظ فى البيان والتبيين (ج 3 ص 12\13) فقد قرر ابو عثمان صادرا ولا شك عن اسم قلب واطيب نية « ان كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث فى علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكانه الهام ... »

بعد هذا الاستطراد التاريخي الذي لجانا اليه ، نرتد الى صلب الموضوع لنستعرض رايا خطيرا لايزال يتمتع بالاهمية حتى يومنا هذا ، بل لعل اهميته اليوم اشد خطرا مما كانت عليه اي يوم .

منذ قرن من الزمان كتب المستشرق الفرنسي الكبير ارنست رونان كتابا اسمه (مترجما للعربية) : « تاريخ عام ونظم مقارن للغات السامية » ، ولقد طارت شهرة هذا الكتاب واصبحت مادته زادا يطعمه كل من تناول امتنا ولسانها برايه ولسانه . ومحصل ما انتهى اليه من مذهب فى امرنا يقوم على اكتشاف دعوى واحدة كانت له بمثابة المفتاح يفتح به ابواب التعليل جميعا الا وهي دعوى (الوحدانية) التي هي آية السذاجة والبساطة فى العقل السامي ، الساميون موحدون بالطبيعة ، والتوحيد من شانه البساطة والسذاجة فعلى ذلك تخريج كل الاستنباطات التي ولدها بنبوغه وطول باعه فى الفيلولوجيا ، ومن ذلك ان الساميين لايمكن تعريفهم الا بالسلب : ليس لهم ـ والعرب اصفى عناصرهم ـ لا علم ولا فلسفة ، ولا شعور باللونيات ، ولا خيال خلاق ، ولا فنون تشكيلية، ولا آداب ملاحم ، ولا اساطير تبنى على التصور ، ولا سياسة معقدة ، ولا تنظيم مدني ولا عسكري ، ولا اخلاق موضوعية ، شعرهم رتيب وذاتي ، وفكرهم ينقصه التطلع ، والمتناقضات لاتفعل فيه : ترى العربي امام الروايات العجيبة والمشاهد المذهلة خلوا من كل تفكير مكتفيا ان يقول لك : ان الله على كل شيء قدير ، كما انه فى حالات الشك بين المذاهب المتناقضة ، يفر من حيرته بقوله : والله اعلم .. ومن غير الوارد ان تحتج للعرب بما لديهم من فلسفة ، انما هي تلفيقات منتزعة من الاغريق كتبت بالعربية ، وليس لها اصل ولا « جذر » فى شبه جزيرة العرب ، لان العرب غير قادرين على شيء من التعقيب والتركيب ، فبدلا من اعتبارها انتاجا طبيعيا لعقل سامي ، اولى بالمرء ان يعتبرها بمثابة ارتكاس على الاسلام واجهته به عبقرية الفرس الهندواوربيه (※) .

ولقد مضى رونان الى اللغات يستمد منها تأييد هذه الدعوى فلاحظ ان اللغات الآرية هي لغات التجريد والميتافيزياء ، على حين ان اللغات السامية لغات الواقعية والحس ، وهذا نموذج من كلامه : « ان اللغات الارية تنزع قبل كل شيء الى المثالية (...) وذلك بمرونتها الرائعة ، ووجوه اعرابها المختلف وادوات ربطها الدقيقة ، وكلماتها المركبة ، وعلى الاخص ، لسرها العجيب فيما يعرف عند اللغويين ب « القلب » Inversion تلك الطريقة التي تتيح الاحتفاظ بنظام الافكار الطبيعي دون اضرار بالعلاقات النحوية ، اما اذا تأملنا اللغات السامية ، فسرعان ما يسوغ لنا الظن بان الاحساس وحده ساد اوائل التفكير البشري ، وان اللسان ما كان ـ بادي الراي ـ الا انعكاسا للعالم الخارجي ، ولو استعرضنا سلسلة الجذور السامية ، لصعب علينا ان نجد فيها ما يخلو من الابتداء بمعنى مادي ينتقل منه فيما بعد الى الامور العقلية بوسائط تتفاوت فى درجتها المباشرة زيادة ونقصا (※) » ثم يسرد بضعة امثلة عبرية يؤخذ منها انه للابانة عن غرض نفسي لابد من اللجوء الى مدلولات تتسم بسيماء الحوادث الفيزيولوجية ، فالغضب يلحظ فيه النفس الحار والغليان ، والياس انحلال القلب ، والهلع انخلاع الكلي ، والكبرياء ارتفاع الراس، ويجد مثل هذا فى العربية فياتي بمثالين : « غفر »

※) 540 (طبعة بولاق)
※) راجع الفصل الاول من كتابه
※) ص 22 من المصدر نفسه

للمسامحة ـ وهو ما اقتضى تصور طلاء يمحو الذنوب ـ و « فرض » لتقرير أمر من الامور ـ وهو ما يلحظ فيه » وحز « قطع » قطعا ماديا ، وينتهي بعد ذلك الى تقرير ان « ما يميز اسرة اللغات السامية هو انها لاتزال تحتفظ احتفاظا دائما بالاتحاد المبدئي بين الاحساس والفكرة .. وبالاختصار لم تتم في تلك اللغات عملية التجريد المثالي Idéalisation على نحو كامل ، الامر الذي تشتم منه كما يرى رائحة (طفولة التفكير البشري) .

وكتاب رونان مشحون بالاحكام العامة التي هي من هذا القبيل ، فهو يؤكد مثلا ان اللغات الآرية لغات « تركيبية » ، حين ان السامية « تحليلية » وان العربية على رغم غناها من حيث المادة وان فيها على ما احصاه دوهامر خمسة الاف وسبعمائة واربعة واربعين اسما للجمل ، لاتقاس في جانب اللغات الهندية الاوروبية من حيث الضبط والدقة ، وان اساليب البيان العربي على سعة جوانبها تتصف بالجفوة الرتيبة وبالتقطع ، وان المرء اذ يتأمل كتاب العرب في مادتهم وطريقتهم من الهند وخراسان الى اسبانيا ومراكش ليداخله الشعور انه امام ثقافة متجانسة « صنعية وعليمة » (ولكن بالمعنى الرديء) .

هكذا تجدون ، ان الامر آل برونان الى ايصاد باب التفكير الفلسفي في وجه اهل هذه اللغة ؛ لا من جهة ان هذا التفكير غير مستساغ بالنسبة لاذهان طائفة منهم ولا من جهة انه لم يتهيأ لهم في عهد من العهود لاسباب خارجة عن ارادتهم بفعل العقائد الدينية مثلا او السلطة الزمنية ، بل من تلقاء علة ازلية سرمدية ضربت علينا في اصل ذكائنا وما ركب عليه عقلنا من فطرة ترتبت عليها طريقتنا في رؤية الامور ، وهذه العلة لا يرجى منها شفاء (كالخطيئة الاصلية لزمنا وزرها الى يوم القيامة مع جميع الساميين) !

ونحن لاندعي اننا اوتينا المعرفة العميقة التي تميز بها هذا المستشرق النحرير ولا سعة احاطته : فقد كان علامة فهامة من الطراز الاول ، استوعب فنون الاشتقاق في عصره ، وابعد النظر في دراسات الفيلولوجيا المقارنة التي باشرها فطاحل الالمان امثال ابوالد ، ولاسين ، وشايفل وغيرهم ، ووقف على لغات مختلفة شرقية وغربية وقوفا واعيا بصيرا ، ولكننا مع ذلك نأذن لانفسنا ان نبدي بعض التساؤلات والاعتراضات بصدد مقالاته لا سيما وان الرجل ـ الى جانب الحاده الذي لا يعنينا نحن ان ننكره عليه ـ متهم بعرق من العصبية الشعوبية على كل ماهو غير اوروبي، فلعله تحت تأثير منطق عواطفه الخاص ، انزلق الى نظريات تتجاوز حد الحيطة العلمية ، وقد يكشف « التحليل النفسي » ذات يوم عن بواعثها الدفينة .

واول ما نريد بيانه هو وهن الموضوعة الاساسية التي اعتمدها رونان في دراسة البسيكولوجيا السامية. لاشك ان من عناصر هذه البسيكولوجيا دراسة الظاهرات اللغوية ، على اعتبار ان اللغة تكشف عن خصائص العقول ، وهذا صحيح بشرط واحد هو الا نربط الخصائص بالتكوين البيولوجي الحيوي والا نجعلها ناشئة عن صورة ذهنية فطرية لصقت بها كالطين اللازب ، بل ان ناخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية كالسكنى وطراز العيش وتمازج الثقافات والشعوب . يقول فاندريس : « كما انه من التحكم ان تستنبط اللغة من الذهن ، فكذلك من الاعتباط ايضا ان تستخرج العقلية من اللسان ، ان كلا الامرين من فعل الظروف ، انهما من الوقائع الحضارية » ، والحال ان رونان ربط تلك الخصائص التي اكتشفها بالتكوين الفريزي عند الساميين ، فاذا لم يجد عندهم ملاحم فذلك عن انهم سذج لا خيال لهم ، وبديهي ان ما فعل صادر عن نزعة عرقية باطلة لم تعد ترضي العلم الحديث في قليل ولا كثير .

ثانيا : ان طريقته الاستقرائية غير مستوفاة ، فالمعلوم ان الاستقراءات التي تصلح لان تستخرج منها القوانين العلمية انما هي الاستقراءات الكاملة لا الناقصة لان ماتي السفسطة الاول من التعداد الناقص، فلنعرض على محك النظر دعواه في ان « اللغات السامية لغات الواقعية والحس بالقياس الى اللغات الآرية التي هي لغات التجريد والميتافيزياء » .

لقد بنيت هذه الدعوى على الزعم باننا لو استعرضنا سلسلة الجذور السامية لصعب علينا ان نجد فيها ما يخلو من الابتداء بمعنى مادي ، ولكن هذا يستدعي قبل كل شيء ان تتوفر « مونوغرافيات » مفصلة اتم تفصيل للعبرية ، والكنعانية ، والفينيقية ، والسريانية،والاشورية ، والبابلية ، والنبطية والعربية فضلا عن جميع اللغات الاخرى السامي منها والآري ، وان تصاحب هذه الدراسات المفردة احصاءات مضبوطة للالفاظ الحسية والالفاظ المجردة في كل لغة مع نسبتها المئوية ، فماذا فعل رونان هنا ؟ انه اكتفى

في اغلب الاحيان بايراد امثلة تنحصر في بضع كلمات من العبرية ، واحيانا من العربية ، ورتب عليها مثل هذه التعميمات الضخمة . ثم ، باقتراض ان مثل ذلك قد جرى الى حد ما (وما ابعد مثل هذا الواقع عن ضرورات البحث العلمي) ، فهلا تشهد كثرة الالفاظ الحسية على الالفاظ المعنوية في لسان ما ؟ ربما كان فيه دليل على ان ذلك اللسان احتفظ بصورة التطور اكثر من غيره (وقد اورد هذا الاعتراض على رونان كما صرح بذلك هو نفسه) ونحن نضيف : لماذا نتخذ من نقل الالفاظ عن معانيها الاصلية دليلا على اتصاف الفكر بطابع ثابت ، مع ان مجرد النقل يدل على حركة فكرية ؟ ان من المعلوم ان الكلمات تتغير معانيها على انحاء ثلاثة :

1) **التخصيص** : (وهو نقل المعنى من الجنس الى النوع : كالصلاة التي اختص لفظها بضرب من الدعاء) .

2) **التعميم** : (اي التوسع في اطلاق الجزء على الكل ، نحو « الهجين » وهو في الاصل للعجماوات غير ذات النسب الصريح ثم استعمل لكل خلاسي من البشر) .

3) **النقل** : من مجال الى مجال بسبب المجاورة (ونلفت النظر الى اننا هنا نسوي بين المجاورة المادية والذهنية لكي تطوي تحتها ما يعرفه لغوينا بـ « الاشراب » الذي يكون مثلا باستعمال الالفاظ الحسية لمعاني مجردة كقولك « الجزم » ـ وهو القطع المادي ـ تريد به « التوكيد » وكقولك « الاعتماد » ـ وهو اصلا التوكؤ ـ في مقام « الوضع موضع الثقة ») وقس على ذلك ضروب الاستعارات والمجازات .

ونحن نظن ان مجرد لجوء العرب الى اشراب الالفاظ الحسية معاني مجردة دليل على عكس نظرية رونان لانه يفرض بالضرورة قيام المعاني المجردة في الذهن ، والا لما حصل الانتقال من الحسي الى غيره ، واذا كانت اللغات على ما يعتقده رونان في اعقاب هوردمان « الحصيلة المباشرة للشعور البشري » فان الاشراب يعكس على افضل وجه تلك الفاعلية الديناميكية الاصيلة في الذهن العربي القائمة على تصور المجرد وربطه بالمحسوس ، وذلك للاقتران بين ضربي الانطباعات التي تركها في شعورهم كل من النطاقين (نطاق المجرد ونطاق المحسوس) .

ثالثا : ان اكبر ما ناخذه على رونان تعسفه في التعميمات التي تتجاوز حدود المقدمات . والحقيقة انه اجترأ على تراكيب فضفاضة ، فوقع في مثل ما رمى به اولئك الذين يستهويهم وضع النظريات الكبرى بعد نظرهم نظرا غير مستوى في كتب اللغة وفي النصوص ، ولئن انحى باللائمة على هؤلاء صارفا اليهم قوله : « ان الفضاضة التي تلحق بالمرء من ان يكون خياليا اكبر من الفضاضة اللاحقة به من التقصير » فغالب الظن ان رونان وقع في العيب الذي انكره على غيره يوم رمانا مع الساميين جميعا باننا لا فلسفة لنا اصيلة ، ولا خيال خلاق ، وان فكرنا يرضى بالمتناقضات . ونظن ان رونان ادرك ما يمكن ان يوصم به من جراء تعميماته فاعتذر عن ذلك في المقدمة بان لولاه لبقي التاريخ محصورا في نطاق الواقعات المادية دون اقدام على استخراج مغزى تلك الواقعات ، ولكن اذا كان استخراج المغزى يؤدي الى مثل هذا التكلف والافتئات، فكم كان اجدر به وهو في منزلته وبسطة علمه ، «كراكب الاسد يهابه الناس » ان يكون « لمركبه اهيب » كما يقول كاتبنا العظيم عبد الله بن المقفع !

وبعد ، تعالوا ايها السادة ننظر نظرة اخرى في تاريخ فكرنا من الناحية السوسيولوجية . لقد كانت لنا حياة فكرية قبل الاسلام صورها الشعر الجاهلي فهل كان هذا الشعر غير مفصح عن خوالج النفس الدقيقة ؟ نعم انه لم يكن شعر ملاحم طويلة النفس (كالالياذة) ، ولكن ما بالنا لا نقيم وزنا للخيال الا اذا جاء على طريقة الاغريق ؟ ان ملكة التصور الخلاق تتخذ اشكالا مختلفة ، والشكل الاسطوري واحد من عديدها ولئن كانت الوثنية طورا من اطوار التاريخ وجاءت الاسطورة معبرة عن خياله ، فاننا لا نطالب شعراء عصرنا الحاضر مثلا ان يظل خيالهم دائرا على الاساطير . هذا هو الشعر الفرنسي في الازمنة القريبة منا من رونسار الى سان جون بيرس ، اهو منحط في مرتبة خياله لانه لايدور على خلق اساطير ؟ وهل نتخذ شاهدا من ذلك على ضعف ملكة التخييل عند اكبر من تمثل تراث الاغريق اعني الامة الفرنسية ؟

ثم لقد كان لنا لسان صلح لان يكون محملا لدين جليل مع ما انبعث عن هذا الدين من عقيدة ، وشرع ، وفقه ، ونحو ، وصرف ، وكلام ، وجدل ، ومنطق ، وعلوم عقلية . فكيف استطاع لسان يعتبر رونان ان آجروميته تمثل طفولة الفكر الانساني ان يقوى على النهوض بكل ذلك ؟ بل لقد اتسع لساننا بالذات

لاستيعاب حكمة فارس ورياضيات الهند وفلسفة يونان، فباي لغة يا ترى وصلتنا اثار افلاطون ، وارسطو ، والاسكندر الافروديسي ، وسقراط ، وجالينوس ، واقليدس ، وارخميدس ، وذيوفانت ، وبالناس ، وبطليموس ؟ وهل عجز آل بختيشوع وآل الكرخي وبنو موسى بن شاكر وثابت بن قرة والحجاج بن مطر، ويوحنا البطريق وابن ناعمة الحمصي وابو عثمان الدمشقي ومتى بن يونس القنائي ويحيى بن عدي ، والبلاذري احمد بن يحيى ، واسحق بن يزيد وعلى بن زياد والتميمي والحسن بن سهل وعشرات غيرهم عن اداء المعاني المجردة العويصة بالعربية وبالسريانية وحتى بالعبرية ؟ بل كيف فهم عنا تراجمة العصر الوسيط اللاتيني حكمة اليونان الرفيعة التي نقلناها اولا ، فحملوها الى اوروبا عن طريق لساننا ليغني بها التفكير الغربي ؟

ليس هذا كل ما في الامر ، لقد كان لنا فلسفة خاصة يوم لم يكن للفرنجة ولا للقوط ولا للهون ولا للسلت ولا للكرولنجيين ولا للمروفنجيين فلسفة . افيكفي في الحط من شان هذه الفلسفة ان يقال انها دخيلة علينا ؟ او لم يعترف لنا رونان باصالة علم الكلام وهو جدل رفيع نبت في جو اسلامي صافي العروبة ، وهب ان من صنعوا الفلسفة بمعناها الاضيق كانوا من اصل فارسي او اعجمي ، فليت شعري باي لسان فكروا ؟ ولم اختار الفارابي لغة العرب لبيان نظرية العقول والشيخ الرئيس ابن سينا لغة العرب لكتابة الشفاء والنجاة ؟ ولم تناول الغزالي «مقاصد الفلاسفة» ثم بين «تهافتهم» بلسان غير الفارسي ؟ وكيف صلحت مؤلفات ابن رشد ان تكون كما يقول جلسن مصدرا « له ابعد الاثر واقواه في الاسكولائية المسيحية » وينبوعا رويت منه فلسفة اللاهوتيين امثال غيليوم الاوفيروني وروجه باكون وحنا بيكام ؟ .

لم يكن العرب ، امة غالبة دائما حتى نقول ان لسانهم انما انتشر بقوة السيف . نعم لقد امتد ملكهم ذات يوم من جبال البرانس واعمدة هرقل الى الهند والصين ، ولقد كانوا على رأس العالم المتمدن في عهود زاهرة كحقبة بغداد في القرن الثامن المسيحي ايام الرشيد والمامون ويوم اشعت مملكة الاغالبة على سردينية وصقلية ونابولي ، وكعهد قرطبة في القرن العاشر في ظل الحكم الثاني والحاجب المنصور محمد بن ابي عامر ، ثم في حقبة القاهرة الفاطمية وفي المغرب الاسلامي على عهد المرابطين والموحدين . ولكنهم واجهوا نكبات ومصائب كان من حقها منطقيا ان تمحو لغتهم محوا كأداة حضارية . ومع ذلك لا هولاكو البوذي الذي ذبح اهل بغداد ذبحا وجعل مياه دجلة سوداء من مداد ثقافتنا ، ولا الحروب الصليبية التي عاثت في ارضنا قرنين كاملين ، ولا الفتح المغولي ، ولا الغزو الطوراني ، ولا غلبة الاعاجم علينا من كل ملة ونحلة ، ولا الاستعمار الغربي نالت من عنفوان العربية . لماذا ؟ لان هذه اللغة اثبت حيويتها امام الكوارث لانها وقد القحتها الثقافات الفارسية واليونانية والبيزنطية والهندية ، عرفت كيف تستصفي عصارة تلك الثقافات فيتمثلها نسغها اليعربي الاصيل . ان سر حياتها القوية العنيفة قائم في مرونتها وقابليتها للتكيف ، وهذه هي النهضة العربية اليوم تاتي شاهدا مصدقا لما نقول ، ففي اقل من قرن من الزمان استطاع اهل هذه اللغة ان يتناولوا بلسانهم ما شئت من علم وفن وفلسفة وتكنيك ، وكثير من جامعات العالم العربي ومن مراكز البحوث تتولى معالجة العلوم الايجابية المضبوطة بفكر اداته هذه اللغة المضرية لغة معد وعدنان .

ايها السادة ، اذا بدت هكذا مقاتل نظرية رونان ، فما احرانا ان نردد مع صديقنا لويس غاردية ان الخميرة العربية العاملة في جوف كل الشعوب التي استهواها الاسلام انما هي (والتعابير هاهنا للمستشرق المرحوم ماسينيون) هذا اللسان الرائع ذو الازمنة « الثيوسانطرية » اي المركزة حول الذات الالهية ، هذا الضبط في الصورة تتلبس بها (مادة) موارة مضطربة مرجحنة ، هذا المزاج الرقراق من مجردات (عربت عن كل زيادة) وافادات اتصفت بتمام الجدوى ، هذا القران المدهش بين آثار عليها مسحة الخشونة وبينات تتميز برونق منقطع النظير .

ان امجد مظهر لعبقرية العرب لسانهم العظيم وان ابا الريحان البيروني — نضر الله جنة خلده بالروح والريحان — كان على حق يوم ان قال : لان اهجأ بالعربية خير من ان امدح بالفارسية ؟ .

الرباط : الدكتور حكمة هاشم
أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس

نحو تحديد محتوى
ثقافتنا القومية
ثورة وجمود

للأستاذ محمد زنيبر

- 2 -

اذا نظرنا الآن الى الموضوع من زاوية التاريخ ، يتبين لنا ان هنالك حادثا مهما في تاريخنا الحديث لازال الباحثون عندنا لم يولوه ما يجب من الدرس والتحليل، الا وهو الثورة الفكرية التي حدثت في المغرب منذ اواخر القرن الماضي .

وهذه الثورة تكاد تقارب في ابعادها التاريخية الثورة التي حققها دخول الاسلام الى المغرب منذ ثلاثة عشر قرنا .

الثقافة العربية الاسلامية بين الثورة والجمود :

فلا ننس ان الاسلام ، عند تسربه لهاته البلاد ، وجد مجتمعا ومعتقدات وتقاليد منها ما هو مغربي صميم ، ومنها ما هو مقتبس عن الرومان والوندال وغيرهم . ومع ذلك فقد استطاع ان يقلب الاوضاع كلها رأسا على عقب ، ويطوي صفحة الماضي ليبدأ صفحات جديدة ، بحيث دخل الفكر المغربي في قالب جديد ، قالب الاسلام ، وتغير سلم القيم الروحية والاخلاقية والعقلية .

ونشأت الثقافة العربية الاسلامية في هاته الديار ، وكانت في الحقيقة اول صورة للثقافة المغربية منذ بداية التاريخ ، ونمت هذه الثقافة وتنوعت وانتشرت بين مختلف العواصم المغربية والمراكز العلمية في الحاضرة والبادية ، وانتقلت في مراحل مختلفة ونبغ فيها رجال وقادة ، وتأثرت بمؤثرات خارجية اتت من الشرق ومن الغرب على السواء ، وقصارى القول : انها نشطت وتحركت على قدر ما كانت تسمح به الظروف والمستوى الفكري العام .

الا انها منذ نشأتها الى اواخر القرن الماضي ظلت تسير على سنن تطوري بطيء ، ان لم تقل انها وقفت بالمرة ، فلم تشاهد اي تحول او اي انقلاب ، بل انها بالغت في الوفاء لنفسها وتجاوزت كل حد في الانطواء على جذورها ، بحيث كان عهدها الاول عهد الانطلاق وتفتح وحرية فكرية واجتهاد عقلي ، وتدرج فيما بعد الى عهد ساده الجمود ونضبت فيه ينابيع الخلق والابتكار واصبح الاجتهاد مدعاة للانتقام والاضطهاد .

وبعبارة اوضح ، ان الثقافة العربية الاسلامية في المغرب — ويمكننا ان نقول في عموم بلاد الاسلام — عاشت ازيد من اثنى عشر قرنا على انطلاقتها الاولى، التي استمدتها من الروح الثورية التي برز بها الاسلام في دياجير القرون الوسطى ، ولكنها عجزت طوال هذه الحقبة ان تحتفظ الى النهاية بطابعها الثوري .

ذلك انها مرتبطة بالحالة التي كان عليها المجتمع الاسلامي في مختلف عصوره تعبر عن نفسيته وتتأثر بالقوى السائدة فيه ، ففي العهود الاولى ، حيث كان يشعر العرب والمسلمون انهم حملة رسالة انسانية وان عليهم ان يقاوموا مظاهر الظلم والطغيان في عالم ذلك الوقت ويطبقوا مذهبا جديدا شاملا في الاصلاح ، كانت تلك الثقافة تبرهن عن فكر متفتح وعن ايمان بالعقل ، وبلغ من ثقتها بنفسها انها لم تكن تخشى الاتصال بالثقافات الاخرى ، بل انها رغبت في ذلك الاتصال وقامت به على نطاق واسع ، وهكذا عربت كتب عديدة من اليونانية واللاتينية والهندية والفارسية والسريانية ، واقبل عليها القراء المسلمون واقتبس منها العلماء والادباء والفلاسفة العرب ، وتبين في

النهاية انها كانت عامل اخصاب وتنويع وتوسيع للانتاج الثقافي بصفة عامة .

وفى العهود التالية ، حيث دب الضعف الى الدولة العربية الاسلامية ، وانقسمت الى دويلات متعادية ، وانتشرت الفوضى واستحكمت الاقطاعية ، فقد المسلمون روحهم الثورية الوثابة ، وحل الجمود محل الحركة ، والخوف محل الثقة ، وغدا المجتمع الاسلامي محافظا اشد ما تكون المحافظة ، يخشى كل فكرة جديدة وكل روح نقدية ، وفى سبيل الابقاء على اوضاعه لم يكن بيده الا وسيلة واحدة ، هي نكران القيم الفكرية ، فما دامت الافكار تتصرف وتروج بحرية ، يمكن الامل فى الاصلاح وتقويم الاعوجاج فى المجتمع ، ولكن حينما يحكم على الافكار بالجمود ، تغلق ابواب الامل كلها .

وقد ظهر اثر هذا الجمود فى الكتابة بصورة خاصة ، فالنثر العربي لم يعد يعبر عن اية فكرة جديدة بل عن اية فكرة بالمرة ، وانما هو تنميق الفاظ ووصل جمل مسجوعة ، واصبح الكتاب يخفون فقرهم العقلي وراء تركيبات لفظية معقدة ، والواقع ان الكتاب كانوا يخافون من التفكير ، فالتفكير اصبح فى عهد الانحطاط وصمة يجب على « العاقل » ان يجتنبها ، ومحنة ابن رشد وابن تيمية والتقولات التي حامت حول ابن خلدون ان هي الا امثلة مشهورة .

مميزات الثقافة المغربية :

واذا رجعنا الى المغرب بكيفية خاصة ، نجد ان المجتمع المغربي كان صورة مصغرة للمجتمع العربي الاسلامي فى مظهره العام ، فقد عرف هو ايضا عهد الوثوب العقلي والثقة بالنفس ، كما عرف فيما بعد عهد الانحطاط والتراجع ، الا ان المجتمع المغربي له وسط هاته المظاهر العامة مميزاته التي تجعل لثقافته طابعها الخاص .

وهاته المميزات هي وليدة المزاج المغربي والعادات المغربية ونوع الحياة التي يعيشها المغاربة فى بلادهم ، ووضعهم التاريخي والجغرافي ، ونحن لو اخذنا على انفسنا استكشاف تلك المميزات بجزئياتها وتفاصيلها لتطلب ذلك منا بحثا طويلا ، ويكفي فى هذا المقام ان نبرز ظاهرتين اساسيتين رافقتا تلك الثقافة فى مختلف عصورها وكان لهما اثر عميق فى تكوين شخصيتها :

أولا — ان الثقافة المغربية يغلب عليها الاتجاه العملي اكثر من غيره ، وهذا راجع الى طبيعة الشعب وميوله الفطرية ، ثم ان المغرب بلاد فلاحة وتجارة ومعاملات على اختلاف الانواع ، وهذا النشاط الاقتصادي يخلق بالضرورة لونا من الثقافة يطابقه ويتجاوب معه ، فلا جرم اذا راينا الفقه يزدهر بصورة خاصة ويحتل المقام الاول من بين العلوم التي تدرس فى المعاهد والمساجد ، والنوازل الفقهية ، كما لا يخفى لا يقع تكاثرها الا حيث ياخذ النشاط الانساني مظهره الاقوى .

ثانيا : ان الثقافة المغربية ارتبطت ارتباطا وثيقا بالدين ، ولم تستطع ان تخرج عن الدائرة الدينية ، فتستقل فروعها الادبية ، مثلا ، وتنمو وتتسع كما حدث فى الشرق وفى الاندلس ، فليس لدينا كتاب من نوع الجاحظ وابي الفرج الاصبهاني وابن عبد ربه ، والواقع ان التاثير الديني متغلغل فى الانتاج الادبي والفني والثقافي ، بصورة عامة ، وتلك ظاهرة يفسرها وضع المغرب من الوجهة الجغرافية والتاريخية، فالمغرب يقع فى آخر العالم الاسلامي وفى جوار الدول المسيحية التي كانت فى عراك صليبي طويل مسترسل مع بلاد الاسلام .

والحق ان المغرب كان احد ثغور الاسلام النشيطة المتحركة ، ومنذ ان ضعفت الدولة العربية باسبانيا ، وهو فى حروب متواصلة مع اسبانيا الكاثوليكية ، يضاف الى ذلك ما كان له من حروب ومناوشات مع دول اوربية اخرى منذ خروج العرب من الاندلس . كان من نتائج العداء الصليبي ان اذكى روح الجهاد لدى المغرب المسلم ، وهكذا تأسست رباطات المجاهدين فى مختلف انحاء البلاد ، واصبح شعار المغاربة بعد ضياع الاندلس وتكالب الدول المسيحية على الشواطىء المغربية هو نصرة الاسلام والدفاع عنه .

وظهرت الصوفية المغربية تحت فعل هذه الاحداث التاريخية فى مظهر طريف يجعلها جديرة بان تكون محل درس عميق ، وسيكون من المفيد حقا ان تدرس الزوايا المغربية دراسة عميقة سواء من الوجهة التاريخية البحتة او من الوجهة الوصفية والمذهبية ، لانها تمثل مرحلة مهمة فى تاريخ تطورنا الفكري والثقافي .

ومهما يكن ، فان هذا الجو المفعم بالحروب الدينية والذي كان ياخذ احيانا شكل عراك حياة او

ممات ، جعل للدين تأثيره العميق على كل مظاهر النشاط فى المجتمع وفى مقدمتها النشاط الثقافي ، ولذلك فلم يكن من الميسور أن تستقل الفروع الادبية وتعرف النمو والاتساع اللذين نشاهدهما فى الشرق وفى الاندلس .

نعم ، كان هنالك شعر ونثر ونبغ كتاب وشعراء وتكونت مجالس واندية ادبية فى الحواضر الكبرى وفى قصور الكبراء ، ولكن النشاط الادبي فى هاته البلاد لم يبلغ الشأو الذي كان له فى المشرق او فى الاندلس ورغم المجهودات المشكورة التي يبذلها اليوم بعض المؤرخين المغاربة لاستكشاف نبغائنا فى الادب خلال القرون المنصرمة ، فلست اشك لحظة فى انهم لن يعثروا مطلقا على كاتب او شاعر مجهول يضاهي الجاحظ ، او ابا حيان ، او المتنبي ، او ابا فراس ، وكل ما سيعثرون عليه فى الواقع هو محاولة بعض الفقهاء والمدرسين وبعض كتبة الدولة وخدامها الذين كانوا يتعاطون فى الغالب للادب من باب التلهي وتزجية الفراغ ، ويجب القول كذلك انه لم يكن بالمغرب بلاط يشبه بلاط العباسيين فى بغداد او الامويين فى قرطبة حيث كانت حرفة الادب تجد سوقا لنفاقها وحيث كان الادباء يستطيعون ان يعيشوا من انتاجهم دون التعاطي لاي مهنة اخرى .

وعلى اي فان النشاط الثقافي الذي كان له رواج بالمغرب هو ذلك الذي يتصل بالحياة الواقعية للمغاربة ، تلك الحياة التي تتمثل فى نظامهم الاجتماعي والاقتصادي ، من جهة ، والتي يعبر عنها ، من جهة اخرى ، وضعهم الجغرافي والتاريخي الذي حملهم طيلة القرون الوسطى وحتى بداية القرن العشرين مسؤولية الوقوف فى الخط الاول للدفاع عن البلاد الاسلامية ضد الحملات الصليبية والاعتداءات الاستعمارية .

الثقافة العربية الاسلامية فى مصر وفى المغرب :

تلك بعض الميزات التي تبرز الطابع المغربي فى نسجه الفريد وطرافته ، ولكي نزيد افكارنا وضوحا فى هذا الباب ، سيكون من المفيد ان نقوم بمقارنة تاريخية ، فندرس مثلا المصير الذي عرفته الثقافة العربية الاسلامية فى بلدين كالمغرب ومصر ، فكلا القطرين استعربا بعد الاسلام ، وكلاهما تلقيا الثقافة الاسلامية واللغة العربية مع الدين الجديد ، ولكن ، عندما ننظر الى التطور الذي عاشته تلك الثقافة هنا وهناك ، سرعان ما يبدو لنا ان الفروق تتسع مع تقدم الزمان ، ولسنا هنا بصدد اصدار حكم بالقيمة ، ولكن قولنا يقتصر على تقرير الواقع لا اقل ولا اكثر .

ففي وادي النيل ، امكن للثقافة ان تستفيد من عدة عوامل فتكتسب خصبا وتنوعا وتلج كل الابواب وتسير فى اتجاهات مختلفة ، ولا غرو ، فالبلاد ذات حضارة قديمة امتزجت بحضارات اخرى من فارسية وفينيقية ويونانية ورومانية ، الشيء الذي أهلها لان تهضم بسرعة الدين الجديد والثقافة العربية الاسلامية ، ثم ان المجتمع المصري يعيش متكاثفا ، وان شئت فقل مزدحما ، حول وادي النيل ، وهذا التكاثف او الازدحام يخلق حياة اجتماعية قوية ، وهذه بدورها تهيىء الظروف المادية والمعنوية لنشوء الوان من الثقافة .

اضف الى هذا مركز مصر الجغرافي الذي يضعها وسط الدول الاسلامية من شرقية وغربية تستفيد من الجهتين وتلتقي فيها كل التيارات والمذاهب ، ثم ان تاريخ مصر الاسلامية هيأ لها كل اسباب التنوع الفكري والثقافي ، فمصر وان لم تحظ بالاستقلال السياسي الذي استمتع به المغرب ، فانها عرفت دولا مختلفة ومذاهب واساليب متنوعة فى الحكم والادارة ، منها العربي والتركي والعباسي والايوبي والفاطمي والطولوني الخ.. بحيث تنوعت ذهنية الحاكمين والمحكومين على السواء ، واستطاع البلاط المصري فى بعض الاوقات ان يضاهي البلاط العباسي من حيث ازدحام الشعراء ، والادباء على ابوابه .

ثم لاننس ان مصر كانت تعيش لنفسها وتستهلك ادبها ولم يكن لها ما يشغلها عن ذلك ويصرف جهودها الى غايات اخرى ، ومن الطبيعي فى ظروف كهاته ان يقع طلب للأدب واقبال عليه ، ناهيك بما للمزاج المصري المنطوي على المرح والدعابة والتفاؤل من دور فى تنشيط الحياة الادبية وشحذ خيال القصاصين والشعراء والمؤلفين .

اما فى المغرب ، فقد عرفت الثقافة العربية الاسلامية مصيرا آخر ووجها آخر ، فالمجتمع المغربي غير مزدحم كما هو الشان فى وادي النيل ،

بل انه موزع على الاقاليم وعلى اطراف البلاد ، الشيء الذي ساعد باستمرار على بقاء الروح الفردية وتكون النزعات الاقليمية والمحلية والقبلية ، ثم ان هنالك حادثا تاريخيا كان له الاثر البالغ فى المجتمع المغربي خلال القرون الوسطى ، وهو الهجرة الجماعية لعرب بني هلال وبني سليم الى المغرب ، الشيء الذي اخل عدة اجيال بالتوازن القبلي الذي كان يعيش عليه المغرب .

والحقيقة ان النظام القبلي الذي كان مستحكما فى البوادي المغربية وما نجم عنه من انواع الصراع الداخلي خلق نوعا من عدم الاستقرار المزمن فى المجتمع المغربي ، وحالة عدم الاستقرار هاته تقل وتتلاشى احيانا اذا كانت السلطة المركزية قوية ولكنها لا تلبث ان تعود الى الظهور وتتفاحش عند فتور تلك السلطة وضعفها .

اضف الى هذا ان المغرب لم يكن يعيش لنفسه ، بل كان يشعر بانه مكلف برسالة تاريخية تتجاوز حدوده الجغرافية ، فقد كان يشعر قبل كل شيء انه مسؤول عن الدفاع عن الاسلام وتمكينه فى المنطقة التي يوجد بها سواء فى ناحية الشمال تجاه اسبانيا واروبا او فى ناحية الجنوب تجاه الصحراء وافريقيا السوداء . وكان عليه بالخصوص ان يدافع عن الدولة العربية فى اسبانيا وقد دامت هاته المهمة قرونا عديدة وكلفته مجهودات وتضحيات ، ومن جهة اخرى كان المغرب يشعر خلال تلك الحقبة بان عليه تقع تبعية توحيد الشمال الافريقي او كما نسميه الآن المغرب العربي ، وقد صرف همته لتحقيق هاته الفكرة واستطاع ان ينجح فى ذلك فى بعض العصور، وكل هذا لم يكن ليخفف عنه العبء ويسهل عليه الحياة الصعبة التي انغمر فيها .

وطبيعي ان تؤثر هاته الاوضاع التاريخية على المجتمع وتكيفه تكييفا جديا وان تكون للمزايا الحربية المقام الاول فى التقدير الرسمي والاجتماعي، ولذلك فلم يكن من الممكن ان تبرز حياة ثقافية وانتاج ثقافي متنوع فى مشاربه واتجاهاته ، بل ان الادب كان فى الغالب ادب رجال لهم صلة بالدولة عن طريق الخدمة او القرب ، لان المجتمع لم تكن تتوفر فيه الظروف لظهور نشاط فكري تلقائي ومستقل ، فنحن عندما نستعرض كتابنا وشعراءنا المغاربة ، نجد أن طائفة كبيرة منهم كانوا اما وزراء واما موظفين سامين واما من المقربين الى الدولة بصفة من الصفات .

ثم ان المغرب وهو دولة حرب وجهاد كان يشعر بأن مهمة الادب والفن والثقافة ، بصفة عامة ملقاة على عاتق الاندلس التي زخر فيها بحر العلم والادب منذ اوائل الامويين ، وكانت الامور تجري كما لو كان هنالك توزيع ادوار بينه وبين الاندلس ، فعليه ان يحكم ويسوس ويحارب ويدبر ، وعلى الاندلس ان ترفع لواء العلم والادب والفنون الجميلة وتسهم فى بناء الحضارة المغربية .

يتضح مما سبق ان دخول الاسلام الى المغرب احدث ثورة فكرية عامة فى البلاد واوجد من العدم ثقافة عربية اسلامية انطبعت بطابع البلاد وظروفها وكانت لها مميزاتها التي تبرز شخصيتها ، وبعد ان عاشت تلك الثقافة طورا من الوثوب والتفتح الذهني، عرفت طورا آخر من الجمود دام الى اواخر القرن الماضي أي الى حدوث الثورة الفكرية التي نجمت عن اتصالنا باروبا ، وقد حان الوقت لنتكلم عن تلك الثورة التي المعنا اليها .

— يتبع —

سلا — محمد زنيبر

استمرار العربية بالمغرب

للأستاذ عبد الله الكامل الكتاني

اللغات مؤسسات اجتماعية كالكائن الانساني له اسم يميزه عن بقية الاسماء ، وجنسية يعرف بها بين الاوطان ، واوصاف يختص بها دون سواه .

من هنا كان اسم اللغة التي يتحدث بها اهل المغرب « العربية » ولهذه العربية جنسية هي جنسية « الوطن العربي » بحدوده الجغرافية المعروفة ، ومن اوصافها التي اختصت بها دون سواها ظاهرة البقاء والاستمرار .

وتبدي الملاحظة البسيطة اتصالا وثيقا بين هذه الاوصاف الثلاثة : « العربية » و « الوطنية او الجنسية » و « الاستمرار » فكلما اتخذت بلدة « العربية » و « استمرت » في اتخاذها كذلك ، كان هذا دليلا على دخول هذه البلدة في الحظيرة الجغرافية للوطن العربي ، وكلما انعدمت ظاهرة الاستمرار هذه قام ذلك دليلا على ان البلدة التي استعربت خلال زمان ـ طويل او قصير ـ ولم تستمر فيها العربية ، ليست من الوطن العربي : ذلك ما حصل في فارس التي استعربت دينا ولغة بعد الفتح الاسلامي وكان فيها ادباء وشعراء وعلماء ، ثم استعجمت بعد استعراب رغم انها بقيت على الاسلام ، ومثل هذا حصل في الاندلس التي استعربت هي الاخرى لغة ودينا ، ثم ما لبثت العربية ودينها ان خرجا من ذلك القطر بعد ان استوطناه زهاء ثمانية قرون وهي مدة ليست باليسيرة في حساب التاريخ وحياة اللغة .

ومثل ذلك حصل ايضا في جزيرة مالطة بعد خروج العرب المسلمين منها واستيلاء النصارى عليها، ظلت العربية لسان القوم في معاملاتهم ومحاسباتهم وفي دواوينهم ومؤسساتهم المختلفة ، وظل ملوكها ورؤساؤها زمانا طويلا تطرب للقصائد العربيات حين تمدح بها ، غير ان واحدة من هذه البلدان الثلاثة لم تستمر فيها لغة العرب لانها لم تكن يوما ما وطنا عربيا فخرجت منها العربية مثلما دخلتها تاركة بعض آثار لسانها ولهجاتها في لغات القوم .

.. ودخلت العربية المغرب مع الفتح الاسلامي ، فوجدت لها فيه وطنا ومهدا .. ومن ثم كان استمرار العربية بالمغرب » الى يومنا هذا والى يوم الدين .

ورغم ان واقع العربية بالمغرب ليس بذلك الواقع المزدهر الفني ، فان ظاهرة الاستمرارتتاكد فيه وتزداد رسوخا من يوم الى آخر بهذا الشكل او ذاك .

فالادارة المغربية في كل عهودها ، وحتى في عهد الحماية البغيض لم تكن في يوم ما فرنسية خالصة ـ مائة في المائة كما يقال ـ بل كان استمرار العربية يفرض نفسه في كل مرفق من مرافق الحياة الادارية بالقدر الذي تسمح به الظروف ، ولست هنا لاحاول استقصاء مظاهر هذا الاستمرار الاداري في مختلف صوره واشكاله ، وانما اكتفي بالاشارة الى ان «الجريدة الرسمية» التي اصدرتها الحماية الفرنسية قد نصت على ان هذه الجريدة ستصدر بالعربية والفرنسية معا ، وان كان هذا لم يطبق بالفعل الا ضمن حدود ضيقة جدا ، كما ان معاملات الناس وبيوعاتهم وعقودهم ومواثيقهم وهباتهم فيما بينهم وسائر متعلقات « احوالهم الشخصية » المختلفة ظلت محاكم القضاة الشرعية تحررها باللغة العربية ، كما ان « خطب العرش » في كل سنة كانت العامة والخاصة من الناس تستمع اليها باللغة العربية ، و« خطب

الجمعة » والاعياد وسائر المناسبات الدينية كـــان لسانها عربيا مبينا .

والتعليم كانت له مراكز هامة تستمد اشعاعاتها من جامعة «القرويين» فى كل من مراكش وتطوان وموريطانيا وجبال الاطلس ، ثم اتخذت حركة الاستمرار العربية هذه شكلا آخر فى مؤسسات التعليم الخاص او التعليم الاسلامي الحر التى انشئت على غرار مؤسسة « مدارس محمد الخامس » فى الرباط وفى غيرها من المدن والقرى المغربية .

ان هذا الشكل من الاستمرار فى الادارة وفى التعليم لم تكن تشجعه ادارة الحماية الاجنبية بل كانت تحاربه بكل ما اوتيت من قوى وتضع فى سبيله العراقيل المختلفة لتحاول ان تقطع هذا الاستمرار الذي لم يكن من الممكن ان ينقطع بحال من الاحوال ، ان العربية تدافع عن نفسها فى وطنها ، ودفاعها وان كان فى صور سلبية فهو دفاع المستميت الذي يأبى الا ان يستخرج من الضعف القوة ومن عوامل الفناء بواعث النهضة والبقاء ، ولقد سعت الحماية جهدها لتقضي على العربية فى « مهدها » فافلحت الى حد ولكنها لم تستطع ان تؤدي بخط الاستمرار التاريخي للعربية الى الانقطاع .

ولقد قاومت العربية بجميع الوسائل الايجابية او السلبية الممكنة ، واذكر منها هـا هنا للبيان والتوضيح فقط ان بعض الآباء ــ حبا للعربية وخدمة لها ودفاعا عنها ــ كانوا يعلمون ابناءهم القرءان الكريم . ويتعهدونهم فى حفظه وتجويده واتقانه داخل بيوتهم الخاصة ، فهل كان الاستعمار يستطيع ان يمنع هؤلاء الآباء من مثل هذا العمل داخل البيوت وهو لا يعلم به ؟ ان هذا ما يفسر لنا كيف ان طائفة هامة من المغاربة الذين درسوا فى المعاهد الاجنبية كانت تستطيع ان تقرا العربية « اللغة الام » وتفهمها وتعبر فيها تعبيرا متكسرا بعض الشيء رغم انها لم تتعلم هذه اللغة فى المدارس ، بل ان من هؤلاء من قد استقامت له الكتابة السليمة فيها ، والارتجال القوي المبين ، وما ذلك كله الا مظهرا من مظاهر دفاع العربية عن كيانها ووجودها فى هذا الوطن المغربي الحبيب .

أما اليوم فاننا نرى الابواب مفتوحة امام العربية واستمرارها فى جميع الميادين العامة والخاصة منها على السواء ، اذ ان مختلف الادارات المغربية ــ الا ما قل منها ــ تقبل المراسلات العربية وترد عليهابالعربية، وتعتمد بعض الوثائق بها دونما حاجة الى ترجمة او تعجيم .

والتعليم قد زكت ساعات العربية فيه بالنسبة الى ايام الحماية .

والاهم من هذا كله انه قامت فى البلاد كلها مظاهرات عامة وخاصة من قبل الهيئات الشعبية والرسمية منادية بالعربية والتعريب ، وما ذلك الا لتنبه الوعي العربي فى البلاد وسعي العربية الحثيث للدفاع عن نفسها .

ان المستقبل فى هذه البلاد للعربيةولاهل العربية، فما على الذين لا يحسنونها الا ان ياخذوا لانفسهم الحيطة منذ الآن قبل ان يصدمهم الواقع الناهض للغة العرب فى هذه البلاد ، اننا على ابواب انبعاث جديد ، وكل ما ينبغي ان يقال بهذه المناسبة ان التاريخ لم يشهد البتة انقطاعا فى خط استمرار العربية فى هذه البلاد فى اسوا ظروفها ، فكيف يمكن ان يحدث مثل هذا الانقطاع فى وقت تنبهت فيه العربية وجاء أوان عزها ومجدها ، ان العربية التي كافحت عاديات الزمن وفرضت نفسها فى كثير من بقاع العالم يمكن لها اليوم أن تستعيد مكانتها رغم ان الواقع لا يزال يحمل لها بين طياته ضعفا ووهنا من آثار عصور التخلف السحيقة التي مرت بها فى هذا القطر الحبيب وفى غيره من اقطار العروبة .

من هذا العرض الوجيز لبعض مظاهر استمرار العربية بالمغرب يمكننا استكناه سر هذا الاستمرار الذي يبرز اول ما يبرز فى كون المغرب وطنا عربيا ومعقلا من معاقل العروبة الحصين ، فكان طبيعيا أن تلتجيء اليه اللغة فى ايام محنتها زمان عصور الانحطاط واستيلاء العناصر الغريبة على مقدرات بلادنا ولغتنا ، فاعتصمت العربية وامتنعت على الزمن بعزلة المغرب لتحافظ على نقاوة تراكيبها وصفاء اسلوبها وعربية مفرداتها ، والمغرب اليوم يقع على عاتقه دين اعادة هذه اللغة الصافية الى حظيرة الوطن العربي كله نقية الاسلوب خالصة المفردات والتراكيب.

ومن اسرار استمرار العربية بالمغرب قدرة هذه اللغة النادرة على معالجة الافكار الادبية والآراء المعنوية بأسلوب حقيقي او مجازي ، بطريقة حسية او معنوية ، والمتتبعون لتطور العربية منذ نشوئها متفقون جميعا على

ان الفكر العربي الاول ، الذي تمثله قصائد الجاهليين والمعلقات منها على وجه الخصوص ، فكر مادي سطحي يتتبع المحسوس ويفرق في هذا التتبع ، ويخترع لكل حالة محسوسة اسما جديدا حتى لتجد عندهم للمسمى الواحد اسماء متعددة .. ولما جاء الاسلام وقامت دعوته الروحية على الاخلاق والمثل ونبذ الاغراق في المادة تلقحت العربية بهذا اللقاح الحضاري الذكي واثبتت قدرتها على سعة المعاني الجديدة ، عن طريق الاستعارة والمجاز والاشتقاق والوضع .

ان العربية مادية التفكير والتعبير في الاصل وليس بصعب ولا شاق على العربي اليوم ان يشتق او يضع لاسماء المخترعات الحديثة في مختلف العلوم والفنون اسماء مادية جديدة لانذلك من طبيعة تفكيره، اما الفاظ الحضارة فالعربية من اغنى لغات العالم بها ، وما جد منها في العصر الحديث يمكن أن تسعه كما وسعت الفاظ الحضارة الاسلامية في القديم .

ان العربية بالمغرب لا تعجزها المصطلحات العلمية المادية ان تجد لمسمياتها اسماء ادالة عليها ، ذلك ان احفاد الذين كانوا يضعون لكل حالة من حالات السيف او الرمح اسما خاصا قادرون على وضع اسماء مناسبة للمسميات العلمية الحديثة ، ولقد حفظت لنا معاجم العربية كنوزا غنية من هذا القبيل ، وبذلك ادت العربية ما عليها وبقي على أهل العربية ان يؤدوا واجب العربية الذي في اعناقهم .

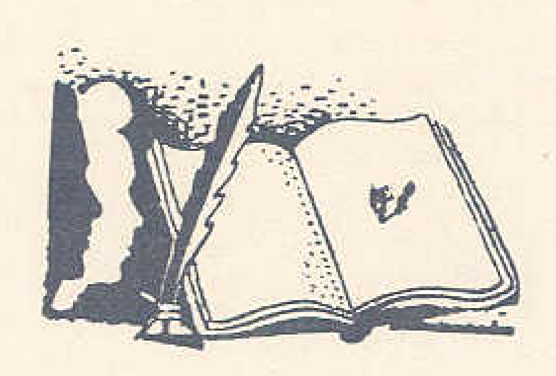
ومن اسرار استمرار العربية بالمغرب ايضا ما لهذه اللغة من ماضي مجيد في ارضنا ، فلقد مضى على العربية في بلادنا عهد كانت فيه مدارس للنحو ومذاهب في العربية ، كما كان للمشارقة ، فقد كان يشار الى المذهب المغربي او الاندلسي في النحو كما كان يشار الى مذاهب البصرة والكوفة فيه والى مذاهب اهل الشام والعراق ومصر ، ولقد كانت لنا الى جانب هذا كله في علوم اللغة وفقهها او « آلتها » ـ كما يقولون ـ مؤلفات وآثار .

ان العربية اليوم تقف على اقدامها سليمة بعد الكفاح الطويل المستميت الذي خاضته خلال العصور ، وما على اهل المغرب الا ان ياخذوا بيدها لتثبت لهم طواعيتها ومساعدتها لهم في سائر الميادين .

لقد قابلت العربية « التحدي » بصبر وثبات ، وقاومت عوامل الضعف والفناء ، وهي لا زالت على استعداد لمقاومة كل تحد بتحد مثله او اكبر منه ، لتثبت عبقريتها وخلودها واستمرارهاعلى مر العصور .

وصدق الله العظيم « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » ولغة « الذكر » هي العربية لغة المغرب ولغة العرب اجمعين .

سلا ـ عبد الله الكامل الكتاني





ان التجارب التي عشناها قبل الاستقلال وبعد الاستقلال ، والتي مرت بها شعوب اخرى مثلنا علمتنا ان كبريات المشاكل هي تلك التي تنبثق عن ممارسة الانسان للمسؤولية اذ غالبا ما يتلاشى حماس المرء لحريته في غمرة القضايا التي تخلقها الحرية نفسها .

والحقيقة التي نجابهها اليوم هي اننا متخلفون في ميادين كثيرة ولكن مناقشة هذا التخلف على الصعيد السياسي وحده يخلق فينا نوعا من العمي « اللوني » نتيجة لسيادة المنطق السياسي ، وصخب المحترفين السياسيين .

ان مناقشة التخلف القومي او الوطني لايمكن ان تستوعب جميع مظاهر نقصنا وتنفذ الى قلب الحقيقة الا من خلال تحليل الفكر العربي المعاصر لانه وحده يعكس واقع المجتمع العربي وعلاقاته المختلفة وقضاياه الجوهرية ، وبالتالي مناقشة الثقافة العربية لانها تعكس حياة الفكر وما يعانيه من ازمات ، وما يتخذه من مواقف ازاء الواقع . وقصدنا من ذلك ان نضع المشكلة اللغوية التي نأتمر لها اليوم في مكانها من الكيان الثقافي والجهاز الحضاري فننظر الى هذه اللغة على اساس اتصالها بنا كامة ، واتصالها بالحياة في نطاق الحضارة الانسانية ، ومن معطيات هذه النظرة انها تجنبنا الوقوع في اتهام اللغة احيانا بما يجب ان نتهم به ثقافتنا او حضارتنا . كما انها تجنبنا الوقوع في الارتجال .

ان اللغة هي الاداة الاولى لنقل الثقافة ، ولذلك تعتبر أعظم مؤسسة اجتماعية بالنسبة لكل امة ، اذ هي مستودع تراثها وعماد حضارتها . يقول احد الكتاب « ان الحيوان لعجزه عن اختراع اللغة لايختزن تفكيره ، ولا ينتفع لهذا السبب بتفكير آبائه واجداده ، ولكن اللغة عندنا جعلت الزمن تاريخيا والفضاء جغرافيا . ولولا الكلمات التي جعلت الزمن تاريخيا والفضاء جغرافيا لما استطعنا ان نفكر او نختزن اختباراتنا فضلا عن اختبار معاصرينا واسلافنا وليس بعيدا ان يكون التفكير كلمات غير منطوقة ، واعتقادي اننا ننسى اختباراتنا في السنتين الاوليين من اعمارنا لاننا لم نربط هذه الاختبارات بكلمات تجعل التفكير فيها ممكنا لانها لم تنقش في الذاكرة بكلمات » .

ان كل حالة ثقافية اذن لابد ان تكون حالة من الخصب العقلي والنفسي يقتضي التعبير عنه بدقة وامانة أن تكون هناك وسيلة تضمن الاتصال بين الافراد والجماعات والاجيال ، وهذه الوسيلة هي اللغة فهي ضرورة اجتماعية وفردية معا ونظرا لقيام اللغة بأعباء الفكر والوجدان فانها تعتبر جزءا منهما ، اي جزءا مهما من الكيان الثقافي لكل امة . لانها تجسد حضارتها وتسجل تطورها .

فدراسة اللغة بمعزل عن واقع الثقافة اذا كان يفيد في بعض فروع « الفيلولوجيا » او فقه اللغة فانه ليس كذلك دائما لانه يجرد اللغة من واقعها الاجتماعي والحضاري وما يربطهما بهما من مقومات حيوية .

لذلك أريد عرض واقعنا الثقافي قبل الدخول في مشكلة أزمة اللغة العربية لنعرف هل هناك من نقص او خلل ثقافيين ينعكسان على لغتنا بآثارهما .

اننا مختلفون جدا فى مفهوم الثقافة لاسباب كثيرة ولذلك لا آمن على حديثي من سوء الفهم عندما اتحدث عن الحياة الثقافية . فالثقافة من حيث المدلول اللغوي امر بسيط ولكنها كمفهوم حضاري مفهوم معقد له مساس بالفلسفة والحياة الاقتصادية والاجتماعية التي يعيش الفرد فى نطاقها .

« الثقافة معرفة منظمة تكسب صاحبها علاقة واعية بالكون والحياة وسلوك منسجم مع معطيات الفكر يتحول الى خلق ثابت . وتجهيز حضاري قائم على تلك المعرفة ، وهذا السلوك يحقق الانسان المثقف به مختلف حاجاته المادية والروحية . »

هذا المفهوم غير موجود عندنا . وانما الذي نروجه من مفاهيم الثقافة فى أوساطنا أنها معرفة واطلاع أو تعلم ينتهي عادة ببعض الشهادات . ولما كان هذا المفهوم لا يختلف فى شيء عن معنى « دارجي » يروجه العامة والخاصة فان الثقافة ليست حافزا فى حياتنا ، وليست ذات طابع عميق يكتسب المرء من خلالها القيم الاخلاقية والاجتماعية اللازمة .

يضاف الى ذلك ان واقعنا ليس قائما على شروط ثقافية ، اي على معطيات العلم والنظام والديمقراطية بقدر ما يقوم على عناصر من الوصولية والانتهازية والفوضى والمنافسة والصراع المادي الذي تتلاشى فيه جميع قيم الانسان بما فيها حريته وكرامته .

ولكن تخلفنا هذا لا يتراءى لنا كفراغ ثقافي وانعدام معطيات ثقافية . لاننا نملك عوضا عنهما تكديسا فى المعارف والافكار من كل صنف ولون . وتكديسا فى اجهزة الحضارة من كل دولة وامة ، واتجاهات سياسية وعقلية من كل جهات الدنيا الاربع، يجعل منا مستهلكين لا منتخبين ، نجتر ولا نهضم ، نردد ولا نبتكر او نحكم . وهذا هو سر التنافر والفوضى بين مختلف مظاهر حياتنا ؛ ان فى الافكار او فى الاشياء .

واننا متخلفون ثقافيا وحضاريا اي متخلفون فى فهم الاشياء على حقيقتها وفى امتلاك افكار سليمة تقودنا الى النظام والتنسيق والابتكار والايجابية .

ان قادتنا وساستنا عندما يضعون مشكلة التخلف اذن على الصعيد السياسي أو الاقتصادي انما يتجاهلون الاسباب الجوهرية لهذا التخلف ، ومن رواسب هذا المنطق ان يعتقد البعض اننا لمجرد ضعف فى القوى العسكرية أو المادية نقف فى مؤخرة الدول الناهضة .

صحيح اننا متخلفون فى شتى الميادين ، السياسي منها والاقتصادي ، ولكن ذلك لا يعكس سوى تخلفنا فى ايجاد تصميم وتخطيط يحول طاقتنا البشرية الى فعل ، الى ابتكار الى تجهيز الى تعبئة الى فاعلية وبالتالي لا يعكس هذا التخلف سوى انعدام افكار سليمة قادرة على ايجاد القوة والتطور والاندفاع فى حياتنا .

ان هذه الافكار السليمة هذا المنطق الجذري هو الذي أوحى للصين ان تقضي على الذباب مثلا خلال أسبوع وفق تصميم وتخطيط ، وعدمها هو الذي يجعلنا نعالج القضية فرادى داخل منازلنا ننشه ونطرده فى منتهى اللامبالاة .

ان ازمتنا اذن تتلخص فى كوننا لا نتبنى المفهوم السائد للثقافة فى مضمونه الحضاري ، اي اننا نعيش فى فوضى فكرية تنعكس على واقعنا فى مظاهر واضحة للعيان ؛ تردد فى مجابهة المشاكل ، سلبية فى الافكار ، ارتجال فى الحلول ، تعفن فى الادارة ، تكدس فى الاجهزة، تناقض بين الواقع والنظريات .

وواضح ان اللغة هي ايضا لا تنجو من آثار هذا التخلف الثقافي بل انها تعاني رواسب الازمة بوجه عام ، لانها اول مؤسسة وطنية تعكس هذه الفوضى والبلبلة فى كل مجتمع من المجتمعات .

وقد قلت سلفا واؤكد الآن ان اللغة ليست كما كنا نعتقد قديما وسيلة للتعبير عن الفكر ، لان نتائج البحث النفساني (السيكلوجي) اظهرت الا واسطة او غاية فى اللغة ، لان اللغة هي وجدان الانسان ولهذا سمي الوجدان وجدانا ، لان الانسان يجد نفسه فيه . فهو خط بين نقطتين ، واجد وموجود . ولهذا كانت الكلمة على صيغة المثنى فى العربية .

والوجدان وعي ، والوعي مدركات تختزنها اللغة . وسرعان ما تأخذ اللغة هوية المدركات فتصبح هي نفسها . فاذا امعنا النظر فى هذه المقدمات وصلنا

الى النتيجة الحتمية : ان الانسان يساوي التعبير عن نفسه . هذه التسوية ليست جديدة بل هي كامنة فى القول المنزل « خلق الانسان علمه البيان » وانها لحقيقة عظيمة تساوي فى بداهتها ان « الشمس والقمر بحسبان » .

علينا منذ الآن وقد فرغنا من هذه المقدمة الطويلة ان نواجه ازمة اللغة من خلال الازمة العامة . ازمة الثقافة وازمة الحضارة . وان ننفذ الى صميم الموضوع على وضح من المنطق الشمولي الذي اتخذناه منطلقا لنا .

ما ازمتنا اللغوية ؟ ولماذا كانت هناك ازمة لغوية ؟ وباي مظهر تتزيى هذه الازمة ؟

اما عن الازمة اللغوية . فهي القصور عن التعبير فى ميادين علمية كثيرة . وتقهقر اللغة العربية امام زحف اللغات الحية فى الوطن العربي . وسيادة هذه اللغات الحية احيانا فى بعض مرافقنا الحضارية ، وبعض الصعوبات الكامنة فى النحو والكتابة والالفاظ العامة . ونزاع الفصحى مع العامية .

يقول الشيخ ابراهيم اليازجي : « ليت شعري ما يصنع احدنا لو دخل المخابر الطبيعية والصناعية ورأى ما هناك من المسميات العضوية وغير العضوية من انواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن ، وعاين ما هناك من الآلات والاجزاء واراد التعبير عن شيء من هذه المذكورات فما هو فاعل ؟ هل يغنيه فى مثل هذا الموقف ما عنده من ثمانين ومئتي اسم للطير ، وخمسمائة اسم للاسد، والف للسيف ، ومثلها للبعير ؟ اتلك هي اللغة التي وصفها الواصفون بانها اغزر الالسنة واوسعها تعبيرا واطوعها للمعاني تصويرا » الى أن يقول : « يعود الكاتب أمام تلك الاشياء كالابكم ، يرى الامور ويميزها ولا يستطيع ان يعبر عنها الا بالاشارة ولا يصفها الا بالايماء » وهذا القول صادر من احد ائمة اللغة فى العصر الحديث . ولا يمكن الاستخفاف به أو دحضه .

ويرجع هذا القصور والفقر الى سببين مهمين :

1) يعود السبب الاول الى اللغة نفسها . وهو كون العربية قائمة فى صياغتها للالفاظ على عدد محدود من الموازين الاشتقاقية ورغم ما فى هذه الصيغ من مزايا وابعاد مختلفة فانها لاتستوعب المعاني المزدوجة تلك التي تجدها فى الالفاظ المركبة فى اللغات الافرنجية.

وكون اللغة العربية لا تملك صيغا تؤدي معنى السوابق واللواحق مثلما يوجد فى اللغات الحية ، هذه السوابق واللواحق التي يتجاوز عددها الستين فى اللغات الاوربية يقول « الخوري مارون غصن » فلو فرضنا انهم صاغوا بكل اداة نحوا من ثلاثمائة كلمة لحصل عندهم ثماني عشرة الف كلمة وهذا غير موجود فى اللغة العربية .

2) ويعود السبب الثاني الى تاريخ العرب ، وتاريخ الحضارة العربية ، فلقد تخلف اللغة العربية عن مواكبة التطور العلمي والحضاري بتخلف اهلها لعدة قرون اي منذ زحف التتار على حضارة الشرق العربي وكادوا يقضون على معالمها ، وانتقل الحكم الى يد المغول فالى يد العثمانيين . وانعزل المجتمع العربي عن العالم راسفا فى قيود الاستغلال ، وعانى الوانا من البؤس والظلم والانحطاط استأصلت منه كل بذور النهضة والنمو والازدهار .

وانعكس هذا الواقع الجهم الجامد على اللغة نفسها فسرى اليها التأخر والجمود وغدت اللغة التركية هي لغة السيادة بينما ظلت اللغة العربية قاصرة على بعض الميادين الادبية الخالصة واستمر عهد الظلام الى العصر الحديث حيث جاء الاستعمار الغربي فكان امتدادا لعصر الظلام .

تلك هي اسباب ازمة اللغة العربية ، بعضها من ذاتها وبعضها من ظروف خارجة عن نطاقها . اما المظهر الذي تتزيى به هذه الازمة فهو الضعف والقصور هذا فى اللغة . اما فى نفوس ابنائها فهي الشك فى قيمتها أو الشك فى استمرار صلاحها واهليتها للتعبير عن حضارة حديثة باهرة . ومن المفيد هنا ان اشير الى اننا عند اتصالنا بالغرب عن طريق الاستعمار واحتكاكنا بحضارته ولغته كان اتصالنا اتصال مغلوب بغالبه . وليس المغلوب مولعا بتقليد الغالب فقط كما يقول العلامة ابن خلدون ، وانما هو فوق ذلك غير بهذه الغلبة لانه يؤمن ان سرها كامن فى هذه المظاهر التي يتزيى بها . ومعنى ذلك بالنسبة الينا اننا بتنا نعتقد ان سر تفوق الغرب علينا هو فى هذه المظاهر التي يظهر بها . وهذه المؤسسات التي ينشئها بل فى هذه اللغة التي يتكلمها .

هذه حقيقة نفسية تلابس اذهاننا ، والثانية هي التي يقول عنها مالك بن نبي المفكر الجزائري « ان

مركب النقص الذي يعتري الفرد المسلم عندما يواجه المصاعب التي تحيط بحياته الاجتماعية اليوم يدفعه غالبا الى ان يعزو هذه الصعوبات الى طبيعة المشكلات عوضا عن ان يعزوها اولا الى نفسه من الناحية العقلية فى ادراكه هذه المشكلات ، ومن الناحية الاخلاقية في سلوكها ازاءها .

هذا المركب النفسي وتلك الفرة جعلتنا ننظر الى اللغة هذه النظرة الغريبة التي نجدها عند بعض شبابنا. يضاف اليهما عامل الجهل باللغة . وعامل المصاعب الطبيعية التي لا تخلو العربية منها . مما يشكل بلبلة فكرية خطيرة تجاه لغتنا العربية . يجعل المسؤولين وغير المسؤولين مترددين فى الاقدام على علاجها .

ولنستعرض بعض خصائص المباحث التي تناولت قضية اللغة العربية فى هذا الجيل الاخير أي فى النصف الاول من القرن العشرين حتى ندرك ما هي النتائج التي اسفرت عنها ونوعية المنظرة التي نظر بها الى ازمة اللغة العربية .

من هذه المباحث ما تناول قضية التخلف اللغوي بصفة عامة واقترح لها وسائل العلاج كمباحث سلامة موسى، واسماعيل مظهر ، والخوري مارون غصن والدكتور بشر فارس واحمد حسن الزيات وعبد القادر المغربي ومحمود تيمور وعبد العزيز الاهواني ومنها ما عالج قضايا تيسير اللغة العربية نحوا او كتابة أو طباعة كمباحث الاب انستاس الكرملي واحمد الاخضر والدكتور انيس فريحة وابي خلدون ساطع الحصري والدكتور طه حسين . ومنها ما عالج قضية الازدواج اللغوي أي مشكلة العامية والفصحى كمباحث ابراهيم المازني ، والعقاد ، ومحمد رضا الشبيبي . أن النفع الذي حققته هذه المباحث لا ينكر . غير اننا نسجل عليها الملاحظات التالية :

1) ان الذين اعتبروا اللغة العربية غير قادرة على مماشاة التقدم العصري ظنوا خطا ان عجزها يرجع الى خصائصها الذاتية وانه بمجرد تسهيل قواعدها ووضع المصطلحات العلمية او تعريبها يمكنها من التقدم . هؤلاء وقعوا فى خطا النظرة التجزيئية للظاهرة اللغوية ، لقد عزلوا اللغة عن واقع المريض ، ونسبوا اليها كل اسباب المرض . وانتظروا لها العلاج بمجرد تنفيذ وصفة الطبيب .

ووقعوا فى حبال مركب النقص الذي ينسب الصعوبة الى المشكلة لا الى طبيعة فهمنا للمشكل وموقفنا منه .

واما الذين قارنوا بين لغتنا الفصحى واللغة اللاتينية ، وتوقعوا للعربية مصير اللغة اللاتينية من سيادة اللهجات العامية عليها ، وصيرورة هذه العاميات لغات حية بفضل الرواج والاستعمال واليسر الذي عليه ، فهؤلاء وقعوا فى خطأ التعقيم البعيد الذي يلغي الفروق الفردية بين اللغات والشروط الحضارية التي تنمو فيها كل لغة بالذات .

والذين تحدثوا عن مصاعب العربية ومشاكلها الذاتية اي من حيث طباعتها واملاؤها ونحوها المعقد المفلسف لم يخل حديثهم أو حديث بعضهم من غلو وتهويل ، فلكل لغة قواعدها ونحوها وصعوباتها التي لا تقبل التغيير ، على أن ذلك لا ينفي وجوب تيسير العربية بتصنيف نحوها من جديد وفق نظرة فلسفية أو علمية جديدة ، وتوحيد شكل الحرف العربي جهد الامكان رغم اختلاف موقعه من بنية الكلمة ، والغاء بعض القواعد اساسا مما لا ضرر معه فى الالغاء ولا فضل معه فى البقاء من الناحية الجوهرية .

يقول سلامة موسى :

ليست اللغة سوى وسيلة للفهم والدرس ، فاذا كانت تحتاج الى السنوات الطويلة لدراستها فان هذه السنوات محسوبة علينا مقتطعة من الوقت الذي يمكن ان نرصده لدراسة الجغرافية والتاريخ والجيولوجيا والفيزياء والطبيعيات مثلا . وذلك المسكين الذي يقضي عمره فى دراسة اللغة دون غيرها انما هو بمثابة ذلك الذي يكد طول عمره لشراء آلة للنسيج حتى اذا اشتراها لم ينسج شيئا . لان اللغة آلة ، ولا يمكن أن نفرح باقتناء الآلة ما لم نستخدمها .

يتبع

محمد عبد المالك الكتاني



تمهيـــــــد :

لاريب في ان التراث العربي قد غني بالمؤلفات الهامة المتنوعة ذات الروح العاكسة للشرق الملتقى بالغرب منذ حملة نابليون على مصر ان لم نقل منذ الحملة الصليبية الاولـى ، وقـد جـرت غـزاوة هــذه المؤلفــات انسان عصر النهضة اليها ، وهذا الميل نحو التاليــف المعاصر كثيــرا ما وصم العقــول بالنقص في معرفــة حقيقة الحضارة العربية وجلالها ، لانها صدت بينيهــا عن تمعن مظان هذه الحضارة والتماسها من ينابيعهــا الاولـــى .

لكن الانجراف خلف المؤلفات الحديثة ليس وحده المسؤول عن قلة الالتفات الى كتبنا العربية الاولى ، بل ان تاليفها اللامنهجي وتداخـل مواضعهــا وغزارتهــا تجعل القاريء مضطرب الذهن مشتته لانه لا يخلــص الى التزود من بغيته الا بعد معاناة وقراءات مستطردة تطلعه على اشياء واشياء قد تروقه ولكنها لاتجيب على سؤاله ولا موضوعه الذي يود البحث فيــه .

وسنعرض في هذا البحث المتواضع الى الجــزء الاول من كتاب البيان والتبيين للجاحـظ محاوليـن تسديد النظر في موضوعه واسلوبه ، ومحاولين تحديد خطة للاستفادة والانتفاع ، لكننا قبل اجلاء هذه الخطة سنعرض في ايجاز لهذا المصدر الهام مـن مصادر ادب العرب ونبسطه كما وضعه مؤلفه الفذ ابو عمرو عثمان الجــاحــظ .

البيــان والتبييـن ج 1

عـــرض الكتـــاب :

يبدأ الكتاب بالدعاء للمهدى اليه ــ وهو احمــد بن ابي داود الوزير ــ فيعود به من الحصر والعي الذي ذمته العرب ، ويورد لتثبيت رأيه طائفة من الشواهــد النثرية والشعريــة والقــرآن ، ثم يستطرد فيذكــر « واصل بن عطاء » الالثغ الذي تحايل على حرف الراء فاسقطه من جميع احاديثه وخطبه لانه كان لايجيــد نطقه ، فكان اذا اراد كلمة البر قال القمح ثم يستطرد من الحديث عن كلمتي القمـح والبر الى الكـلام عـن المفردات التي غلبت على سكان المدينة ، ولكنه ما يلبث ان يعود الى واصل وسبب تسميته بالغزال

ثم يخرج الى القول المفصل عن اللثغة وانواعهــا مثل السين المنطوقة طاء واللام المنطوقة ياء ، ويذكــر بعض من كانوا مصابين بهذه العاهة كما يورد طائفــة من الشعر في ذم الخطباء المصابين بها ومدح الخطبــاء الفصحــاء مثـل قس الايــادي والبعيث المجاشعـي والطرماح والكميت ، وكانوا خطبــاء حكماء شعــراء ، وبعد ان يعود الى آفات اللســان يقفز دون تمهيد الى الكلام عن تجانس الالفاظ وتوافقها ثم يرجع الكرة الى آفات اللســان ذاكرا بعض من اشتهروا بها مثل زيــاد بن الاعجم وسحيم وعبيد الله ابن زياد .

بـــاب البيـــان :

بعد ان يعرف الجاحظ معنى البيان عند العرب والعجم ويحدد معناه يعتذر عن عدم ايراد هذا البـاب في اول الكلام ، ثم ينطلق الى الحديث عن دلالات المعاني

وهي خمسة : اللفظ والاشارة والايماءة والعقد (أي الحساب) والخط ، ويذكر شواهد لكل دلالة ، ومن هذا الحديث يقفز الى معنى البلاغة عند العرب والفرس والهند والروم . وكعادة ابي عمرو فى الاستطراد يذكر أسماء البلغاء ثم تعريفاتهم واستحسانهم لاوصاف معينة فى البليغ كالجهورة والتشادق وترصيع الكلام بالآيات والابيات الشعرية ولكن الجاحظ يطفر بغتة الى بقايا ثمود ، ثم يفرد للصمت وفوائده صفحات من كتابه ، ولكنه يتركه الى الكتابة عن النساك ، والزهاد وعلماء النسب ، وخلال حديثه عن البلاغة وما يتصل بها كان يجنح الفينة بعد الفينة لذكر الاستشهاد أي للخروج عن الموضوع بذكر الوان الطعام مثلا .

ومن هذا المزيج العجيب فى الموضوعات وتداخلها ينتقل الجاحظ الى الالقاب وغلبة بعضها على الاسماء الحقيقية لاصحابها ، ثم يتحمس فى الرد على الشعوبية التي عابت على العرب اتخاذهم للعصي والقناة اثناء الخطبة ، ثم يختم كتابه بما قيل عن فصحاء العرب وحزمهم وشدتهم مثل زياد بن ابيه والحجاج الثقفي .

محاولة منهجية لحصر مواضع الكتاب :

نستطيع من هذا العرض الموجز للجزء الاول من البيان والتبيين الذي تنيف صفحاته على 420 ان نتبين الصعوبات التي تعتري الباحث فى تصنيفه فهو اشتات لابواب مضطربة متداخلة ؛ وسنحاول حصرها تحت ثلاثة عناوين رئيسية هي :

1) الكلام البليغ . 2) البلغاء .
3) الاستطرادات وهي نوعان :

ا) ـ استطرادات تتصل بالموضوع العام .
ب) ـ استطرادات لا تتصل بالموضوع العام .

ملخص لهذه الاقسام

1) الكلام البليغ :

قيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال تصحيح الاقسام واختيار الكلام . وقيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل والوصل . وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة (*) . ويقول الامام ابراهيم بن محمد : « يكفي من حظ البلاغة الا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء افهام السامع (*) » ويقول الجاحظ معلقا على قول الامام ابراهيم : اما انا فاستحسن هذا القول جدا .

وقد اتفقت اكثر اقوال البلغاء بان البلاغة الايجاز ، وان اختلفوا فى تحديد مفهوم هذا الايجاز فقد سأل معاوية صحار بن عياش العبدي : ما الايجاز ؟ فأجاب ان تجيب فلا تبطيء وتقول فلا تخطيء ، وقيل للمفضل الضبي : ما الايجاز ؟ فاجاب : هو حذف الفضول وتقريب البعيد ، وقد مدح العرب الكلام الجزل الصافي الخالي من التكلف . وعن الجاحظ « ان الاستعانة بالحوشي من الالفاظ عجز وتقصير » وكان العرب يودون ان تتوافق الالفاظ معانيها فتحمل او تسف فى المحل المناسب لكل منهما ، يقول الجاحظ : ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الاعراب فاياك وان تحكيها الا مع اعرابها او مخارج الفاظها فانك ان غيرتها واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام فاياك وان تستعمل فيها الاعراب او ان تتخير فيها لفظا حسنا فان ذلك يفسد الامتاع (*) » .

وارتأى العرب ان يعتني البليغ بالاسلوب فى غير صنعة او تكلف فانه « ليس للبليغ ان يهذب اسلوبه وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لاينطق بلب اللب . . فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه الا بانه يحدد لهم افهاما مرارا وتكرارا لان الناس كلهم تعودوا المبسوط من الكلام وصارت افهامهم لاتزيد على عادتهم » وعابوا السجع فى الكلام لانه مدعاة للافتعال « ولان كهان العرب الذين كان اكثر اهل الجاهلية يتحاكمون اليهم . . كانوا يتحاكمون ويتكهنون بالاسجاع (*) » واستحسنوا ان يتضمن الكلام البليغ استشهادات من المنظوم والمنثور ان كان قرآنا او حديثا ، وعابوا فيه وحشية اللفظ وغرابة المعنى .

---

*) البيان والتبيين ص 111 . *) نفس المصدر ص 120 . *) ايضا ص 172 .

2) **البلغـــاء :**

مدح العرب في البليغ ذلاقة اللسان وعابوا عليه اللكنة واللثغة والتقصير ، والحصر والعي .. كما اشترطوا فيه موازنة اللفظ بالمعنى « فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ويقسم اقدار المقامات واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات (*) » واستحبوا فيه ان يكون جهير الصوت ، متشادقا « لذلك مدحوا سعة الفم وذموا صغره (*) » قال عمرو بن سعيد :

تشادق حتى مال بالقول شدقه
وكل خطيب لا ابالك اشدق (*)

كما ذموا في البليغ الاطناب دون مبرر ، والغوص في غرابة المعاني والصور ، والنزوع الى الوحشي من الكلمات بغية التستر من الوصم بالقصور والعجز ، ومدحوا فيه الالمام بالموضوع ووضع الكلمات المناسبة لكل حال ، فقد تخير علماء الكلام مثلا الالفاظ الملائمة للمعاني المقصودة « واشتقوا لها من كلام العرب اسماء، واصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع (*)» . وحبذوا في الخطيب البليغ حين يخطب ان يعتمد على القوس او القضيب والتلويح به اثناء الخطبة اندماجا منه في الخطبة ومغالاة في الاقناع .

3) **الاستطـــرادات :**

ا ـ استطرادات في الموضوع : الاستطراد سمة من سماء اسلوب الجاحظ (وسنعرض لذلك فيما بعد) لذلك نجده يتحدث في مواضع كثيرة عن واصل بن عطاء لآفات لسانه من جهة ولقيمته كمفكر وخطيب ، ونجده في جزء آخر يسهب في ذكر الشواهد عن حسن التخلص من الخصوم بحسن التفكير وجيد القول لانه يعطي صورة للكلام الموجز المقنع ...

ب ـ استطرادات زائدة : وهي شوائب لا تخدم الموضوع مثل حديثه عن بقايا ثمود ، وعن الحمير ، واصناف المأكولات والالقاب ... الخ

ـ يتبـــع ـ

القنيطرة : ابراهيم السولامي

***
**) البيان والتبيين ص : 168و307و166و146و147و166 .



كيف تكوّن النقد والبلاغة

للاستاذ : عبد القادر زمامة

كثيرا ما نجد فى تاريخ التفكير البشري ان مسميات العلوم والفنون وسائر ضروب المعرفة تسبق ـ اسماءها ـ بحقبة من الزمن قد تطول وقد تقصر . .
فالنقد والبلاغة كانا موجودين قبل ان تسميهما بهذين الاسمين ، وثروة الادب العربي فى العصر الذي يسمى بالعصر الجاهلي كانت لا تخلو من نقدات عابرة ، يرسلها الجاهليون فى محفل او موسم يرفعون بها من شان شاعر او يضعون من اجل قصيدة او قطعة او بيت ... فهو اشعر اهل المدر .. او اشعر اهل الوبر .. بل هو اشعر من نطق بالضاد . احيانا . .

وقصة التحكيم فى عكاظ بين الشعراء واحكام هؤلاء (المحكمين) تركت لنا فى : طبقات الشعراء لابن سلام ، والكامل للمبرد ، والامالي ، والاغاني . نقدا ادبيا لكثير من القصائد والمقطعات والابيات .. فيه الغث والسمين .. والرخيص والثمين .. وهو فى جملته نقد فطري عابر .. ينقد المعاني تارة ، واللفظ اخرى .. ويرسل الاحكام جزافا من غير مكيال ولا ميزان .. حتى اننا لنبتسم حينما نجدهم يقولون : (اشعر الجاهليين امرؤ القيس اذا ركب .. وزهير اذا رغب .. والنابغة اذا رهب .. والاعشى اذا طرب)

فى القرن الاول :

واشرقت شمس الاسلام على العرب فكانت معجزته الكبرى فى القرآن الذي نفذ ببلاغته الى اعماق النفوس فآمنت ايمانا فطريا ، وكان الاعجاز عندها قضية وجدانية مسلمة . .

اما الشعر فكان استمرارا للشعر الجاهلي .. خبت ناره فى عهد الفتوح الاولى .. ثم استانف حياته بعد ما ظهرت فيه عدة اتجاهات فيها البدوي الموحش ، والحضري المتانق ، والعفيف المتصون ، والماجن المتهتك . .

وكان النقد فى هذه الحقبة الاولى شبيها بسلفه فى العصر الجاهلي ، يحوم حول الشعراء ولا يتعمق ، ويطفو فوق الانتاج ولا يغوص ، والامثلة عندنا كثيرة لهذا النقد فى معركة جرير والفرزدق والاخطل وما قام حولها ، وفى مجالس خلفاء بني امية فى دمشق حيث كان حديث السمر لا يخلو من انشاد الشعر ونقده والتعليق عليه ، بما يرفع الشاعر لينال الجائزة او بما يضعه ليكون من المحرومين . .

ومن الطريف ان نجد المراة العربية تسهم فى ميدان النقد الادبي بين الشعراء ، فهناك مجالس سكينة بنت الحسين التي كانت تنقد شعراء عصرها ، وعائشة بنت طلحة ، وعزة ، وغيرهن ، وقد كان الشعراء يتهيبون سهام الناقدات كما يتهيبون سهام الناقدين . .

واخبار الاحوص ، والعرجي ، وكثير ، وجميل ، وعمر بن ابي ربيعة مليئة بكلام النقاد ـ رجالا ونساء ـ

وقد احتفظ لنا ابو الفرج الاصبهاني فى الاغاني بكثير من هذا النقد الذي لم يكن فى جوهره الا محاولات تهدف الى تقويم المعوج من لغة الشاعر .. او اصلاح خطا وقع فيه من ناحية المعنى ، او اظهار اقتباس او سرقة شعرية ، والشيء الجديد فى هذا العصر هو انه اتيح للمغنين والمغنيات راي مسموع فى نقد الشعر والشعراء . .

في القـــرن الثانـــي :

حل القرن الثاني وحل معه التدوين في العلـــوم الشرعية والادبية وظهرت طبقة من الرواة واللغويين والنحاة ، واخرى من الشعـراء والكتـاب وتزاحمت مجالس البصـرة ، ومحافل الكوفة ثم بغداد بكثير من الذين ضربوا بسهم في الفنون الادبية من لغـة ونحـو وشعـر ، والى جانبهم آخرون نصـوا انفسهم للنقـد والاختيـــار ..

ولا ننسى ان القرن الثاني كان عصر انقلاب ادبي في النثر والشعر .. وتجديد وتطور في الفكر وقد طويت في اوائله صفحة الدولة الامويـة واتجاهها في الحكم والسياسة .. كما نشرت صفحة الدولـة العباسية بنظامها الجديد الذي مكن كثيرا من العناصر من الاسهام في الحياة الفكرية بالاضافة الى الاسهام في الحيـاة السياسيـة ..

فبعد ترسل عبد الحميد الـذي فتح الطريـق امام ابن المقفع ، نجد هذا الاخير يقول وقد سئل عـن البلاغة فقال محددا لها : « البلاغـة اسـم جامـع لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكـوت ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنهـا ما يكـون شعـرا ، ومنهـا ما يكون سجعـا وخطبـا، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة ما يكون في هذه الابواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة، فاما الخطب بين السماطين وفي اصـلاح ذات البين ، فالاكثار في غير خطل والاطالة في غير املال ، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما ان خير ابيـات الشعـر البيت الـذي اذا سمعت صـدره عـرفـت قـافيتـه ... »

فهذا كلام في النقـد له قيمتـه ، بالاضافـة الى هذا الاسلوب (المستعرب) يعطينا صورة عن اتجاه النقاد في ذلك العصر الانتقالي ، وقد كتب الجاحظ في البيان والتبيين عن فهم الفارسـي ، واليونانـي ، والرومي ، والهندي ، للبلاغة وقد ـ زعم ـ انهـم سئلوا ، ما البلاغة ؟ فاجابوا :

ـ الفارسي : معرفة الفصل والوصل

ـ اليوناني ، تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام

ـ الرومي : حسن الاقتضاب عنـد البداهـة ، والغزارة يوم الاطالـة ..

ـ الهنـدي : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصـة وحسن الاشـارة .

اما فهم العرب للبلاغة فقد ـ شاء ـ الجاحـظ ان يجعله محاورة بين معاوية بن ابي سفيان .. وصحار العبدي الخطيب العربي الشهير الذي كان من شيعة عثمان وحضر صفين مع معاويـة :

معاويـة : ما البلاغـة فيكـم ؟

صحار : الايجــاز ...

معاويـة : ما الايجـــاز ؟

صحار : ان تجيب فلا تبطيء ، وان تقول فـلا تخطـــيء .

وشعراء القرن الثاني وهم كثيرون : ابو نواس ، وبشار ، وابو العتاهية ، وغيرهم لايسلم واحد منهم ـ في عصره ـ من تتبع النقاد الذيـن ينتقـدون لغتـه ، وتعبيره ، ووزنه ، وسرقتـه ، واقتباسه بالاضافة الـى دينه ، وسلوكه ، واخلاقه ، ولكـن هذا النقـد علـى العموم لا يتعدى الجزئيات والشكليات ممـا يجعلنـا نتاكد ان الفروق بين نقاد هذا القرن وسابقيهم ليست جوهرية في الموضوع .. لان الانقلاب العباسي اعطـى ثمارا فجة في القرن الثاني ظهرت في تعدد الاتجاهـات ووفرة الشعراء ، وكثرة الكتاب والنقاد ، ولم تظهـر الثمـار الناضجة الا في القرن الثالث .

في القـــرن الثالث :

كان مفتتح هذا القرن مزدانا بخلافة المامـون في السياسة ، وفي الجاحظ في الكتابة ، واسلوب المعتزلة في الدين والثقافة ، وظهـر ابو تمـام والبحتـري في البداية ، وابن الرومي وابن المعتز في النهايـة .

وقد نضجت سائر العلوم والفنون ومنها النقـد الادبي فارتاى الجاحـظ ان يؤلـف كتابـه (البيـان والتبيين) ليبني النقد الادبي على اساس من الـذوق السليم ، واننا اذ ندرس هذا الكتاب نجد الجاحـــظ يستعمل الفاظا اصطلاحية مثل : المجاز ، والتشبيه ، والازدواج ، والاستعـارة ، والكنايـة ، والاطنـاب ، والايجـاز ، والبديـع ...

ومن الواضح ان الجاحظ لا يستعمل هذه المصطلحات فيما تستعمل فيه عند المتاخرين ، ولكنه يستعملها استعمالا آخر يقرب من استعمال المتاخرين حينا ويبعد احيانا ..

فنظرية الجاحظ في النقد والبلاغة تبني قبل كل شيء على الذوق ، فهو الحكم في جودة الكلام او ضعفه ، ولكن الجاحظ الى جانب هذه النظرية نجده مطلعا على آراء الهنود واليونان والفرس في البلاغة ، ويظهر ذلك من نقله في كتابه عن (صاحب المنطق) وعن غيره من اليونانيين آراء عديدة في المنطق والبيان ، وبذلك يكون الجاحظ وقف عند حده ولم - يفلسف - النقد الادبي ، ولم يتاثر كثيرا بما ترجم في عصره من آراء في البلاغة والبيان .

ونجد في نهاية القرن عبد الله بن المعتز يؤلف كتابا يسميه - البديع - جمع فيه سبعة عشر نوعا من فنون الكلام واساليب التعبير » وواضح انه لا يقصد البديع الاصطلاحي ، وانما يقصد البلاغة والنقد فنجد من انواع البديع عنده التشبيه والاستعارة وهما في الاصطلاح من مباحث علم البيان..

في القرن الرابع :

اطل القرن الرابع والنقد الادبي يرفع راسه بين الفنون الادبية متكاملا ناضجا يحتل بين الكتاب والشعراء والمؤلفين مكانا مرموقا ، فالكل يعلم ان ثمار هذا الفن ظهرت يانعة عند ابن هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) ، وعند الجرجاني في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وعند الآمدي في كتابه (الموازنة بين البحتري وابي تمام)

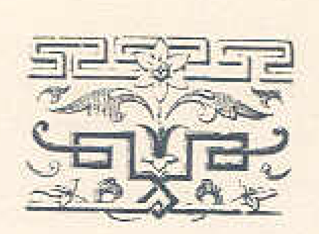
ولكن طريقة هؤلاء كانت تعتمد قبل كل شيء على وزن الانتاج الادبي بالميزان الذي يرتضيه الذوق العربي والتفكير والتعبير ، وكل واحد من هؤلاء المؤلفين النقاد كان يرمي الى هدف واحد وهو ان يكون الشاعر او الكاتب ذا حاسة فنية تجعله يراعي الذوق السليم في تركيب الجمل والوصف والتشبيه والاستعارة وغيرها .

والى جانب هؤلاء ظهرت طريقة اخرى وهي طريقة قدامة بن جعفر المتاثر بالثقافة اليونانية والتفكير اليوناني في البلاغة والنقد .. فقد الف هذا الناقد كتابين هما : (نقد الشعر) و (نقد النثر) والبون شاسع بين هذين الكتابين وبين كتب العسكري والامدي والجرجاني ...

فطريقة قدامة اقرب الى العقل بينما طريقة سابقيه اقرب الى الذوق .. فبينما نجد قدامة يستعمل منطق ارسطو ، نجد سابقيه يستعملون الذوق الفني والميزان الوجداني ..

ومن الانصاف ان نقول ان اصحاب المنطق افسدو الذوق الادبي عند كثير من الشعراء والكتاب فجردوا الشعر من الجمال بينما لامعنى للشعر بدون جمال .. ولعلنا سنتمكن من الحديث عن جوانب من هذا الموضوع في المستقبل بحول الله .

فاس : عبد القادر زمامة





للأستاذ : عباس الجراري

- 2 -

تحدثنا فى العدد السابق عن مفهوم الفولكلور ونشأته وأسباب ازدهاره ومظاهر الاهتمام به فى مختلف البلاد ، وقلنا اننا سنترك الحديث عن الآثار الشعبية المغربية والعناية بها الى بحث خاص . فعسى ان نوفق فى هذا المقال الى تناول هذا الموضوع الواسع الذي لن يلم بجميع جوانبه غير دراسةمستفيضة نرجو ان تتاح لنا او لغيرنا فرصة الخوض فيها بتعمق وتفصيل .

ولعل اول ما يدعو الى التفاؤل فى هذا المضمار ان الحكومة انشأت بوزارة الصناعة التقليدية والفنون الجميلة والسياحة قسما خاصا بالفلكلور يهدف الى البحث عن الآثار الشعبية وتنظيمها ، والى تدريب نخبة من الشبان بقصد تكوين فرقة وطنية للفلكلور تتوفر فيها الكفاءة الفنية والادبية . وبالرغم من ان الفترة القصيرة التي مرت على تأسيس هذا المكتب لم تسمح بظهور ثمار نشاطه ونتاج جهوده، فاننا نسمح لانفسنا بتذكير المسؤولين بأن اشياء كثيرة تنتظر من هذا القسم لاسيما فيما يتعلق بجمع الآثار الشعبية وتنسيقها . وقد كنت اظن ان للوزارة عناية سابقة بهذا الفن خاصة وان الشائع فى وسط الجمهور انها « وزارة الفولكلور » ، ولكن الواقع ان اهتمامها به سطحي الى ابعد الحدود لا يتعدى العناية بحفلات الرقص والفروسية وما اليها . وليس معنى هذا اننا ننكر عليها مثل هذا الاهتمام فنحن نطالب بتشجيعه ومضاعفته ، ولكن الذي ننكر عليها فى شدة وصراحة ان تقصره على هذه المظاهر غير محاولة القيام بأي عمل ايجابي من شأنه ان يجعلها تحصر مختلف الوان الفنون الشعبية وتنظمها فى سجلات وخزائن ومتاحف وتدرسها او تكلف من يدرسها على اساس علمي كتراث يعكس الشخصية المغربية فى اجلى مظاهرها وصورها . والامل كبير فى ان يسد المكتب الجديد هذا الفراغ او بعضه وان يشجع المسؤولون ما قد ينتج الكتاب من دراسات فى الموضوع .

وهنا اود الاشادة بجهود بعض ادبائنا الذين اسهموا فى هذا الميدان بابحاث تستحق كل اعجاب وتقدير . فقد الف الاستاذ عبد الهادي التازي كتيبا عن « اعراس فاس » ، تحدث فيه عن عادات الزواج بالمغرب وخاصة مدينة فاس معتمدا فى جانب كبير مما كتب على وثائق حية لا زلنا نلمسها فى الواقع الذي نعيشه ليس فى فاس فحسب وانما فى اغلب المدن المغربية التي احتفظت عبر الزمن بعادات منها ما هو محلي محض ، ومنها ما ورد عليها من المشرق او الاندلس ولكنه لم يلبث ان انصهر فى التقاليد الوطنية وان ظل محتفظا ببعض المميزات .

وكتب والدنا حفظه الله بطلب من الاذاعة الوطنية سلسلة احاديث بعنوان « رمضان فى عوائده»، تناول فيها بالبحث والتحليل كثيرا من التقاليد الجارية فى شهر الصوم .

وقبل هؤلاء جمع المرحوم احمد بن محمد الصبيحي «أمثال المجاذر» وطبعها مع ترجمة فرنسية قام بها المرحوم ابن شهيدة ، كما الف كتيبا « فى بعض العادات المغربية» تحدث فيه باختصار عن تقاليدالمعلمين والخطباء والائمة والقضاة والتجار والصناع وما اليهم بالاضافة الى العوائد المتصلة بالاسر والافراد كالولائم والمواسم والافراح . واخبرني السيد الوالد

ان الصبيحي كان طلب منه ان يساعده في بحث عن اصول الالفاظ المغربية ، ولكنه لا يدري الآن مصير هذه المحاولة .

وقد علمت هذه الايام ان الاستاذ عبد العزيز ابن عبد الله يدرس نفس الموضوع مركزا بحثه حول لهجة الرباط وناحيته وخاصة قبيلة زعير .

وقريب من هذا ما نشره الاستاذ محمد الفاسي في العدد الاول من مجلة «البينة» حول «اصول الاعلام الجغرافية المغربية» وقد قال انه حقق كثيرا من هذه الاعلام مبينا اشتقاقها واصلها وانه سيضمها الى قاموس جغرافي اشتقاقي يعمل فيه منذ زمن طويل يتناول فيه اللغة البربرية والامثال . كما انه نشر بالعدد الرابع من نفس المجلة « نظرة عن الادب الشعبي » اشار فيها الى الامثال والخرافات والسمر الشعبي ، وقال انه عكف على دراسة هذا الموضوع منذ سنين طويلة وانه اضطر الى نشر ابحاثه باللغة الفرنسية بسبب اعراض جمهور المثقفين عن هذا الميدان . فعسى ان يتسنى للاستاذ الفاسي بعد ان اصبح الحال غير الحال ان يقدم لنا ثمار الجهود التي يبذلها منذ زمن بعيد .

ولا نريد ونحن نشيد باهتمام ادبائنا بالآثار الشعبية ان نغفل عناية المستعربين بها وهي عناية تجدر الاشارة اليها بالرغم عما كان يقصده بعض هؤلاء ممن عرفوا بافكار استعمارية لا تهدف الى غير التشويه والتزييف . فقد كتب ادوار وسترماك «حفلات الزواج بالمغرب » (*) وكتبت الدكتورة ليجي « محاولة في الفولكلور المغربي » (*) وكتب جينودو « فاس من خلال مطبخها » (*) وكتب آدم اندري « البيت والقرية في بعض قبائل الاطلس الصغير » (*) .

وكتب برينو لويز « مدخل للهجة المغربية » (*) وجمع لاوست «حكايات بربرية من المغرب» (*) ونشر اندريه باريس « نماذج للهندسة البربرية » (*) ونشر بيلا « نصوص بربرية بلهجة ايت سغروشن ملوية » (*) ونشر ارسين روكس « نصوص عن الحياة البربرية » (*) والف سيكارد « قاموس فرنسي عربي (مغربي) » (*) ورب ملاحظ يرى جانبا من هذا الاهتمام مركزا حول اللغة فيقول : وما علاقة اللغة بالفولكلور ؟ ويرد على هذه الملاحظة بان اللغة لا تدخل في نطاق هذا الفن فحسب ، وانما تعتبر من صميمه اذ تصور فترة ثقافية وحضارية لدى الجماعة الناطقة بها . فالكلمات التي يستعملها الشعب المصري مثلا ك : انا مالي ، انا ايه ، معليش ، اشمعنى ، تدل لا شك على مرحلة مر بها هذا الشعب كان فيها فاقدا ارادته واستقلال الراي مبتعدا كل البعد عن تحمل المسؤوليات . ويرد على هذه الملاحظة كذلك بانه كان ينظر الى الفولكلور في بداية الامر من خلال اللغة والادب فقد الف يعقوب جريم كتاب « النحو الالماني » و « تاريخ اللغة الالمانية » باعتبار اللغة مظهرا من مظاهر التطور الفكري والحضاري عند الامم والشعوب بل انه على اساس هذه الفكرة درس « التراث القديم للقانون الالماني » بحثا عن لغة العرف وما يتصل بها من حكم وامثال .

ولعله من اللازم بعد ان تحدثنا عن اهتمام الدولة والمثقفين بالفولكلور ان ننظر في هذا الفولكلور ذاته وان نحاول تحديد انواعه وما يندرج فيه من الوان فنية وادبية . وهنا افرق بين ثلاثة انواع ارى ان اقسم اليها مادة الفولكلور وهي :

ـ الادب الشعبي .

ـ الفنون الشعبية

ـ التقاليد والمعتقدات الشعبية .

وسوف لا اتناول في بقية هذا الحديث الا الفنون والتقاليد وساترك الادب الشعبي الى بحث خاص .

اما التقاليد فهي هذه العادات التي تخالط حياتنا افرادا وجماعات وتتحكم في سلوكنا الى حد بعيد .

(*) Edward Westermark : Les cérémonies de mariage du Maroc.
(*) Legey : Essai de folklore marocain 1926.
(*) Guinaudeau : Fès vu par sa cuisine.
(*) Adam André : La maison et le village dans quelques tribus de l'Anti-Atlas. 1951.
(*) Brunot Louis : Introduction à l'arabe marocain. 1950.
(*) E. Laoust : Contes berbères du Maroc, 1949.
(*) André Paris : Documents d'architecture berbère.
(*) Ch. Pellat : Textes berbères dans le parler des Aït- Segrouchen de la Moulouya. 1955.
(*) Roux Arsène : La vie berbère par les textes. 1955.
(*) J. Sicard : Vocabulaire français-arabe (dialecte marocain).

وتشمل تفسير الاحلام وتأويل بعض الظواهر والتصرفات . وهذه التفسيرات والتأويلات ، ويطغى عليها روح التشاؤم والطيرة ترجع في اصلها اما الى طقوس ومعتقدات قد لا تعتمد على غير الخرافات والاساطير واما الى احداث شاع خبرها في الناس فظلت في اخلادهم . ومن هذا القبيل ما يقال عن بعض الاشياء بانها « ماشي مليح » كلبس الاسود من الثياب فانه يتشاءم منه في بعض الاوساط . واذكر ان سيدة فقدت ولدا لها في عز الشباب فعزت موته الى استعماله حذاء اسود . وقريب من هذا ما عللت به جدتي رحمة الله عليها آلاما كانت نزلت بي من الزائدة الدودية ، فقد قالت ان السبب فيها دراجة « سولكس » سوداء كان اشتراها لي والدي لانتقالي من الفصل الرابع الى فصل الشهادة الثانوية .

ومن هذا القبيل كذلك ما يقال عندنا بانه لا تسلف الخميرة بعد غروب الشمس . واذا ما اضطر احد الى اعطائها فليعط معها قليلا من الملح حتى لا يصيبه اذى . وهي عادة لاحظتها في ريف مصر بل عثرت على تعليل لها في بعض الكتب ، ملخصة ان امراة ارادت ان تعجن الخبز فلم تجد لديها لا ملحا ولا خميرة فطلبت من جارتها ان تعيرها بعض الخميرة فاعطتها اياها . ولكن المراة لم تلبث ان عادت الى الجارة وقالت لها : « اعطني ملحا حتى لا تضيع بركة هذه الخميرة » .

على ان من هذه التأويلات ما يطغى روح التفاؤل عليه كتفسيرهم الموت في الحلم بالحياة المديدة وطول البقاء ، بل ان منها ما يقصد به الى التربية والتهذيب كقول الامهات للاطفال ان من اكل طعاما لا زال على نار ينزل به ظلم او يكذب عليه .

ومن الطف العادات التي يتفاءل بها في بعض العائلات ان يوضع في حجر الطفل يوم تربعه على « عرشه الصغير » قلم وكتاب املا في ان يصبح طالب علم يفقه دينه ويجله الناس . وهذا بخلاف بعض البوادي التي لا تنظر لطالب العلم بعين الاعتبار اذ يشاع ان ادنى ما تتمناه المراة لولدها هو ان يصبح فقيها ، اما ان يكون « غياطا » فشيء اعظم من ان تتمناه لطفلها واكبر .

ويتصل بهذه المعتقدات تقاليد الاكل واللبس والفراش وعادات المآتم والافراح واغلب الظن ان الكثير من هذه التقاليد ورد علينا من الاندلس ، وخاصة ما يتعلق بالوان الاكل كالبسطيلة والاسفنج والحريرة او ما يتعلق بالملابس كالجابدور وكسوةالمحصور واتخاذ البياض لباس حزن . ويخطىء الذين يعتقدون بان الجلباب والبرنوس اندلسيان ، اذ الراجح انهما من مخلفات عهد الرومان .

هذا عن التقاليد ، واما الفنون فالحديث عنها يقتضي منا وضع هذه الاسئلة :

- ما هي الفنون الشعبية ؟
- اين توجد ؟
- من هم اصحابها ؟
- ما صلتها بالتراث القديم ؟

وبالرغم من اني لست متخصصا في تاريخ الفن المغربي حتى اجيب على هذه الاسئلة في دقة وعمق ، فسوف احاول الاشارة الى بعض نقاط الموضوع . وعندي ان الفنون الشعبية هي تلك التي لا تستعمل الالفاظ وان استعملتها ففي نطاق محدود . وتشمل الآثار الشعبية التي تعتمد على الحركة والاشارة والايقاع والعمل اليدوي الدقيق . وهي :

- الرقص
- الموسيقى
- الرسم
- الصناعة

ولكل من هذه الفنون الوان تختلف باختلاف المناطق والجهات .

فالرقص البربري الجماعي او ما يسمى « احيدوس » هو غير رقص الحواضر الذي يكاد ان يكون شرقيا في طابعه . بل ان هناك لوتا آخر يختلف عن هذا او ذاك نجده في المدن والبوادي على حد سواء وهو : « التحيار » اي الرقص الذي يقوم به « الفقراء » في حلقات الذكر او ما يسمى بـ « الحضرة » وللنساء لون من هذه الحضرات يخصهن .

وفي الموسيقى شيء قريب من هذا اذ نجد الى جانب الفرق الشعبيـة التي تختص بالطرب الاندلسي والبربري والملحون والطقطوقات والعيطات والتـي يدخل العنصر النسوي في بعضها ، اجواقا نسويـة خالصة منتشرة في البوادي تعرف بـ « اجـواق الشيخـات » . بل كانت هناك كذلك اجواق نسويـة في المدن كان يطلق عليها اسم « المسامع » لم تكـن تعمل الا في الافراح والاعياد حيث تعزف في بيـوت الكبـراء والاعيـان . واذكر انهن كن يحضرن الـى بيتنا صباح ثاني يوم كل عيـد حيث يقضيـن اليـوم كله في العزف والانشاد . واذا كانت هذه الفـرق قد انمحى اليوم اثرها ، فقـد عوضت باجواق عصريـة نظاميـة تكونها عناصر هـاويـة او محترفة للطـرب الاندلسـي .

اما في ميدان الرسم فامامنـا نماذج حية تكشف في وضوح عن ذوق المغاربة وما كانوا يمارسون حتـى عهد قريب وما يزالون من شتى فنـون التصوير . فرقم الثياب وحفر جبس القبـاب والجدران وتزويق الاخشـاب وطلاء الزجاج ووشم بعض اطراف الجسم والرسوم التي يزوق بها مدررو الكتاتيب القرءانيـة الواح تلاميـذهم اثر انتهائهم من حزب او مجموعـة احزاب من القرءان الكريـم كل هذه اشيـاء لاشـك انها من بقايا فـن كان يمارسـه الشعب في القـديـم ولعله الرسـم .

ومثل الرسم الصناعة الوطنية الدقيقة التـي لم تسايـر تطور العصر فتجمدت في قوالب اخـذ التصنيع يقضي على كثير منها . ومن يدري فعسـى ان يكون لوزارة الفنون الجميلـة والسياحـة وقـد اضيفت اليها الصناعـة التقليديـة اثر في النهـوض بهـا وتطورهـا مع المحافظة على كل ما يضفي عليهـا صبغـة وطنيـة .

— يتبـــع —

عبـاس عبد الله الجراري



اسرائيل والتقدم العربي

للأستاذ: رشيد النجار

.. (ومهما يكن من امر ، فان العالم العربي ، كما قلنا سابقا ، يمكن ان يستفيق من سباته ، اذا كانت سياسته مزودة بروح من الانسانية والافق الواسع ، وغير موجهة من طرف الاقطاعيين الذين قلما يشعرون بسعادة مواطنيهم . وبدلا من الكراهية التي يكنها العرب لبعض الشعوب ، وعلى الخصوص اسرائيل ، التي يجمعهم واياها الجنس والعرق المنحدر من ابيهم ابراهيم ، فلقد كان من الواجب على العرب ان يمدوا يدهم لاسرائيل ؛ ذلك العنصر الحيوي الفعال ، الديموقراطي في اساسه ، الذي يمكن ان يساعد على تحقيق الخير لهم ، ويعمل على تطورهم نحو التقدم المحتمل ان يلد من جديد في الشرق ، المهد القديم للحضارة) .

بهذه العبارات الخلابة المزرية في نفس الوقت ، انهى احد الباحثين كتيبا وضعه حول الفكر العربي ذلك هو الكاتب هنري سيروبا ، الذي اختار هذه القاعدة الهامة لقيام مجد العرب من جديد ، الا وهي التعاون المثمر ومد اليد للمصالحة والاخوة لاسرائيل، باعتبارها العامل الرئيسي لعودة التقدم والنهوض للشرق العربي الحديث .

لقد عالج الكاتب تطور الفكر العربي من الناحية الدينية ، والفلسفية ، والتصوفية ، فلم يستطع حقا انكار اصالة الروح العربي في الحضارة الاسلامية ، بل ندد بأولئك الذين انكروا على العرب مشاركتهم في التراث الهائل الذي صهرته الحضارة الاسلامية ، ومن المعروف ان بعض الباحثين الغربيين ينكرون على الجنس العربي عمق التفكير وهضم العلوم التي ورثوها عن الامم السابقة ، مع ان الفيلسوف الاول في التفكير الاسلامي كان عربيا صميما ومن قبيلة كندة ، ذلكم هو الكندي .

والامر الهام الذي اريد ان اعلق عليه في هذه المحاولة ، هو تلك الخلاصة التي توصل اليها هذا الكاتب في خاتمة كتابه : ذلك ان اسرائيل لم تكن في حساب العالم العربي عندما نهض العرب ، وانطلقوا من صحرائهم ليغزوا العالم القديم يحملون اليه نور العقيدة الصافية من التقاليد والخرافة المجافية للمنطق الامر الذي ثبت اركان حضارة انسانية خالدة ، بل ان اليهود قد وقفوا موقفا عدائيا من الاسلام منذ اول يوم، فاظهروا العداوة الصريحة في حياة الرسول مما ادى الى معاقبتهم بعقاب الخيانة العظمى بعد واقعة الاحزاب التي انضموا فيها الى الاعداء ، فحق عليهم الحكم القاسي الذي نفذ فيهم انذاك : وهو قتل الرجال وسبي النسوة والصبيان .

نعم عجز اليهود عن تفهم فحوى العقيدة الاسلامية ، وامكانيات نجاحها ، فواصلوا حملاتهم ضد الاسلام والمسلمين ، حتى لقد اصبح العلماء المسلمون والمدافعون عن العقيدة يعزون الى اليهود كل فكرة هدامة ظهرت في العالم الاسلامي .

ان الكاتب قد عالج موضوعا تاريخيا بما فيه المعطيات الاجتماعية والفكرية ، والاقتصادية والسياسية ، ومن الحق القول بان العالم العربي لا يزال يعاني من الاقطاع والتخلف في عدة نواحي من حياته ، وهذا ان كان عيبا ، فليس للعرب مسؤولية فيه اكبر من مسؤولية المستعمرين الفرنسيين والانجليز ، اولئك الذين اتوا بمشكلة اليهود ايضا ووضعوها في قلب العالم

العربي كعرقلة كبرى لتقدم العرب : فبدلا من ان يتوجهوا الى معارك البناء والعلم ومتابعة سير التقدم والحضارة ، جعلتهم هذه المشكلة الكبرى ينهكون قواهم الفكرية والاقتصادية ، والزمنية ، فى وضع الخطط والاستعداد لمقاومتها .

الاقطاع اذا من مخلفات الاستعمار الغربي بلاشك، لا فى العالم العربي فقط ، بل فى العالم المتخلف كله .

والمشكلة الاسرائيلية الصهيونية من أعظم مخلفات هذا الاستعمار نفسه فى العالم العربي والاسلامي فى نفس الوقت .

واذا كان مشكل التخلف الاقتصادي ، ومظهر سيطرة الاقطاع فى بعض الاقطار العربية معهوما ، وعلاجه واضحا ومعروفا ، فان مشكلة اسرائيل وضعها الغربيون انفسهم ، ومنهم هذا الكاتب العبقري ، تحتاج الى التحليل والنظر : ذلك ان المشكل الاسرائيلي بالنسبة للعرب ليس مشكل كراهية اولا ، او مشكل عنصرية من العرب ضد اليهود ، بل انه مشكل استعمار وخطط استعمارية موضوعة منذ اكثر من نصف قرن ، ويجب ان تزال ، انها مجرد مؤامرات مفضوحة تؤيدها قوة كبيرة ، ولابد من القضاء عليها بشكل او بآخر ، اما كيف ومتى ؟ فان ذلك ما ستحدده حوادث التاريخ وتطورات السياسة الدولية فى مستقبل الايام .

الا يمكن ان تعد الكراهية نفسها سلاحا يستعمل ضد العدو الغاصب ؟ وبعبارة اخرى هل يصح ان نواجه اعداءنا بالابتسام والمصالحة على حساب الارض المغصوبة ، وفى سبيل التقدم المزعوم الذي تحمله اسرائيل الى العالم العربي ؟ ثم اي تقدم هذا الذي يحمله عدوك عندما يغصبك الحياة ؟ .

لقد ثبت منذ امد بعيد ، واثبتت الاحداث التاريخية الكبرى ، ان الشعوب لا تنهض الا لتمسكها بعقيدة . وايمانها المصمم بتفوق عقيدتها على المذاهب الاخرى ، وبذلك نهض الاسلام ، واسس حضارة كبرى ، وعندما نادى السيد جمال الدين الافغاني المسلمين فى جميع اقطار الارض الى النهوض وطرح الخمول والخنوع ، دعاهم الى التعصب للعقيدة ، وشرح هذا التعصب بفلسفة واقعية لا غبار فى منطقيتها ، فقال : ان الحضارة لها اركان واسس لا تقوم الا بها ، واهمها ان يكون هناك شعب يتمسك بعقيدة ذات مبادىء انسانية واخلاقية — ويؤمن بانها اصح العقائد واسلمها . انها فلسفة القوة ، القوة فى الاعتقاد ، وفى الثقة بالنفس ، وفى الاحساس بالمسؤولية . ولكن هذا الاعتزاز ليس معناه قهر العقائد الاخرى ، او الكيد لاصحابها ، فلقد مرت حقا عهود الغزو والحروب الدينية بقصد فرض عقيدة على العالمين ، ولكن بقي ايضا مبدا الدفاع عن النفس والمعتقد كاهم المبادىء الدينية والقانونية والاجتماعية لدى جميع الشعوب . فلا مجال اذا للشك فى ان العقيدة الاسلامية نفسها لا تكيد ولا تحمل كراهية للشعب الاسرائيلي ، ولا للشعوب الاجنبية الاخرى ، نعم انها تستنكر عبادة الاوثان والالحاد كنقائص بشرية ، ولكنها لا تحمل فى طياتها اية كراهية لاهل الديانات السماوية على الخصوص .

وهكذا نرى ان التعصب للعقيدة عندنا ليس معناه كراهية اليهود او اي جنس آخر ، لكن هذا لا يمنع ان على المسلمين حق الدفاع عن هذه العقيدة نفسها اذا ما مست فى احد مقدساتها، اي شيء اهم من الارض والوطن اذا طردت منها العقيدة ؟ .

ان العرب عندما يكرهون اليهود فى الواقع لا ينظرون اليهم كبشر يحملون عقيدة دينية معينة ، فلقد حدث ان عاش اليهود ولا يزالون بدينهم وتقاليدهم فى جميع الاصقاع العربية والاسلامية، وعلى مر التاريخ دون ان يمسوا فى عقيدتهم او فى ابسط حقوقهم ، على العكس مما وقع لهم فى اروبا ، ولقد لوحظ حتى فى اشد فترات الصراع بين الصهيونية والعرب ، ان بعض البلاد العربية استقلت والحت بالخصوص على التصريح العلني بحفظ حقوق اليهود كمواطنين ، بينما نجد ان العناصر المسيطرة فى اسرائيل انما هي عناصر اروبية ، قدمت الى الشرق العربي تحت عناوين مختلفة واشكال متباينة اهمها تلك الوسائل الماحقة التي استعملت فى اضطهادهم وكراهيتهم من طرف شعوب اروبا المتحضرة .

ان هناك كتابا غربيين آخرين من دعاة الافكار الانسانية ، من عالجوا بدقة اسس ونتائج كراهية شعوب اروبا للعنصر السامي فى ذات اليهود الذين يعيشون بينهم ، وعندما حاول الكاتب الفرنسي جان بول سارتر ان يضع حلا لفكرة معاداة السامية (antisémitisme) بفرنسا وجد ان ليس هناك فى الواقع اي مشكل يهودي ، انما هناك فقط مشكل فرنسي يتعلق بكراهية اليهود ، ولم يجد هنا حلا الا

بادماج اليهودي فى الفرنسي وتحقيق فكرة «انطباق» الذاتية على العنصرية معا ، او فكرة الشبه المطلق بينهما .

لكن الذي حققه الاروبيون هو فكرة الفصل المطلق للجنس اليهودي عن الكيان الاروبي باسره ، وباعتبار الاسلام هو العدو الاكبر للمسيحية ، وان العالم العربي هو هدف الغرب الاولى فى الخطط الاستعمارية الكبرى ، فقد اجمعت العبقريات الاروبية فى العالم القديم والجديد معا ، على تطبيق فكرة الوطن الاصلي لليهود ، واسكانهم فى اعز قطعة من بلاد العرب .

ان هذه العبقرية الاستعمارية ؛ هي نفسها التي دعت كتابا عديدين ، وعلى راسهم السيد « سرويا » ان يرشدوا العرب الى اسرائيل ، الى ذلك العنصر الحيوي الفعال الذي يجبعليهم ان يمدوا له اليد ،لانه سيحقق لهم الخير ويعيد معهم سابق مجدهم الغابر فى الشرق .

انه منطق ساخر بلا شك .

وهذه السخرية لم يتوصل اليها هذا الكاتب باعتباره فردا عاديا ، بل كناطق باسم عالم باسره ، ناطق يحكي تلك الاصوات المنبعثة من « البيوت » العظمى التي تسيطر على السياسة الدولية فيما بين الشاطىء الغربي والشاطىء الشمالي الشرقي المحيط الاطلسي او كما يسميه العرب بحر «الظلمات» .

الرباط ـ رشيد نجار





ذكرى محمد الخامس
قدس الله روحه

للشاعر: عبد الرحمن الدكالي

ذكرى تسيل لها حقا مآقينا ... ونستعيد بها حزنا وتأبينا

عامان ما غبت فيها قط عن نظر ... كلا ولا كانت الايام تسلينا

لم يخل منك زمان انت صانعه ... ولا مكان به قد كنت تحيينا

محمد فى قلوب الشعب مضجعه ... وان بدا لكم فى القبر مدفونا

سلو الليالي والايام عن بطل ... لوى عنان زمان كاد يردينا

وقال للدهر لا لن تستبد بنا ... انا حماة ؟ فمن ذا جاء يحمينا

اغفاءة الاسد فى الآجام يعقبها ... زئيرها واشتياق العز يزجينا

سلو « فرنسا » وما عانته من ملك ... ما كان بالملك والتيجان مفتونا

بل كان خير ملوك الارض فى زمن ... قد لونته صروف الدهر تلوينا

مرت به سنوات الملك مثقلة ... « فكان يوسعها صبرا وتهوينا »

اذا الخطوب توالت قال مبتسما ... ؟ ما ذا تريدين قولي ؟ ما تكونينا

ان لم احرر بلادي لست مرتضيا ... ملكا اعيش به بين المرائينا

والله لو وضعوا الشمس المضيئة فى ... كفى ولو ملكوني الحور والعينا

ما كنت الا الذي يبني لامته ... ما تستحق به عزا وتمكينا

مستقبل نبني مجدنا وغدا ... ستستجيب لنا الاقدار ترضينا

انا ابن يوسف مسؤول ومؤتمن ... على رعيته والله راعينا

قف طائر الشعر ؟ اين الجو تسلكه — ؟ واين تبلغ في الدنيا قوافينا
من ذا يسجل في التاريخ سيرته — ؟ ومن سينظمها شدوا أفانينا
سلطاننا « لفرنسا » قال قولته — من يخضعون لكم ليسوا سلاطينا
اني على ثقة بالله معتصم — بحبله كيفما كانت مآسينا
لله وقفته في البيت معتمرا — امام خالقه يبكي ويبكينا
وسال الله للاسلام نصرته — « يارب انت ولي الامر تهدينا
يارب ان شعوب العرب فرقها — داء الخلاف الذي ما انفك يصمينا
يارب وحد قلوب المسلمين على — دين بعثت به خير النبيئينا
يارب صن « حسنا » وكن له سندا — واحفظه وانصر به الاوطان والدينا »

* * *

يا من ستذكره الاجيال مقبلة — ومن تتيه به فخرا او الينا
ذكراك ما دامت الدنيا ستنشرها — بين الورى ابدا وردا ونسرينا
نم في رضا ربك الاعلى بجنته — ونل بقربك ما اعطى المحبينا
نم مطمئنا على شعب تركت به — من زاده بعرى الاخلاص تمتينا
واشهد لدى الملأ الاعلى بان لنا — خليفة عنك ترضاه ويرضينا
هاذا ابنك «الحسن الثاني» يسيرعلى — ما قد وعى منك ارشادا وتلقينا
ما هو الا الذي قد كنته خلقا — وقد بلغت به ما شئت تكوينا
اشرف بروحك وانظر امة سعدت — بمن تركت لنا فيه امانينا
صان الخلافة بالتقوى وزينها — بعلمه وذكاء فيه تزيينا
وصار يحمل عبء الشعب في ثقة — وفيه من حبنا والله ما فينا
العرش والشعب في ايامه امتزجا — وانت من جنة الفردوس ساقينا

* * *

يا امة « الحسن الثاني » اهيب بكم — ان نعمل اليوم اخوانا مجدينا
روح ابن يوسف تحت العرش ترقبنا — ؟ فهل نسيء لها نحن المحبينا
اليوم تجمعنا الذكرى على حدث — قد جاء في وقته بالخير مقرونا
نرى الوفاء لهذا الشعب من ملك — نوليه ما يبتغي منا ويولينا
فلنتحد ولنكن خير الشعوب غدا — نبني ونعمر ما شئنا بايدينا
لا يبلغ المجد اقوام صدورهم — مراجل بلهيب الحقد يغلينا
ولن ينال المنى شعب تفرقه — حينا وتجمعه اهواءه حينا
الله في شمل هذا الشعب مفترقا — ومن عداوة اهلينا لاهلينا
سلوا الشيوخ كبار السن عن زمن — عاشوه مضطربا بالشر مشحونا
؟ وكيف صرتم عبيدا في مواطنكم — ؟ وكيف صارت «فرنسا» بعد تحمينا
تالله لا داء بعد الخلف يقتلنا — وعن مطامحنا في الارض يقصينا

تالله ما ضاع شعب عاش متحـــدا ... ولن يضيع به من كان مسكينـــا
لنا مراحل فى الدنيـا سنقطعهـــا ... مشيا اليها وان كانت ستدمينـــا
نريد للمغرب الحـر الكبيــر اذا ... عشنا به اخـوة غـرا ميامينـــا
ان لا يرى بعد جمع الشمل تفرقـة ... وان تجرع زقومـا وغسلينـا
اذا الشعوب صفت يوما سرائرهـا ... اضحى الاخاء بها فى الدهر عربونـا

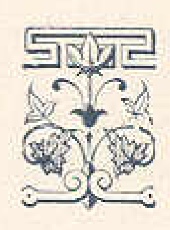
* * *

مولاي يا ملك الدستور ان لنـــا ... فى العرش حصنا من الاحداث يحمينا
فليشهد الله ان الشعب ليس لـــه ... سواك من ينصر الاخلاق والدينـا
وليشهد الحق ان الحق منتصــر ... اذ قد وضعت له حقـا قوانينـــا
وليشهد العدل ان العدل محتكــم ... اذ قد نصبت له فينـا موازينـــا
شاورت فى الامر والشورى جعلت لها ... نواب شعبك حكامـا معزينـــا
دستورنا بنواب الشعب قيمتـــه ... وانت حارسه دومـا ستهدينـــا
منصة الحكـم بالاكفـاء قائمـــة ... لا تجلسوا فوقها يا قوم مافونـــا
فالشعب ان كان ذا وعي وذا ثقـــة ... بنفسه اكسب الدستور تمتينـــا
وما النيابـة عن شعـب بثابتـــة ... لمن غدى بتولي الحكـم مفتونـــا
فليتق الله من صارت نيابتـــه ... عن البلاد لـه عـزا وتحصينـــا
الاختيــار دليـل عن تبصرنـــا ... وانا امـة لـم ننـس ماضينـــا

* * *

يا شعب ما مات من ابقى لنا «حسنا» ... ما مات من ترك الدنيـا تحيينـــا
ما مات من خلد الاعمال تذكـــره ... بين الورى وبه ابيضت ليالينـــا

الرباط : عبدالرحمان الدكالي
المرشد العام للقوات المسلحة الملكية



إلى روح جلالة محمد الخامس

لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء

على م الرثا ؟ فيم البكا والتنهد ؟ … وفى الحسن الثاني ، يعيش محمد

أنين ولا بلوى ، ودمع ولا اسى … أيندب يقظان ... ويرثى مخلد ؟

ويا ليلة المعراج ، عاد محمد … كما راح ، ـ لا تثريب ـ والعود أحمد

وقد صدقت رؤياك ياشعب ، انه … مدى الدهر ـ فى أفلاكه يتجدد

فلا تحسبوا هذا ضريحا ... الم يكن … له مسجد فى كل فج ومعبد ؟

اذا قلتم : اياك نبكي ـ سمعتم … نداه يهز الكون : اياك نعبد

انا الشاعر العملاق... لا اعرف البكا … وما زلت فى سمع الزمان أغرد

تركت الألى لم يدركوا عمق سره … ومن لم يزل فى سره يتردد

وصدقته فى وعد عيسى ـ كلاهما … له عند عرش الله مرمى ومقصد

الم اك استوحي ، فيلهمني الذي … اماتوا فأحيا ... وابتنى يوم بددوا

وفى المشور المعمور كم قمت صادحا … فتصغى لي الاجيال ابان أنشد

وفى بهجة الاعياد كم صنعت آية … فوقعها زرياب لحنا ومعبد

وما كان مدح المالكين سجيتي … فهل انا الا الثائر المتمرد

ولكن لصناع البطولات انحني … وما غير صناع البطولات يحمد

ومجتمع من نبع يعرب يرتوي … ويعتز بالاسلام ابان يصمد

ومالك امر الشعب ـ للشعب أمره … وما غير حكم الشعب فى الشعب يخلد

ومن يستهن بالشعب يوما ويغترر … بسلطانه ... لن يستقيم له غد

❊ ❊ ❊

أمانا امير المؤمنين ... فلا بكا … ولا زفرات للرثا تتصعد

ولكن تسابيح ، وصدق ابتهالة … وشعلة حب فى الحشا تتوقد

سلاما امير المؤمنين من التي … اياديك فى استقلالها ليس يجحد

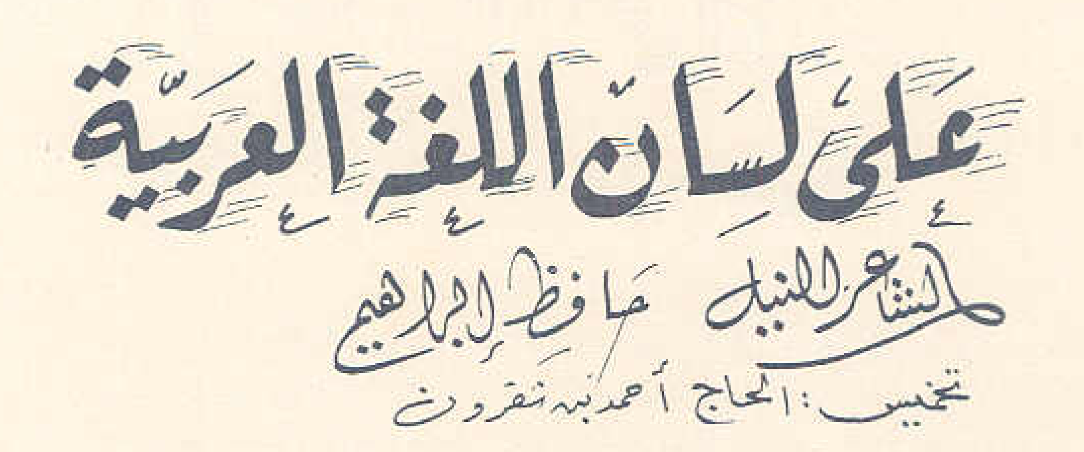
وعونا أمير المؤمنين ... فربما … كأوطاننا أقطابنا تتوحد

ويا شعب بايعت ابن يوسف فى يد … فبايع شهما لا تطاوله يد

هما الفرقدان النيران تحالفا … اذا ما تولى فرقد ... لاح فرقد

ففي شعبه قد عاش شبل محمد … وفى الحسن الثاني يعيش محمد

مفدي زكرياء



مهداة الى الاستاذ السيد عبد العزيز بن عبد الله مدير المكتب الدائم للتعريب بالرباط بمناسبة اسبوع التعريب (3 دجنبر الى 9 منه 1963)

« رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي »　　وسرت رويدا فى دجى الحسرات
وامعنت فى وضع يشذ ، وواقع　　تباطأ فى رعيي وضم شتاتي

« وناديت قومي فاحتسبت حياتي »

« رموني بعقم فى الشباب وليتني »　　بكثرة انجابي غزوت رماتي
الم ينظروا نسلي عقمت بجيشه　　عن العقم لما قلت بين لداتي

« عقمت فلم اجزع لقول عداتي »

« ولدت ولما لم اجد لعرائسي »　　مهادا ، وحصنا صين الجنبات
ومهرا يوازي قدرها وتعشقا　　يحبب فيها رغم كل اذاة :

« رجالا واكفاء : وادت بناتي »

« وسعت كتاب الله لفظا وغاية »　　واحكام اعجاز كتام لغات
ووصفا بليغ الوقع جد مرصف　　يلذ لتال مشرق الكلمات

« وما ضقت عن اي به وعظات »

« فكيف اضيق اليوم بوصف آلة »　　ومصطلحات فى جديد حياة
ورصد كليمات وتعريب عجمة　　وتعريب تعليم بوضع اداة

« وتنسيق اسماء لمخترعات »

« انا البحر فى احشائه الدر كامن » لماض من الدنيا وما سوف ياتي
حفظت بحفظ الله سر كتابه كلؤلؤة بل مجمع اللؤلؤات

« فهل سالوا الغواص عن صدفاتي »

« فيا ويحكم ابلى وتبلى محاسني » باعراضكم عني لعجم لفات
وتفضيلكم تلك اللغات على التي يفوق سناها حسن كل مهاة

« ومنكم وان عز الدواء اساتي »

« فلا تكلوني للزمان فانني » بكم احتمي منه لدى الغمرات
واذخركم حصني وعزمي ، ولم ازل بغير حماكم : سادتي وسراتي :

« اخاف عليكم ان تحين وفاتي »

« ارى لرجال الغرب عزا ومنعة » وغزو صواريخ علا النيرات
وسعيا حثيثا للكمال معززا بما اخترعوا من عزة الذريات

« وكم عز اقوام بعز لغات »

« اتوا اهلهم بالمعجزات تفننا » له بعميق العلم حسن صلات
وصالوا بالآت لدى البحر تارة وفى الجو احيانا جلت موغلات

« فياليتكم تاتون بالكلمات »

« ايطربكم من جانب الغرب ناعب » ليخرس نطق العرب بالعجمات
ويجهد مجنونا بفرض لسانه ليصبح استاذا وراس اباة

« ينادي بوادي فى ربيع حياتي »

« ولو تزجرون الطير يوما علمتم » وانتم لجمع العلم خير رواة
وقارنتم حتى وعيتم حقائقا مبلورة فى حكمة وثبات

« بما تحته من عثرة وشتات »

« سقى الله فى بطن الجزيرة اعظما » تابت عظاما فى عظيم حياة
فمن نطقها جاءت روافد جدتي فجادت على الدنيا بكل مواتي

« يعز عليها ان تلين قناتي »

« حفظن ودادي فى البلى وحفظته » بعيدا به عن هاجم النكبات
والف حبا بيننا فتوثقت عراه على رغم ابتعاد فلاة

« لهن بقلب دائم الحسرات »

وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... فحق فخاري راسخ اللبنات
وعز على من رام نيل مطامح ... تخاذله فى صون ام لغات

« حياء بتلك الاعظم النخرات »

« ارى كل يوم بالجرائد مزلقا » ... يهلهل اسلوبي ويضعف ذاتي
فتنزلق الاقلام فيه وبعضها ... على الرغم مني واخضرار نباتي

« من القبر يدنيني بغير اناة »

« واسمع للكتاب فى مصر ضجة » ... لبحث فنوني واكتساح وشاتي
ولكنني اخشى علي تطاولا ... ووهي نسيجي واعتساف دعاتي

« فاعلم ان الصالحين نعاتي »

« ايهجرني قومي ـ عفا الله عنهم ـ » ... وافنان دوحي غضة الثمرات
يلهون عني معرضين وربما ... تمادوا ـ عنادا ـ رغم انف رعاتي

« الى لغة لم تتصل برواة »

« سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى » ... هواء وباء منذر بوفاة
فخالطها صاب جرى بحياضها ... كما قد جرى : سكبا بغير اناة

« لعاب الافاعي فى مسيل فرات »

« فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة » ... وضم اليها بعدها رقعات
اذا هم ذو نطقي بتنسيق جملة ... غزتك خليطا من عديد لغات

« مشكلة الالوان مختلفات »

« الى معشر الكتاب والجمع حافل » ... بهم وباقطابي وصيد هواتي
وعشاق اعلاقي ورواد عزتي ... وطلاب امدادي وجل سراتي

« بسطت رجائي بعد بسط شكاتي »

« فاما حياة تبعث الميت فى البلى » ... وتنشره مستمتعا بحياة
وتغدق انداثي عليه فتنجلي ... مفاتنه وردية القسمات

« وتنبت فى تلك الرموس رفاتي »

« واما ممات لا قيامة بعده » ... يعمق ملحودي ويقبر ذاتي
ويبني على ـ كوني ـ سدودا رصينة ... مماتي بها موت بغير حياة

« ممات لعمري لم يقس بممات »

فاس : الحاج احمد بن شقرون



للشاعر: الهدري أحمد بن مسعود

صديقي الاستاذ عباس الجراري .. لقد بعثت في نفسي كلماتك الساحرة احلام ماض جميل ما زلت اتمثله رغم طول المدى وبعد المزار .. وان انس فلن انسى ، برفقتك ، ليالي الصقالة ، وعشا ياسيدي كاوكي ، (القدميري الحاحي) .. وما الى ذلك من العناوين الشعرية الحلوة التي طالما رددناها وعلقها الفؤاد ، وكلف بحبها حبا مكينا لن يموت .. !!

فاليك ، صديقي ، تحية كريمة ، من حليف شوق في الصويرة ، الى حليف هوى عنيف في القاهرة

هـ . ا . م . —

يا رفيقي اصحيح ... مات حبي يا رفيق . ؟
اصحيح ما روته الصحـ ... ـف عن صب مشوق . ؟
فمضى نضوى شجون ... سادرا عبر الطريق
. . آه منها كلمات ... واثبات في خفوق . . !!
بعثت في النفس نزوا ... ت شجت قلبي الغريق
جددت لي ذكريات ... ضحكات كم تشوق . !
وعشايا رائقات ... من سناها : في شروق . . .
ومناجاة لدى (الصقـ ... ـالة) الشما تروق
وهدير الموج في احـ ... ـلام شعر .. ! ما يفيق . !!
اترى تذكر من ذا ... فضل حلم يا رفيق . ؟

* * *

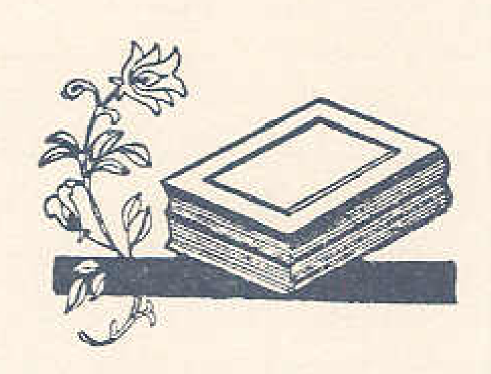
. . كل ما حولي من معـ ... ـسول ماضينا السحيق
يبعث الذكرى ويدني ... وجه ماضي العريق
غير اني نضو سؤل ... سادر عبر الطريق :
اصحيح ما روته الصحـ ... ـف عن صب مشوق .؟
يا رفيقي أصحيح ... : مات حبي يا رفيق ..؟!

ذات يوم .. ذات لحظة   نشر الأنس شراعه
راح يزجي لصحاب   في دنا الحب متاعه
غنموا صفو ليال   زادها الطهر مناعه
وصفا الدهر لهم حيـ   ـنا ؛ ووفاهم بضاعه ..
وتملوا .. لم يبالوا   ان طوى الانس شراعه
ثم ولى .. ليته طا   ل وروى .. بعض ساعه
اتراه شلو حب   لم يعمر غير ساعه . !؟
.. كان يوم .. ثم ولى   زاويا عنا شعاعه ..
ومضى يزجي خطاه   .. أجمل الله وداعه ... !!
.. واراني نضو سؤل   سادر عبر الطريق :
اصحيح ما روته الصحـ   ـف ، عن صب مشوق ؟.
يا رفيقي . . أصحيح :   مات حبي يا رفيق . . ؟ ؟ !

❊ ❊ ❊

اترى : ما مر حلم ؟.   او خيال عاش قربي ؟.
ام تراه : وثبات   للمنى تغمر دربي ..؟
تتهادى صوب عينـ   ـي ... وتشدو لحن حبي ...
وتنادي : اصحيح :   ما روى صب مشوق . ؟
يا فتى الطهر : احق   مات حبي يا رفيق . . ؟ ؟

الصويرة ـ الهدري أحمد بن مسعود



قصة العدد

وردة على قبر اميلي

لفقيد الادب العالمي وليم فولكنز

ترجمة : حنفي بنعيسى

عندما توفيت الآنسة اميلي جريرسن ، اشتركت مدينتنا كلها في تشييع الجنازة : اما الرجال فكانهم شعروا في ذلك اليوم بشيء من العطف الممزوج بالاحترام نحو اثر من الآثار المفقودة ، واما النساء فقد دفعهن الى ذلك بصورة خاصة ، فضولهن ورغبتهن في مشاهدة ما يوجد داخل دارها التي لم يشاهدها احد منذ عشر سنوات ، باستثناء خادم عجوز يقوم باعمال الطبخ والبستنة في نفس الوقت .

انها دار كبيرة مربعة الشكل ، مصنوعة من الخشب ، ولعلها كانت في السابق بيضاء اللون . وهي مزينة بقباب واقواس وبلكونات بديعة الصنع . وهندسة بنائها مسرفة في التكلف ، كالتي كانت موجودة في السنوات السبعين الاخيرة . وترتفع هذه الدار في الحي الذي كان يعد فيما مضى افخم شارع عندنا . ولكن مستودعات السيارات والآلات الفازلة للقطن كانت قد بدات تتسع رقعتها ، فقضت على كل ما عداها ، بل حتى على اسماء الشوارع اللامعة الموجودة في ذلك الحي ، ولم يبق من ذلك كله سوى دار الآنسة اميلي ، تلك الدار التي ترفع في السماء هيكلها العنيد، الجميل ، فوق عربات القطن ومستودعات البنزين وفي المدة الاخيرة لم تعد هذه الدار هي وحدها التي تلفت النظر . وها هي الآنسة اميلي قد فارقتها لتلتحق بممثلي تلك الاسماء اللامعة في المقبرة الهادئة تحت الاشجار حيث ينامون في القبور المصطفة التي لا يعرف اصحابها على وجه التحديد ، تلك القبور التي تضم رفات جنود الاتحاد والفيدرالية ، الذين سقطوا في ساحة المعركة ، معركة جيفرسن .

حينما كانت الآنسة اميلي على قيد الحياة ، كانت قدوة لغيرها في المحافظة على التقاليد والقيام بالواجب والشعور بالمسؤولية . لقد كانت بالنسبة للمدينة مثل الحمل الثقيل الموروث منذ عام 1894 ، حينما اعفاها العقيدسارتوريس – والعقيدسارتوريس هو رئيس البلدية وواضع القرار الذي يمنع الزنجيات من الخروج الى الشوارع من غير مئزر الطبخ – اعفاها من دفع الضرائب ، وهذا الاعفاء يرجع عهده الى يوم وفاة والدها ويمتد الى اللانهاية . وليس معنى هذا ان الآنسة اميلي قبلت في يوم من الايام مساعدة من احد ، ولهذا اضطر العقيد سارتوريس الى ان يخترع قصة معقدة ، خلاصتها ان والد الآنسة اميلي كان قد قدم الى المدينة قرضا وان المدينة – لاسباب اقتصادية – قد اضطرت الى ان تعيد القرض بهذه الطريقة . ولم يكن من الممكن لاي واحد من ذلك الجيل ان يتخيل مثل هذه القصة ، باستثناء العقيد سارتوريس ، ولم يكن يوجد سوى امراة واحدة لكي تصدق ذلك .

وحينما جاء الجيل اللاحق بافكاره العصرية وانتخب رؤساء البلدية واعضاء مجلسها ، فان هذا الاعفاء اثار بعض السخط . وفي اليوم الاول من شهر كانون الثاني بعثوا اليها بورقة الضرائب . وحل شهر شباط من غير ان ترسل اليهم جوابا . وبعثوا اليها رسالة رسمية وطلبوا منها ان تحضر الى مكتب المسؤول عن الامن متى شاءت . وفي الاسبوع اللاحق تدخل رئيس البلدية بنفسه ، وعرض عليها ان ياتي عندها او ان يبعث شخصا ليحضرها الى منزله بواسطة السيارة . وكان جواب ذلك ان تلقى ورقة ذات شكل غريب وخط لا يكاد يفهم واخبرته فيها

بأنها لن تخرج من دارها ابدا . وارفقت جوابها بورقة الضرائب من غير تعليق .

وعقد المجلس البلدي جلسة غير عادية ، وذهب وفد منه الى منزلها وقرع الباب التي لم تفتح امام اي زائر منذ ان انقطعت عن اعطاء دروس الرسم على البرسلين ، اي منذ ثماني او عشر سنوات . وادخل الزنجي العجوز الوفد الى غرفة مظلمة يوجد فيها سلم يختفي تماما في زاوية اكثر ظلمة من الغرفة . وكانت رائحة الغبار والاشياء المهملة تسود في ارجاء الغرفة : انها رائحة الرطوبة والاشياء التي لم تعرف النور منذ زمن بعيد . وقادهم الزنجي الى غرفة الاستقبال : كان اثاثها ثقيلا على النظر ، وكانت مقاعدها مكسوة بالجلد . وحينما ازاح الزنجي ستائر احدى النوافذ شاهدوا بان الجلد به خدوش . وحينما جلسوا ارتفعت سحابة صغيرة من الغبار حول افخاذهم وظهرت ذرات الغبار باشكال متماوجة في شعاع الشمس الوحيد الذي نفذ من خلال النافذة . وكان يوجد بالقرب من الموقد صورة والد الآنسة اميلي مرسومة بقلم الرصاص ، وقد وضعت على مسند خشبي باهت اللون.

ونهضوا من مجالسهم حينما دخلت . كانت صغيرة الجسم ، ضخمة الهيئة ، وكانت ترتدي لباسا أسود اللون بالاضافة الى سلسلة من الذهب تتدلى الى ان تصل الى خصرها ثم تختفي في حزامها . وكانت تتكىء على عصا ذات مقبض ذهبي زال عنه اللمعان . وكانت عظامها ناعمة وضعيفة ، ولعل هذا هو السبب في ان مظهرها يوحي بالتضخم ، بينما ذلك قد يوحي بالصحة عند غيرها من النساء . كانت تبدو منتفخة مثل الجثة التي بقيت مدة طويلة من الزمن في المياه الراكدة . ثم ان لون وجهها أصفر. وحينما كانت تستمع الى زائريها وهم يشرحون لها دعواهم ، كانت تجيل عيونها من وجه الى آخر تلك العيون التي تشبه قطعتين صغيرتين من الفحم ، محشوتين في كرة من العجين ، وتكاد تختفي في تجاعيد وجهها .

ولم تدع أحدا منهم الى الجلوس بل اكتفت بالوقوف امام العتبة ، وهي تنتظر بكل هدوء انتهاء خطاب الناطق باسم الوفد الذي كان يتلعثم في كلامه وحينذاك سمعوا اصوات الساعة المخفية المربوطة الى السلسلة الذهبية .

كانت لهجتها جافة وباردة :

ـ لن ادفع الضرائب في مدينة جيفرسن . لقد شرح لي ذلك العقيد سارتوريس . ولعل احدكم يستطيع ان يراجع سجلات المدينة لكي تتاكدوا من ذلك .

ـ ولكننا فعلنا ذلك . ونحن نمثل السلطة في المدينة يا آنسة اميلي . الم يصلك اخطار من المسؤول عن الامن يحمل توقيعه ؟

فقالت الآنسة اميلي :

ـ نعم لقد وصلتني منه ورقة . وكأني به يعتقد بانه هو المسؤول عن الامن . لن ادفع الضرائب في مدينة جيفرسن .

ـ ولكن لا يوجد في السجلات اي شيء يبرر ذلك. يجب ان . .

ـ عليكم بمقابلة العقيد سارتوريس . لن ادفع الضرائب في مدينة جيفرسن .

ـ يا آنسة اميلي ، ولكن . .

ـ عليكم بمقابلة العقيد سارتوريس (لقد مات العقيد منذ عشر سنوات تقريبا) لن ادفع الضرائب في مدينة جيفرسن . يا طوب .

وحضر الزنجي .

ـ رافق هؤلاء السادة الى الباب .

وبهذه الطريقة انهزموا امامها مثلما انهزم آباؤهم منذ ثلاثين سنة في قضية الرائحة الكريهة . لقد حدث ذلك بعد وفاة والدها بسنتين ، وقبل أن يهجرها عاشقها الذي كنا نعتقد بأنه سيتزوجها . وبعد وفاة والدها لم تكن تخرج من المنزل الا قليلا ، اما بعد هجران عاشقها فلم يشاهدها اي انسان على الاطلاق. وقد تسلحت بعض السيدات بالشجاعة ، فذهبن لزيارتها ، ولكنها رفضت ان تستقبلهن ، ولم يشاهدن اي انسان في الدار باستثناء الزنجي الذي كان في ذلك الوقت لا يزال شابا ، وكان يدخل ويخرج من المنزل حاملا سلة لقضاء الاغراض من السوق . وكانت السيدات يرددن :

ـ اليس غريبا ان يقوم هذا الرجل بشؤون الطبخ ؟

ومن اجل هذا فان الناس لم يندهشوا حينما انتشرت الرائحة الكريهة . ومن ذلك الوقت اصبح الناس يعتقدون بأن الفساد والانحلال قد اصابا أسرة جريرسن القوية المتمتعة بنفوذ كبير .

وذهبت احدى الجارات لكي تشتكي الى رئيس البلدية ، القاضي ستيفنس ، الذي كان يبلغ عمره حينذاك ثمانين سنة . فقال لها :

ـ ماذا تريدين مني يا سيدتي ان افعل ؟

فقالت المرأة :

ـ ابعث اليها كلمة حتى تضع حدا لهذا الامر ـ الا يوجد هناك قانون ؟

فقال القاضي ستيفنس :

ـ اني متأكد ان ذلك لن يكون ضروريا ، ومما لا شك فيه ان مصدر هذه الرائحة اما ان يكون افعى ميتة او جرذا قتله الزنجي في ساحة الدار . سأبعث اليهما كلمة حول ذلك .

وفي اليوم التالي ، تلقى شكايتين احداهما جاءته من رجل تقدم نحوه خجولا متوسلا :

ـ يا سيدي القاضي ، يجب عليك ان تقوم بعمل ما . وانا ، وان كنت لا انوي أن ازعج الانسة اميلي الا انه يجب ان نقوم بعمل ما .

ذلك المساء ، اجتمع المجلس البلدي . ويتركب هذا المجلس من ثلاثة شيوخ وشاب ينتمي الى الجيل الجديد . فقال هذا الاخير :

ـ ان الامر بسيط . ما عليكم الا أن ترسلوا اليها من يخبرها بضرورة تنظيف منزلها . اعطوها مهلة كي تقوم بذلك . واذا لم ..

فقال القاضي ستيفنس :

ـ يا سيدي ، هل من اللياقة في شيء أن تقابل سيدة وتقول لها بان رائحتها كريهة ؟

وفي الليلة التالية ، بعد منتصف الليل بقليل ، اجتاز اربعة رجال حديقة الانسة أميلي ، وظلوا يطوفون حول المنزل مثل اللصوص ، وهم يشمون الروائح التي تنبعث من قاعدة المنزل ومن القبو ، وظل احدهم طوال تلك المدة ، يقوم بنفس الحركة التي يقوم بها من يبذر الحب . وحطموا باب القبو ونشروا فيه وفي ملحقاته الكلس . وحينما عادوا ادراجهم عبر الحديقة، شاهدوا نورا في النافذة التي كانت حتى ذلك الحين مظلمة . لقد كانت الآنسة اميلي جالسة وقد ادارت ظهرها للنور ، وكانت ساكنة في جلستها مثل التمثال. واجتازوا الحديقة بهدوء ، وتسللوا داخل اشجار الاكاسيا التي تصطف على جانبي الطريق . وبعد مرور خمسة عشر يوما تقريبا ، انقطعت الرائحة .

وعند ذلك بدأ الناس يشعرون نحوها بالشفقة. ان سكان المدينة الذين لا يزالون يذكرون عمتها التي فقدت عقلها تماما ، اصبحوا يعتقدون بان اسرة جريرسن متكبرة ، من غير ان يكون في ماضي هذه الاسرة ما يبرر هذا الكبرياء . ان هذه الاسرة تعتقد بانه لا يوجد في المدينة شاب جدير بالآنسة اميلي . وكنا في بعض الاحيان نتخيل هذه الاسرة مثل الشخصيات التي نشاهدها في اللوحات الفنية : ففي خلفية اللوحة تبدو الآنسة اميلي رفيعة القامة في لباسها الابيض . وفي الامام يبدو والدها وقد ادار لها ظهره وفرع رجليه وامسك بيده سوطا . وكلاهما واقف ضمن الاطار الذي يرسمه الباب المفتوح على مصراعيه . ومن اجل هذا ، فحينما بلغت الآنسة اميلي الثلاثين من دون ان تتزوج ، شعرنا بأننا قد اخذنا منها ثارنا ، وان كنت لا أعني ان ذلك قد ادخل في انفسنا السرور . ولا شك انها لم تكن لترفض سائر عروض الزواج التي من المحتمل ان تكون قد قدمت اليها رغم اصابة هذه الاسرة بالجنون .

حينما توفى والدها شاع الخبر بان الدار هو كل ما بقي لها من متاع . وشعر الناس بشيء من السرور لهذا الامر ، انهم يستطيعون الآن ان يضمروا للانسة اميلي شيئا من العطف . ان الوحدة والشقاء قد جعلا منها بشرا سويا . انها الآن ستعرف مثل غيرها من البشر هذه الفرحة وهذا اليأس الذي عرفه البشر منذ القديم ، حينما يكسب قرشا او يضيع منه ذلك القرش .

بعد مرور يوم على وفاة والدها ، استعدت سائر السيدات لزيارتها من أجل عرض مساعدتهن وتقديم عزائهن ، كما جرت العادة بذلك . واستقبلتهن الآنسة أميلي على العتبة . ولم تغير ثيابها كما أنه لم يبد اي اثر للالم على وجهها . وقالت لهن بأن والدها لم يمت . واستمرت تكرر ذلك مدة ثلاثة ايام ، في الوقت الذي كان فيه رجال الدين والاطباء

يأتون لزيارتها ، على امل انهم سيقنعونها بأن تسمح لهم باخذ الجثة . وحينما هموا بالالتجاء الى القوة والقانون ، استسلمت . وعلى اثر ذلك دفنوا والدها بمنتهى العجلة .

وحينئذ لم يقل احد بانها مجنونة : لقد كنا نعتقد بأن ما فعلت هو ما كان يجب ان يفعل فى مثل هذه المناسبة ، لاننا نعلم بانه من الطبيعي ، بعد ما فقدت كل شيء ، ان تتشبث بوالدها ، كما يفعل سائر الناس.

ولزمها المرض مدة طويلة . وحينما رايناها من جديد ، كان شعرها قصيرا ، مما كان يجعل مظهرها يشبه فتاة او ملاكا من الملائكة المرسومة على زجاج الكنائس : انه شيء يمتزج فيه الهدوء بالمأساة .

لقد ابرمت المدينة منذ عهد قريب ، تعاقدا من أجل تبليط الارصفة . وفى الصيف الذي تلا وفاة والد الآنسة اميلي ابتدا العمل . وجاءت شركة الانشاءات مع الزنوج والبغال والالات ، ومع متعهد أعمال اسمه هو مرباروں ، وهو امريكي من الشمال ، كبير الجثة ، اسمر اللون ، صارم فى رأيه ، غليظ الصوت ، وعيناه اكثر صفاء من لون بشرته . وكان الاطفال يترسمون خطاه لكي يسمعوه حينما يسب الزنوج ، أولئك الزنوج الذين لا ينقطعون عن ترديد الاغاني وهم يرفعون الفؤوس ويهوون بها الى الارض . وسرعان ما تعرف على سائر الناس فى المدينة . وكلما سمع الناس ضحكات عالية تتعالى فى ساحة المدينة ، الا وكانوا متأكدين ان هو مر باروں موجود فى وسط المجموعة . وبعد مرور ايام قلائل ، أصبح الناس يشاهدونه فى اوقات الظهر من يوم الاحد مع الآنسة اميلي ، على عربة مكرية ذات دواليب صفر ، يجرها فرسان .

وفى البداية شعرنا بالغبطة حينما شاهدنا الآنسة اميلي قد اصبحت تعير اهتماما للحياة . اما السيدات فقد اصبحن يقلن :

— من الطبيعي ان المراة التي تنتمي الى اسرة جريرسن لا يمكن ان تكون جادة فى علاقتها مع رجل من الشمال يشتغل باليومية .

ولكن كان هناك ءاخرون اكبر سنا يقولون بأن المصائب لا ينبغي ان تنسي سيدة جديرة بالاحترام بأن نبل الاصل يفرض على الانسان واجبات . هذا مع العلم بانهم لم يكونوا يعترفون لها بنبل الاصل . وكانوا يكتفون بالقول :

— مسكينة .. الآنسة اميلي .. يجب على اقاربها ان يساعدوها .

لقد كان لها اقارب فى مقاطعة الاباما ، ولكن والدها كان فيما مضى قد تخاصم معهم بسبب وراثة السيدة العجوزة وايت المجنونة . وانقطعت الاسرتان منذ ذلك الوقت عن تبادل الزيارات . وفى اليوم الذي شيعت فيه الجنازة لم يحضر منهم احد .

وبمجرد ان بدا الناس يقولون : مسكينة .. الآنسة اميلي .. منذ ذلك الوقت بداوا يتناقلون حديثا مكتما فيما بينهم :

— ماذا .. هل انت متأكد أن ..

— طبعا ، طبعا . والا فما هو السبب فى ان ..

ويضع الناس راحة اليد امام الفم تكتما . وفى اوقات الظهر من ايام الاحد المشمسة تتطلع السيدات من وراء النوافذ المغلقة بفساتينهن المصنوعة من الحرير والساتين ، لمشاهدة العربة التي يجرها فرسان والتي تمر سريعة ومدوية . مسكينة ، الآنسة اميلي ..

كانت دائما ترفع راسها عاليا ، بل حتى فى الاوقات التي كنا نعتقد انها قد بلغت الحضيض . وكان يخيل الينا انها تطالبنا بأن نعترف لآخر عضو من اعضاء اسرة جريرسن بالكرامة .

ان هذا الضعف الانساني فى طبيعتها كان يجعلها بالنسبة الينا اكثر غموضا . ومثال ذلك حينما ذهبت لتشتري السم الذي يقتل الجرذان اي الزرنيخ . لقد حدث ذلك بعد مرور عامين على اليوم الذي بدا فيه الناس يقولون : مسكينة الآنسة اميلي .. وحينما كانت بنتا عمها تسكنان معها فى الدار . فقالت للصيدلي :

— اريد شيئا من السم .

— طيب يا آنسة اميلي . اي نوع من السم تريدين؟ هل تريدين سما من اجل قتل الجرذان او اي شيء آخر من هذا القبيل ؟ اني انصحك باستعمال ..

— اني اريد احسن نوع يوجد عندك . ولا يهمني شيء آخر .

وشرع الصيدلي فى عد بعض هذه الانواع .

ـ ان كل هذه الانواع التي ذكرتها تستطيع ان تقتل فيلا ، ولكنك يا سيدتي تريدين . .

ـ سم الزرنيخ . هل هو قوي المفعول ؟

ـ هل تريدين الزرنيخ ؟.. حاضر يا سيدتي .. ولكن طلبك . .

ـ اني اريد الزرنيخ .

ونظر اليها الصيدلي . وتطلعت اليه بنظرة جامدة . فقال الصيدلي :

ـ طبعا يا سيدتي ، ساحضره اذا كان ذلك حقا هو ما تريدين . ولكن القانون يفرض عليك ان تذكري وجه الاستعمال . .

واكتفت الآنسة اميلي بان حدقت فيه وقد امالت راسها الى الوراء حتى تستطيع ان تركز عينيها في عينيه . وطال بها الامر على هذه الحالة حتى اضطر في الاخير ان يحول عنها نظره وان يذهب لكي يحضر لها الزرنيخ الذي وضعه في ورقة . وحمل الزنجي اليها هذه البضاعة ولكن الصيدلي لم يرجع . وحينما وصلت الى الدار وفتحت الرزمة ، شاهدت بانه قد كتب على الصندوق ، تحت الجمجمة والعظام المتصالبة : من اجل الجرذان .

ولهذا فان سائر الناس اصبحوا يقولون في اليوم التالي : انها ستنتحر . وكنا نعتقد ان ذلك هو افضل ما يمكن ان تقوم به . لقد تعودنا ان نقول في بداية علاقتها مع هومر بارون : انها ستتزوجه . ولكننا فيما بعد اصبحنا نقول انها ستجعله يقدم على الزواج بها في آخر الامر . والسبب في ذلك ان هومر نفسه كان قد ادرك انه ليس ممن يتزوجون ، فقد كان يحب صحبة الرجال ، وكان من المعروف انه يتعاطى شرب الخمر مع اصغر اعضاء نادي « الك » . ثم صرنا نقول : مسكينة ، اميلي . نقول ذلك من وراء النوافذ ، حينما يمران في وقت الظهر من يوم الاحد ، فوق العربة اللامعة . اما هي فراسها مرفوع في السماء ، وأما هو فقبعته مائلة على اذنه والسيجارة بين اسنانه ، والاعنة والسوط في قفاز اصفر اللون .

وحينئذ صارت بعض سيدات المدينة يقلن بان هذا عار للمدينة وانه يعد مثلا سيئا للشباب . ولم يجرؤ الرجال على التدخل في القضية ، ولكن السيدات ارغمن في آخر الامر الخوري على ان يذهب الى بيتها ، لان اسرة اميلي تنتمي الى الكنيسة الانكليكانية. ولم يشا الخوري ان يكشف عما دار في هذه المقابلة ، ولكنه رفض ان يعود مرة اخرى . وفي يوم الاحد التالي خرجا كعادتهما على العربة وبعد ذلك بيوم واحد كتبت زوجة الخوري رسالة الى اقارب اميلي في مقاطعة الاباما .

ونتيجة لذلك ، فقد اضطرت الآنسة اميلي ان تستقبل في دارها بعض الاقارب. واستعد سائر الناس لتتبع الحوادث ، غير انه في البداية لم يحدث اي شيء ثم تيقنا انهما سيتزوجان ، فقد علمنا ان الآنسة اميلي ذهبت الى صائغ المجوهرات ، كما انها امرت بتحضير بعض اللوازم للرجال ، على ان توضع الاحرف الاولى: ه.ب. على كل قطعة منها . وبعد مرور يومين اشترت جهازا كاملا من ملابس الرجال ، بما فيها ثوب للنوم ، وقلنا في انفسنا : انهما ولا شك متزوجان . وكنا مسرورين من ذلك . ومما زاد سرورنا ان بنتي عمها كانتا تشرفان اسرة جريرسن اكثر مما فعلت الآنسة اميلي .

ولهذا فاننا لم نندهش حينما غادر هومر بارون المدينة بعد ان تم تبليط شوارع المدينة بمدة قليلة . لقد شعرنا بخيبة الامل بعض الشيء بسبب عدم اقامة اية حفلة ولكن كنا نعتقد بانه قد غادر المدينة لكي يهيىء بيتا يستقبل فيه الآنسة اميلي او انه كان ينوي أن يساعدها على التخلص من بنتي عمها . (لقد كان راينا موحدا حول هذه المسالة ، وكنا جميعا حلفاء للآنسة اميلي حتى تطرد بنتي عمها) . ولكن من المؤكد انهما غادرتا المدينة بعد مرور اسبوع . ولم تكد تمر ثلاثة ايام حتى رجع هومر بارون ، حسبما توقعنا . وقد رآه احد الجيران ذات امسية في وقت المغيب ، حينما ادخله الزنجي الى الدار من خلال باب المطبخ .

ومنذ ذلك الحين ، لم نعد نرى هومر بارون كما انا انقطعنا مدة من الزمن عن رؤية الآنسة اميلي . وكنا نشاهد الزنجي داخلا الى الدار وخارجا منها ، وهو يحمل سلة لقضاء الاغراض من السوق . ولكن باب الدخول ظل مسدودا . وكنا نشاهدها بين الحين والآخر في النافذة ، حيث تقضي بعض الوقت ، مثلما حدث في الليلة التي ذهب فيها الرجال لكي ينثروا الكلس في دارها ، ولكنها انقطعت عن الظهور في الشوارع مدة ستة اشهر . وادركنا ان ذلك كان من

الطبيعـي أن يحدث ، فوالدها كان يمنعها من ان تتمتع بالحيـاة كسائـر النسـاء ، ولكن انوثتها كانت أقـوى واعنف من أن تمـوت .

وحينما اتيح لنا ان نرى الآنسة اميلي من جديد ، لاحظنا بانها تضخمت وان شعرها قد خطه الشيب . وعلى مر السنين ازداد شعرها بياضا الى أن اتخذ لونا رماديـا تمتزج فيه الوان الحديـد والبهـار والملح . وعندئذ لم يعد لونه يتغيـر . واحتفظ شعرها بلون الحديد الرمادي ، الى ان وافتها المنية بعـد ما بلغت الرابعة والسبعين من العمر ، كما احتفـظ شعرهـا بقوته ، مثل شعر رجل في عنفوان شبابه .

وابتـداء من تلك الفترة مـن حياتها ظل بـاب دارها مغلقا ، باستثناء مدة مـن الزمن تتـراوح بيـن الست والسبع سنـوات كانت خلالها تعطي دروسا في الرسم على البورسليـن ، حينما كان عمرهـا يبلـغ الاربعين تقريبا . وكانت قد اقامت في احدى غـرف الطابـق الارضي مرسما تتردد اليه بنات وحفيدات معاصري الفقيد سارتوريس ، ويواظبن على ذلك مثلما يواظبن على الذهاب الى الكنيسة يوم الاحد ، وفي يد كل واحدة منهن خمسـة فلوس تسلم بعد نهاية كـل درس . ولكنها كانت معفية مـن الضرائب .

ثم اصبح الجيل الجديد عماد المدينة وروحهـا وكبرت تلميذات دروس الرسم وتفرقت بهن السبـل ولم تعد بناتهن يترددن على المرسم بعلب الالـوان والريشات المزعجة والصور المقتطفة مـن مجـلات السيدات . وانغلق الباب بعد تخرج آخر تلميذة وظل كذلك نهائيـا . وحينمـا حصلت المدينة على حـق توزيـع البريد مجانا كانت الآنسة اميلي هي الوحيدة التي رفضت ان يسجـل رقم فـوق باب دارها وان يثبت فوقه صندوق للرسائـل . وفشلت سائـر المحاولات لاقناعهـا .

وكنا ، في كل يوم و في كل شهـر وفي كل سنة ، نشاهد الزنجي حينما يدخل الى الدار ويخرج منهـا حاملا سلة لقضاء الاغراض من السـوق ، وشعره خلال تلـك المـدة كلهـا يـزداد بياضـا ، وظهـره يزداد تقوسا . وفي شهر كانون الاول كنا دائما نرسل اليها ورقة الضرائب ، ولكن ادارة البريد كانت تعيدها الينا مع هذه الملاحظة : لم يأت لاستلامها احد . وكنـا نشاهدها بين الحيـن والآخر في احـدى نوافذ الطابق

الارضي — كانت طبعـا قـد اغلقت الطابق الاول — وكانت تبدو لنا مثل القسم العلوي من صنم منحوت موضـوع في مشكاة ولم نكن ندري فيما اذا كانت تنظـر الينا ام لا . وهكذا بقيت على مر الاجيال ، عزيـزة الجانب ، غامضة ، محافظة علـى هدوئهـا وغرابـة اطوارهـا .

ثم ماتت . لقد اصيبت بالمرض في الدار التـي امتلأت بالظلال والغبار ولم يكن ليساعدها سـوى الزنجي الذي نفذت قواه . ولم نسمع حتى بمرضهـا فقد انقطعنـا منذ زمـن بعيد عن تلقي اخبارها مـن الزنجي الذي لم يعد يكلم احدا ، وربما لم يعد يكلمها هي ايضا لانه قد بح صوته وجش من قلة الاستعمال .

وجاء الزنجي الى الباب ليستقبل اولى السيدات فادخلهن — باصواتهن المنخفضة ونظراتهن السريعـة الخاطفة — ثم اختفى عن الانظار : لقد اجتاز الدار كلها واخرج من الجانب الخلفي ، ولم نعد نراه ابدا .

ووصلت بنتا العم في الحيـن ، فقامتا بتنظيـم مراسيـم الدفن في اليوم الثاني . وجاء سكان المدينة باسرهم ، لمشاهدة الآنسة اميلي التي كانت مسجـاة تحت كومة من الازهار . وكانت صورة والدها تبـدو فوق النعش وكأنها مستغرقـة في الاحلام . وامـا السيدات فقد كن يتبادلن الاحاديث عن الموت بصوت منخفض ، واما الرجال المسنون فقـد ملأوا البهـو والحديقة وكان البعض منهم قد ارتـدى بـدلات الكونفيدراليـة الانيقة ، وكانوا يتحدثون عن الآنسة اميلي كما لو انها كانت معاصرة لهم وهم يتخيلون انهم راقصوها في صباها او ربما غازلوها . وهم انما يفعلون ذلك لانهم فقدوا الشعور بفكرة الزمـن وبتقدمـه المستمـر ، كما يفعل سائر الشيوخ الذين يعتقـدون بأن الماضي لا يشبه طريقا يتناقص في الطـول ، بـل هو على العكس من ذلك عبارة عن مرج واسع لا يصـل اليه فصل الشتـاء . ولكن السنوات العشر الاخيرة من حياتهم كانت قد فصلتهم عن هذا المرج . وكم تشبه تلك السنـوات العشر الاخيرة عنق القنينة الضيق !

كنـا نعلم بانه توجد في الطابـق الاول غرفـة لم تفتح منذ اربعيـن سنة ، وانه يجب علينا ان نحطـم بابهـا . وانتظرنـا قبل فتحها ان يتم دفـن الآنسـة اميلي بالشكـل اللائـق .

وحينما حطمنا البـاب بدفعة عنيفة وجدنا ان الغرفة مملوءة بغبار اخذ بخناقنـا من كـل جانب .

وخيل الينا ان مدخنة ذات رائحة قوية مخرشة قد افرغ ما فيها ونشر على كل ما يوجد في هذه الغرفة التي زينت واثثت وكأنها قد اعدت لليلة العرس : على الستائر الدمشقية ذات اللون الوردي الباهت ، وعلى مصابيح الاباجورات الوردية ، وعلى طاولة الزينة وعلى الادوات الناعمة المصنوعة من البلور وعلى العلبة التي توجد فيها ادوات الحلاقة بغطائها الفضي الباهت ، بل ان لون الغطاء باهت الى درجة ان الاحرف التي رسمت عليه لا تكاد تظهر . وكانت توجد ايضا داخل هذه العلبة قبة قميص وربطة عنق ، وكانت موضوعة بشكل يجعل الانسان يعتقد بأن صاحبها قد خلعها منذ وقت قريب . وحينما رفعناها من مكانها ، تركت في الغبار اثرا اصفر اللون . اما الثوب فقد طوي بعناية ووضع فوق الكرسي . وكانت الجوارب والاحذية مرمية تحت الكرسي ، وكانت بكماء لا تحير كلاما .

واما الرجل بالذات ، فقد كان نائما على السرير .

وبقينا مدة طويلة جامدين ، ونحن ننظر الى ضحكته الساخرة العميقة التي ارتسمت على الفم الخالي من اللحم . ومما لاحظناه أن جسمه كان لابد انه اتخذ بعض الوقت وضعية العناق ، ولكن النوم الاخير الذي يبقى بعد الحب ، النوم الذي استطاع ان ينتصر على ضحكة الحب ، هذا النوم اخذه على حين غفلة . وما بقي من ذلك الجسد الذي تفسخ تحت بقايا قميص النوم ، اصبح يشكل وحدة واتصالا مع التخت الذي نام عليه . وتشكلت فوقه وفوق الوسادة بالقرب منه ، طبقة متساوية السمك من الغبار العنيد .

ولاحظنا حينذاك ان اثر راس قد شكل حفرة في الوسادة الاخرى . وامسك احدنا فوق الوسادة شيئا ما ، وحينما انحنينا وبدا الغبار الناعم الممتنع عن اللمس يملا خياشيمنا برائحته الجافة المخرشة ، لاحظنا بان ذلك الشيء هو شعرة ، شعرة طويلة لونها رمادي كلون الحديد .

الجزائر ـ حنفي بنعيسي



مناقشات

مع قصيدتي التواتي والحلوي

بقلم : الأستاذ ابشر دفعه محمد

مجرد راي ، هذا الحديث المقتضب عن قصائد العدد الثاني ، انه مجرد خواطر .. وليس نقدا ، بالمعنى المالوف لكلمة نقد ، انه ، وبالحاح ، مجرد راي .. راي رجل عادي يستهلك الادب ، ويتذوقه ..

وقد حفزني الى كتابة بواعث عدة ، منها ان القصائد المنشورة بهذا العدد ، خرجت على العموم ، عن الكليشيه الدائم الذي يكاد ادباؤنا ، ولا سيما الكبار منهم ، يكرسون له كل نشاطهم الادبي ، واعني به ادب المناسبة ، اية كانت هذه المناسبة ..

ان ثلاث قصائد من الاربع المنشورة ، لاتتصل بسبب ما ، باية حركة او زمن ، بل هي تجارب تعالج قضايا يمكن معالجتها في اي زمان او مكان .. او هي تجارب تعالج قضية ما ..

* * *

العدد اذن ، يضم بين دفتيه اربع قصائد ، وقد وعد العنوان ان نتناولها كلها بالحديث ، الا اننا في الحقيقة ، لن نتحدث الا عن قصيدتين من اربع ..

وهما « سر الحياة » للشاعر التواتي و « عذراء» للشاعر الحلوي . (*)

* * *

لعل تقديم الاستاذ التواتي لقصيدته يعد بان تكون القصيدة رمزية ، ثرية الصور ، كثيفة عميقة ... فهل يوجد شيء من الرمزية والتصوير الشعري في هذه القصيدة ؟

اهي كثيفة المضمون ، عميقته ، كثافة وعمق التقديم ؟ اتضم بين تضاعيفها شيئا عن هذا التقابل الجميل بين الخلايا البانية ، والخلايا المحطمة ؟ بين الانماط البشرية المنتجة ، والانماط الاخرى المستهلكة

ان الفكرة الرئيسية التي تستند اليها القصيدة ، وتاخذها كمنطلق الى التجربة ، فكرة تمس المشكلة الاخلاقية في الوتر الحساس ، فالقصيدة ، تستند ، وتساند بوضوح ، نظرية الخير المطلق ، الخير لنفسه ، بقطع النظر عن الجزاءات .

فالشاعر ، في قصيدته ، ملتزم ، اذن ، وهو يعتنق فيها ، وعى ام لم يع ، مذهب الفن للاخلاق ..

ورغم ان فكرته هذه عظيمة ، الى حد انها ربما كانت ابرز اساس لظهور الفن الملتزم الهادف ، او كما يسميه النقاد الفن للحياة ، رغم عظمة هذه الفكرة فنحن لن نقيم القصيدة تبعا لها ، لان الفن العظيم ، ولا سيما في ميدان الشعر ، ليس بذي ارتباط بالفكرة او الموضوع الذي يعالجه ، بل بالعناصر الجمالية التي تكمن فيه ، ولو كان يتناول اتفه الموضوعات ..

كما اننا لن نؤاخذ المنتج على ان الفكرة تناولها الفن ، في شتى ميادينه ، منذ شيوع مذاهب الالتزام ، بل وحتى قبل شيوعها ، لن نؤاخذ الاديب على ذلك ابدا ، لان هذه المؤاخذة ليست من حقنا ، فالموضوع ، عادة مادة خام مشاعة للجميع ..

انما الذي نؤاخذه عليه ، هو مدى اصالة تجربته ، ومدى تكافئها مع الموضوع الضخم الذي اراده .. نؤاخذه على مدى جودة العناصر الجمالية والاجواء النفسية التي بسطها لنا على مائدته الشاسعة ..

(*) راجع القصيدتين في العدد الثاني من هذه السنة

نؤاخذه على مدى ترابط القصيدة العضوي كما يقول النقد الحديث ، او وحدة القصيد كما يقول النقد الكلاسيكي ..

فهل هناك وحدة ؟ هل هناك ترابط عضوي بين ابيات القصيدة ، هل تم ائتلاف وانسجام بين تضاعيفها ، هل تخلق في قارئها جوا نفسيا معينا .. هل كان الشاعر موفقا في ملء الثغرات عبرها ؟ او بابسط تعبير ، هل عاش الشاعر تجربته وعاناها بالصبر والاناة اللازمين ؟ لنعبر القصيدة اذن لنرى ماذا فيها من عناصر جمالية شكلا ومضمونا :

❊ ❊ ❊

يبدو لي ان الشاعر يرمز بالبحر الى « المجال » اي الى « الانا » في احتكاكها بالانوات الاخرى ، وبالاشياء والاحداث ، مؤثرة ومتأثرة ، في ديناميه مستمرة .

كما يرمز بالنهر الى الانا ، اي الى الشاعر نفسه ، لان الشاعر ينصهر في « المجال » بالمفهوم الذي اشير اليه ، ومنه ينطلق ، واليه يؤوب ، كما ينطلق النهر من البحر ويؤوب اليه .

وليس ضروريا ان يكون الشاعر رمى ، واعيا ، الى الحلولية العميقة الايحاء ، التي تشيع في الرمز المشار اليه ، ولا يعنينا هل قصد الى اتخاذ هذا الرمز كخط رفيع يربط بين سطح القصيدة وخلاياها الخفية ... ام لا ..

لايعنينا اكان الشاعر واعيا ام لم يكن ، فمن حقنا ، ان لم يكن من واجبنا ، ان نؤول اثرا ادبيا ماءعلى النحو الذي نرتئيه ، مادام هذا التاويل لايتجنى على الاثر .

بل ان مطلع القصيدة يوفر لنا بعض الدلائل التي توجب علينا الاخذ بهذا الرمز .. وتكاد تؤكد ان تاويلنا للاثر على هذا النحو لم يكن اعتباطا ...

.. وشكا النهر للمحيط فاصغى في سكون ويقظة واناة

فهذه الواو والمسبوقة بنقط ، والتي تاخذ بقفا المطلع ، تدل بعمق على استمرار الحياة ، اي ان النهر (الشاعر) ، الذي يتحدث ، لم يات الا بعد قطع اشواط بعيدة مما يتحدث عنه ، ويشير بالواو والنقطتين الى انه لا يستطيع ان يتحدث او يعبر عنها ، ويترك للمتذوق ان يتخيلها عملاقا يمتد من النقطة الاولى الى الوراء ...

وكلمة المحيط ، التي استعملها الشاعر «النهر» في المطلع بدل البحر ؟ اليست مرادفة للبيئة التي يقرب مفهومها من مفهوم المجال ، حتى عند علماء النفس ، وعلماء المجال ، الذين يحرصون على تحديد مدلول الالفاظ .

واخيرا ، هذا الاصغاء الساكن اليقظ المتأني الذي يصف به البحر «المجال» هل الشاعر مخبول حتى يسوق مثل هذه الاوصاف لبحر حقيقي ، وهو يعلم ان نسبة كبيرة من صائدي الاسماك ، ينتهي بهم الامر لفقد السمع ، لصخب البحر ، او يبتلعهم شبابا لعدم اناته .. واستحالة سكونه ..

نحن ، اذا ، ازاء بيت من الشعر قد يستهان به ، ويعتبر من اسف انواع الشعر ، لو اغفلنا هذه الرمزية القوية الايحاء التي تسربله ..

فلتتمسك بها ، رمى الشاعر ام لم يرم اليها ، ولنحاسبه فقط عن مدى احتفاظه بهذا المستوى العالي في قصيدته ، عن مدى وفائه او تنكره للرمزية في تضاعيفها ، عن مدى ارتجاله ؟ واناته وهو يعانيها .

يبدا « النهر » شكاته مباشرة بعد هذا المطلع الجيد ، فانظر الى شكواه كيف بداها ، وهل هي منسجمة مع المطلع :

قال :

يا اصل مالنا نغرق الكون دواما بمغريات الحياة ؟

انه لازال ذا صلة بالرمزية التي تلهب المطلع ، لولا هذه « الدواما » التي يلوح ، من بعيد ، انها احتلت مقعدا لم يهيأ لها الا اضطرارا حتى ليخيل الي ان مكانها شاغر ..

ويستمر الشاعر في شكواه ، لم تتدفق عليه ، وتكتسحه ، تماما كما يكتسح الطوفان النهر ، فتمتد مياهه المشوبة بالقش ، والشوك ، والجثث ، وتصبح جسما ملتحما مع النجد والصفصاف .

ان الشكوى اجفلت بالشاعر فلم يستطع ان يكبح جماحها ، فالى اية هاوية ساقته ؟ ان جماح شكواه ادى به الى التنكر الى نفسه ، فكررها ، وناقضها ، وانحط بها الى الارض ، بعد ان انطلقت من اجواء عالية ..

سطر الشاعر بضعة ابيات يمكن اعتبارها ، على نحو ما ، منسجمة مع اجواء التجربة كما انطلق بها :

ونحيل الحياة غراء تسبي بسناها ضمائر الكائنات؟
والبرايا لولا حمانا هباء والوجود الجميل لحن شكاة؟

ربما اغرانا بالوثوق من ان الشاعر لا زال ينشد التكامل لرمزية قصيدته ، ما في « نحيل الحياة غراء » من اشارة الى تضافر ، المجال ، والشاعر ، في خلق الفن الجميل ، الذي يسبي ويسحر ضمائر الكائنات .. وما في « البرايا ، لولا حمانا هباء » فالانسان الذي لايتوفر على العاطفة الاستاطيقية ، انسان غير متكامل ، والشاعر ، ومحيطه ، او بالتعميم الفنان ومحيطه ، هما اللذان ينميان هذه العاطفة ويرعيانها ..

ولكنه لايمضي الا قليلا حتى يتنكر الى تجربته ، والى نفسه ، كما سبق ، فيضطر الى تسجيل ابيات في القصيدة لا مبرر لها .

ثم لننظر الى البيتين التاليين ، انهما معنى واحد في قالبين ، مع استعمال اسم الفاعل من ضاع يضوع وهو غير مستعمل .. ثم انظر الى هذا البيت :

اترى الارض يا ابي والبرايا عرفوا سرنا وسر الحياة؟

انني اكاد اجزم انني لم اكن موفقا في تاويل مطلع القصيدة ، لان في البيت تنكرا بينا .. لان الشاعر لو رمى ولو نصف واع ، الى الرمز بالبحر والنهر الى ما اشرنا اليه ، لكان يدرك في قرارة نفسه ، تلقائيا ، ان البرايا هي اهم عناصر « المجال » وهي التي تلهمه ، ثم تستهلكه ، ولما تساءل هل هي تعرف سر الحياة ، لانها هي نفسها وهو ضمنها ، سر الحياة .

ان هذا البيت قطع صلة ما بعده بما قبله ، بل وخلق موضوعا جديدا ، يصلح لقصيدة اخرى .. وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يتملص فيها الشاعر من موضوعه ، وينخرط في موضوع آخر ، بل ان ذلك يتكرر بكيفية توحي بان الشاعر يعمد الى ذلك باصرار ، وكأني به يريد ان تكون قصيدته طويلة ، حتى ولو على حساب اعصابنا .

ايريد الشاعر ان يثبت لنا انه متوفر على ما كان يسمى في النقد الكلاسيكي بطول النفس .. اذا كان الشاعر يريد ان يثبت لنا ذلك فليتأكد من ان طول النفس لم يعد يفيده الااذا كان من هواة صيد الاسماك بالحربة ، اما في الشعر ، فلم تعد الاثار الشعرية تقيم بالكم ، بل بالكيف ، لان الزمن الذي كان فيه الشاعر يرتجل قصيدته على اناس بسطاء ، ساذجي الثقافة الفنية ، قد مضى ، مضى الزمن الذي لم يكن يتاح للمستمع فرصة امعان الفكر في بيت ، حتى يفاجأ بآخر .. فلا يكاد يفطن الى ان الشاعر انتقل من موضوعه ، او ناقض نفسه .. مضى الزمن الذي كان الناقد يجعل رجلا اشعر الناس من اجل بيت .. واتى زمن انتشرت فيه الطباعة وعممت فيه الثقافة ، وتمت العاطفة الجمالية بين كافة الطبقات ، وارتبط العلم والفن والثقافة بالخبز .... فما معنى انتقال الشاعر بقرائه في قصيدة واحدة من موضوع الى آخر ، في هذا العصر ، الا احدى حالتين : اما ان يكون الشاعر يحتقر مستهلكيه ، او انه ليس عنده ما يقول : والا فما معنى ان ياتي الشاعر التواتي بعدة موضوعات في اثر واحد ، هل نحن لازلنا في عصر طرفة والنابغة ؟ وما معنى ان يكرر المعنى الواحد في عدة صيغ :

واراانا — ابي — نواصل، لاادري لماذا ، طريقنا في صمات
نحن مازلنا — في جنون — نحث السير لاننثني عن الخطوات
نصل الليل بالنهار دؤوبين على السير في خطى ثابتات

هل هناك اي فرق بين مدلول اي بيت وآخر من الابيات الثلاثة السابقة ، وليتها كانت المرة الوحيدة التي يرتكب فيها هذا ، عبر قصيدته ، انها تتكرر بفظاعة .

فما الذي دعا الشاعر الى تكرير معانيه هل يتصور اننا لن نفهم ما يقول لو صاغه في قالب واحد .. فليثق اننا ، كمتذوقين ، حتى ازاء الشعر الغامض ، نلتذ بالاحتراق في سبيل فهم ما يرمي اليه الشاعر ، ونعتز بالشاعر الذي يرمز الى المعنى ، ويترك لنا المجال لمتابعته ، اقول نعتز بهذا الشاعر لاننا نشعر انه يشركنا في اجوائه ، ويعتبر قدرتنا على الفهم .

ام ان الشاعر التواتي يريد فقط ان يثبت لنا انه متوفر على ملكة لغوية واسعة تساعده على أن يصوغ المعنى الواحد في عدة اشكال ..

اذا كان هذا ما يرمي اليه ، فليتأكد من اننا مقتنعون به ، ونزيد في تقديرنا لملكته اللغوية لو قال لنا ، بدقة ، ما يجمل ان يقال ، ولم يملأ علينا جسم قصائده بكل ما يخطر له .

وليتأكد الاخ التواتي انه لو اكتفى بموضوعه ، وقصد الى التكامل والتكافؤ بين تجربته ، والجو الذي بداها به ، لأتانا بتجربة ناجحة ، ولما اوقعه ارتجاله في هذه الهفوات التي شوهتها كانتحاله جموعا غير موجودة

في قواميس اللغة كسافنات بدلا من سوافن ، وعزمات بدلا من عزائم اضطرارا لوزن او قافية ابيات هي نفسها ، بمدلولها وشكلها مما شوه القصيدة : ولما اتي بمثل هذه العبارة العامية : « ومضت ساعة واخرى تلتها » ، ولعله لو عاد الى تجربته ، متانيا كاصفاء بحره، ومتخليا ـ ولو موقتا ـ عن « نرجسيته » ومتهيئا نفسانيا ، لهذه العودة ، كما يتهيأ المرء لقراءة غيره ؛ اقول لو عاد اليها وحاول جادا ان يشذ بها مما اكتنفها من اعلاق ، لجعلها اسلم مما هي عليه .. لان شاعريته لو اراد تسمح له بذلك .

* * *

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن قصيدة الشاعر التواتي ، وننتقل الى الحديث عن الشاعر الحلوي .

والشاعر الحلوي لا يحتاج الى تقديم ، ومكانته في الادب المغربي المعاصر تعلن عن نفسها ، فقد عاش فترات قاسية ، وظروفا شاذة مظلمة ، ايام الاحتلال ، وعبر عنها ، وعاش ظروفا اخرى متناقضا بعد الاستقلال وعبر عنها ، وهو في شعره الحماسي يصول ويجول ..

وقصيدته « عذراء » التي نشرها في العدد الثاني ، رغم انها ابتعدت عن الميدان الذي يملك فيه الناصية ، الا انها اتسمت بنفس القيم التي تتوفر في شعره ، من قوة في التعبير ، ووضوح في المدلول ، مع تخير للفظة المناسبة ، ومحافظة على مستوى الاثر من الناحية الشكلية على الاقل ..

اما من حيث المضمون فافضل ان اناقش مع الاستاذ الحلوي بقدر الامكان ..

* * *

منذ قراءتي الاولى لقصيدة الشاعر الحلوي « طالعتني » ثغرة فادحة في مطلعها ، لدرجة انني تمنيت لو استغنى الشاعر عن هذا المطلع ، سيما وانا لن نخسر شيئا ، فالعنوان ينوب عنه بما فيه الكفاية . يقول الشاعر :

تلفتت ظبية (كدت اكتب مطلع شوقي) :

تلفتت لفتة الظبي الذي ذعرا
عذراء تنفر ممن مس . .

الى حد هنا لا زالت الامة بخير ، فالثغرة المشار اليها تكمن في قفل البيت : .. او نظرا .

اذ ان العذراء ، والانثى عموما ، لا تنفر ابدا ممن ينظر اليها ، بل هي تقضي الساعات الطوال في التزين والتحلي قبل ان تخرج .. وهي تعلم انها لا تفعل ذلك الا لتجلب الانظار اليها ..

ولعل الاستاذ الحلوي اعلم منا بامراة جميلة ، عاشت في صدر الاسلام ، حفظ التاريخ انها كانت « تتبرج » عمدا ، ليراها الناس ، وتعتذر لمن يلومها بانها حباها الله مسحة من جمال ومن الكفر بنعمته ان تخفيها عن الناس .

فكيف بالعذراء في عصر السفور والتبرج ، اضف الى ذلك ان النظر اليها يفرض غاية نفعية ، لانها عذراء، وكل عذراء تنتظر خطيبا ، وخطاب اليوم لم يعودوا عميانا .

فحبذا لو حذف هذا البيت ، لانه ، حتى لو لم تخترمه هذه الثغرة ، لا يليق ان يجاور ما بعده :

تلفتت فرات صبا يلاحقها
بطرفه وجرت مرتاعة فجرى

ان التصوير الشعري الجميل ، الذي يشيع في هذا البيت ، يكاد يجسم المنظر امام القارىء كانه يراه ... ثم انظر معي الى البيت الذي بعده ، وما فيه من خطابية وتقرير ، فضلا عن انتقال الشاعر من التحدث عن العذراء بضمير الغائبة الى مخاطبة ملاحقها ثم انظر اليه كيف انتقل ، مباشرة ، الى اتمام اوصاف العذراء . ثم امعن معي النظر في هذين البيتين:

حرت أمامك في تيه وفي خفر
واطمعتك فلم تلحق لها اثرا

وطفاء وارفة الاهداب ترمق كالـ
ـوسنى لتحجب عن عشاقها الحورا

فبعد ان وصف الشاعر العذراء بانها تنفر ممن ينظر اليها ، عاد فاتهمها ، وبكل وضوح ، بانها اطمعت صاحبها ، وبانها تعرف ان لها عشاقا كثيرين تتصنع وضعا معينا لعينيها لكي تخفي عنهم حورها .. اتكون الفتاة لا ترتاح الى من ينظر اليها ، وتنفر منه ، ثم في نفس الوقت : تغرر بفتى ، وتطمعه ، ثم تهرب وتعرف ان لها عشاقا يرمقونها وتمر بينهم كانها نائمة .

ان هذا التناقض ليس بيته ، عند الاستاذ الحلوي الا ثلاثة ابيات من الشعر .. ثم هذا البيت :

حوراء ضاقت برضوان وجنته
والحور والحسن منظوما ومنتثرا

لعل الشاعر يريد برضوان وجنته ، ابا الفتاة وبيتها ، ولكن كيف نحلل اللغز الذي يكمن وراء عجز هذا البيت هل اضطره اتمام البيت الى حشد شطر كامل ، ليس له مدلول .

ثم انتظر ، انني اكاد اصعق ، انظر الى هذا البيت :

تبسمت فاضاء الليل مبسمها :

العل الفتاة التي تنفر من النظر قد استغفلت ابويها ، وخرجت من البيت ، وبالليل ، لتسابق الشبان في الازقة المظلمة .
ام ان الشاعر انتحل الليل ، فقط ، ليهول علينا بهذه المبالغة التي جعلت ابتسامتها تضيء الليل كله .
ولنكمل البيت :
سبحان الله ، تحول اشعاع العذراء فجأة وبدون مناسبة ، وشع لي من الصب الملاحق ، الى الشاعر الهادىء ، وباليته وقف عند هذا الحد ، بل انه جعل الشاعر مدنفا مريضا : بها ، اي بحبها :
ــ وانا المضني بها ــ قمرا
يخيل الي ان الشاعر انتقل بنا من تجربة الى اخرى ... فلنمض :

كبرت لما رايت الفجر قد سطعت
آياته ، ولمحت البشر قد غمرا

كنت اوشك ان انتهي من الحديث ، حين انتقل الشاعر ، بدون مناسبة ، من تجربته .. ولكن الشاعر كبر ، فلا اقل من ان ننتظر الصلاة معه .. فلننظر اليه كيف شبه اسنان العذراء بالبتلات :

فم تفتح عن ماس كما انفتحت
براعم الزهر عن بتلاتها دررا

انني خلال كل انطباعاتي عن الزهور وبتلاتها لم اعرف من الزهر الا الذي بتلاته داكنة سمراء كاسنان الحشاشين .
وينهي الشاعر اوصافه التي زفها الى العذراء ، او تنتهي به الاوصاف التي يمكن أن تقال في مثل هذا المقام الى هذه الصورة الشعرية المتكاملة .

ربيبة الشمس لا تلقاك كاسفة
ولا ترد اليك الطرف متحسرا

فهنا نجد شاعرية الحلوي قد وقفت الى خلق تشبيه ينبض بالحياة والعمق ، فالفتاة الجميلة سافرة لا يستر وجهها النقاب ، ولكنها لا ترد الطرف متحسرا .

وفي البيت ما يناقض المطلع ، ولعل الشاعر رجع الى الواقع فعبر عنه ، ثم يستمر الشاعر في قصيدته يتحدث عن اشواقه ، وعن حبه المثالي ، وعن عذابه في هذا الحب العذري الى ان يصل الى هذا البيت الذي يفضح التكلف الذي تتسم به القصيدة كلها :

حملت صدري منها ما يضيق به
صدر الولوع ، وما يهذي به الشعرا

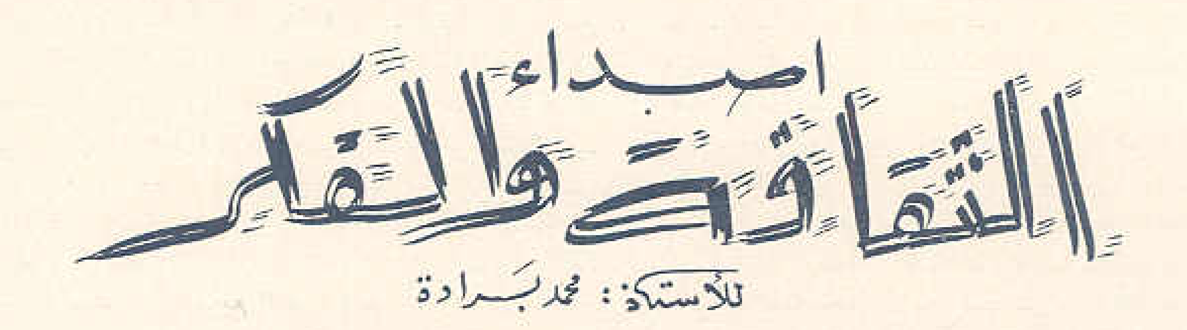
انه حمل قلبه فوق طاقته ، في حبها الى درجة انه احبها حب الشعراء ، وهو يعلم ان وفاء الشعراء في الحب العذري نادر جدا ، ولم يعرف منه تاريخ البشرية الا حالات معدودة ...

ثم يستمر الشاعر ينسج على هذه النغمة الى نهاية القصيدة .. ونحن لو اعدنا قراءة القصيدة وامعنا فيها النظر ، رغم انها تنفر من النظر اليها ، سنتاكد من ان الشاعر كتب لنا قصيدتين كل منهما لم يلق حظه من اهتمام الشاعر ، ولعل السبب في ذلك ، ان الشاعر لا يجد صعوبة ما في نظم قصائده ، فيكتبها وبمجرد انتهائه من تسويدها يدفعها للنشر ، وذلك لطول ممارسته للنظم ، والقارىء المتذوق يستطيع ان يستشف من انتاج الاستاذ الحلوي انه لا يعاني مشقة ما في قرض الشعر .

فليعلم الاستاذ الحلوي أن السهولة علامة سيئة، في عرف علماء الجمال ، اذ هي دليل قطعي على ان الشاعر لا يتجاوب نفسانيا مع ما ينتج ، ثم انني اتساءل هل يكلف شاعرنا نفسه مشقة اعادة اثره ، بعد انتهاء فترة الابداع ، محاولا ان يكون متذوقا عاديا، يحاول ان يكيف ما وقع فيه ، في اللاوعي ، من تناقض أو تشويش في صلب تجربته المحققة ، ام يكتفي بسهولة انثيال الشعر عليه .

وارجو ان يطالعنا الاستاذان بتجارب عانياها بعناية اكبر .

القنيطرة ــ ابن دفعة محمد



للأستاذ : محمد برادة

الحصـاد الـرائـع

اتحفتنا صفحة الادب لجريدة الاهرام بتقريـر ضاف عـن منجـزات الآداب والفنـون والثقافـة فى الجمهورية العربية المتحدة خلال سنة 1962 ، وكل من يقرا هذا التقرير لا يملك الا ان يصفق اعجابا وتقديـرا للاعمال الجبارة التي حققها الادباء والفنانون بالتعاون مع وزارة الثقافـة . والتقرير يكشف عن ظاهرتيـن هامتيـن :

1) حيوية المثقفين والادباء بالجمهورية العربيـة المتحدة : يشهد على ذلك المعركة التى دارت حول فـن نجيب محفوظ بمناسبـة صـدور روايتـه « اللـص والكلاب » ، فقد ناقش النقاد من خلالها الاسلوب الفني لنجيب محفوظ والمدرسة التي ينتسب اليها ..

والمعركة الثانية كـان محـورها الادب القومـي والادب الانسـاني ، وهـل يتحتم عقـد اتصال منظـم بمختلف المذاهب والمدارس الفكرية فى العالم ، ام يكتفى باستيحاء الشخصية العربية وتنميتهـا ؟ .

ومن خلال المناقشات اجمع معظم المفكريـن على ان متابعة تطورات الفكر الانساني ضرورة حتمية لكل نمـو سليـم .

ونشبت معركة اخرى عن ازمة النقـد فى الادب العربي ، اثارها فريق ممن يلاحظون انعدام الاخـلاص عند النقاد ، وانحرافهم عن جادة الصواب .. وكـانت هناك مبارزات بين انصار الشعر التقليدي والشعـر الحديث .. وكل هذه المعارك المثمرة تشهد على حيوية الفكر العربي فى الجمهورية ، وتحفزه لتعميق الابعـاد ، وتاصيـل التجربـة .

2) جـدوى التخطيطات الثقافيـة :

رغم ان الثقافة تتميز بكونها تعبيرا حرا عـن نشاطات الافراد فى المجتمع ، وتصويرا لاحساساتهم وردود فعلهم ازاء مختلف المظاهر الحضارية ، فـان وضع التخطيطات من اجل ازدهارها ـ وبخاصة فـي الشعوب النامية ـ يعد لبنة اساسية تمهد الطريـق لتحقيق وثبات راسخـة البنيـان . الا ان التخطيـط الثقافي يجب الا يستهدف خدمة اغـراض سياسيـة عاجلة ، بل يجب ان يتوخى بلورة الشخصية القومية ، وفتح آفاق النمو السليم امامها ..

ومن خلال عرض بعض مشروعات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية ، يتبين لنا مـدى فعاليـة هـذه المساعدة ، فقد تقرر وضـع « دائـرة معـارف الفكـر الانساني » تشمل الفكر الديني ، والفلسفي ، والقانوني، والاقتصادي ، والسياسي ، والاجتماعي ، والعلمـي ، والادبـي ، والفنـي ، وشكلت لجن من المختصيـن لتنفيذ المشروع ، كما انها اصدرت سلاسل ثقافيـة ناجحة مثل سلسلة روائع المسرح العالمي ، واعـلام العرب ، وسلسلة الكتب الثقافية ...

والى جانب ما تقدم هناك مجلس الفنون والاداب، وهناك المهرجانات الثقافيـة والمؤتمـرات ، والنهضـة المسرحية ، والبرنامج الثاني للاذاعـة الـذي اسهـم بنصيب وافر فى تقديم روائع المسرح العالمي ، والموسيقى الكلاسيكيـة ..

ان هـذا الـسيل مـن المشروعات والمنجـزات ، والعدد الضخم من الكتب والمجلات التي اصدرتهـا القاهرة خلال السنة الفارطة ، يقيم الدليل الواضـح على المكانة الرفيعة التي اصبحت الثقافـة تحتلهـا في المجتمع العربي . ولا شك ان هذه المرحلة بما تتوخـاه مـن تنظيم وتخطيط ومسايـرة للمذهب الاشتراكـي العربي ، هي افضل بكثير من مرحلة ترك الحبل علـى الغارب ، واهمال الادباء والمفكرين .. فالثقافة بمفهومها الواسع صرح عظيم لايكفي المجهود الشخصي لبنائه ، وبخاصة في عصر سريع التطور ، مرتفع الوعي ...

وقد لاحظ التقرير بحق ، ان اشتمال « الميثاق » على اسس الثقافة والعلوم والفنون والادب في المجتمع ، رفع من معنوية المثقفين ، واشعرهم بخطـورة الـدور الملقى على عاتقهم .. وهو دور ايجابي ، يتحتـم ان يحتفظ ، دائما باستقلاله وتلقائيته ، كما جاء في الميثاق:

« حرية الكلمة هي التعبير عن حرية الفكر في اي صورة من صوره ، كذلك فان حرية الصحافة هي ابرز مظاهـر حريـة الكلمـة ويجب ان تتوافـر لها كـل الضمانات .. »

واريد ان اسجل ملاحظة اوحت لي بهـا قـراءة التقرير ، وهي ان عناصر الادباء الشباب المتوفرين على ثقافة متحررة متطورة ، لم يتبوأ بعد المكانة التي يجب ان تفسح لهم للمشاركـة في بنـاء صـرح الثقافـة الجديدة .. وما تزال هناك عناصر من محترفي الادب، تظاهرت بالتطور والاستعداد لتقبل المفاهيم الحديثة ، معانرواسبثقافتها وتكوينها يعوقانها عنالسير بالسرعة اللازمة .. ولعل الامر يتوقف على عنصر الزمن ، حتى تستطيع العناصر المثقفة الشابة ان تضاعف من زحفها، لاستلام زمام القيادة ، وترجمة افكار الجيل العربـي الصاعـد ...

... وحصـادنـا

وحصادنا صفر على اليسار كما يقولون .. عـدد الكتب التي صدرت هذه السنة يعد على الاصابـع .. موضوعاتهـا ليست من الاهميـة في شيء .. وعـدد المسرحيات قليل ، ومستواها لايرتفع الى المستـوى الفني والفكري المطلوب .. والموسيقى طغت عليهـا المناسبات ، والفنون التشكيلية منعدمـة ، والرسـم يسير ببطء .. صورة قاتمة ولكنها واقعية .. وكـل خطوطها تؤكد ان الثقافة لم تحتل بعد المكانة اللائقـة من قلوبنا وعقولنا .. ولم تفرض رسالتها في التوجيـه والخلق .. ومن ثم هذا التخلخل في الكيان القومـي ، والقلق والغموض في المشاعر الفردية .. فنحن شـعب يعيش عالة على الانتاج الثقافي للدول الاخرى .. نقرا للاوربيين والروسيين والامريكيين ، ولاخواننا العرب، ولكننـا لانعثر على ادب يعكس صـورة مجتمعنـا ، ويساعدنا على فهم ذواتنا .. هناك نشاط ثقافـي اذا تجاوزنا في استعمال اللفظة ، ولكنـه نشاط متهافت ، سريع ، قلما يخلف اثـرا عميقـا .. وكلنا شاعـرون بالازمة ، واكثرنا من التحدث عن اسبابها وظروفها .. ولكننا لم نقم بعد بأي عمل منظم لاذابة الجليد .. فـلا غرابة ان يكون حصادنا الثقافي لهذه السـنة هزيـلا .. واخشى ان يظل كذلك الى ما شاء الله ...

مسرحية المراة المتوحشة او مخاض شعب

تعرض حاليا بباريس مسرحية «المراة المتوحشة» للاديب الجزائري « كاتب ياسين » .. والحديث عـن هذه المسرحية يستلزم وقفة طويلة عند هذا الكـاتب الفنـي .. فهو ينتسب الى « جيل المأساة » من ابنـاء الجزائر .. لم يلتحق بالمدرسة الا في سن متاخرة ، ولم يتلق دراسة منظمة ، بل اضطر الى الانغمار في عبـاب المجتمع ليكسب قوته ، ثم هاجر الى فرنسا حيث تفاعل مع الحركة التقدمية ، واختمرت في نفسـه « المأساة » فاخذ يبحث عن شكل ادبي يسجل من خلاله مشاهدته وتجاوبه مـع المعركـة ..

وفي البداية نظم « كاتب ياسين » الشعر ، ولكنه سرعـان ما تخلى عنه مؤقتـا ليكتب روايـة بعنـوان « نجمـة » . وهذه الرواية اثارت انتباه النقـاد الـى موهبته ، ونزوعه الابتكـاري ، فكتبوا عنهـا مقـالات تحليلية ضافية ، واجمعوا على ان « نجمة » لا تخضـع للنمط الروائي المعـروف ، بـل هي بحث عـن تكنيك قصصي جديد يجمع بـين الشعـر والنثـر ، وبيـن الواقعيـة والرمـز ..

ولكن الطاقة الشعرية لكاتب ياسين لا تلبـث ان تلح عليه ، فيعود ليفسح لها المجال في شكل جديد هـو القالب المسرحي .. فقـد كتب مسرحيـة « الجثـة المحاصرة » «Le cadavre encerclé» مثلت على بعـض المسارح في بلجيكا وفرنسا .. والظاهـرة اللافتـة في انتاج هذا الاديب هو ان موضوعاته جميعها تنبع مـن

« الجزائر الماساة » في عفوية فنية لا تترك مجالا لطرح الاسئلة النقدية التقليدية : هل يتحتم على الاديب ان يلتزم ؟ ام تعطى له حرية الاختيار ؟ الخ .. فقد وجد وسط المعركة ، ومن معينها استقى اطاره وافكاره متحملا كل المسؤوليات المنوطة بالفنان من حيث توفير الشكل وامكانيات التعبير .. ويحدد « كاتب ياسين » مشكلة الشاعر قائلا :

« ان ماساة الشاعر تكمن في ان يوجد مرتبطا بخدمة معركة ثورية ، وهو الذي لا يستطيع ولا يجب ، ان ينتج من وحي مظاهر يوم واحد .. ان الشاعر هو الثورة في وضعها العاري ، وهو الحركة ذاتها للحياة في انفجار مستمر .. »

ولكن هذا التعارض بين ذاتية الفنان وروح الجماعة ، يمكن التغلب عليه اذا ما عرف الاديب كيف يصنع من فنه مزمارا يعزف « الحان المجموع » في غنائية لا تخلو من ذاتية متميزة ..

والواقع ان « كاتب ياسين » حقق هذا الهدف في مسرحيته الاخيرة « المراة المتوحشة » ؛ فموضوعها مستقى من ملحمة الثورة الجزائرية ، بما فيها من تضحية ودماء ومآسي وشكلها شعري ، ملغم بالايحاءات والتوترات الخصبة .. وبما لاتعثر في المسرحية على قصة مليئة بالحوادث ، وانما هي صورة مسطحة تجمع لحظات مكثفة مشحونة بالانفجارات .. انفجارات رصاص وقنابل الثوار ، وانفجارات المشاعر العنيفة في قلوب المشاهدين .. حقا كم كان الثمن باهظا ذلك الذي بذله ابناء الجزائر لاسترجاع كرامتهم ! .

لنستمع الى احد ابطال « المراة المتوحشة » يردد في مرارة وصدق :

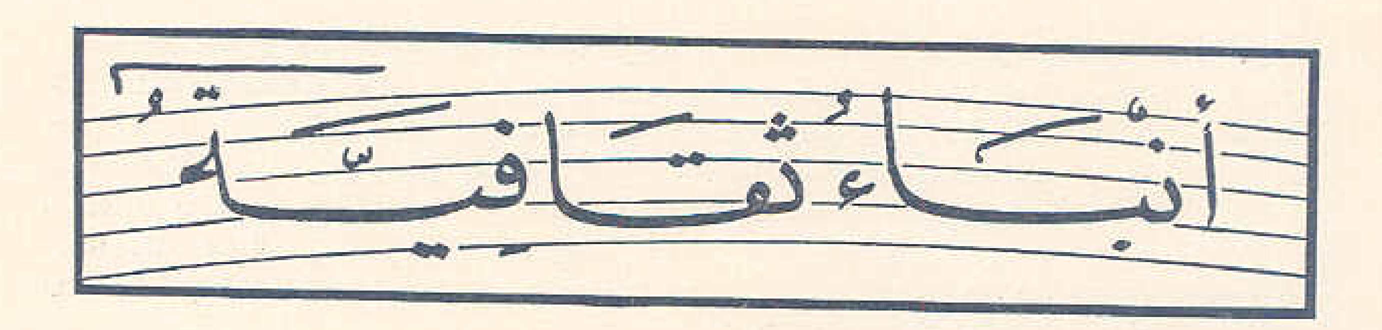
— « .. لكن الآن تغير كل شيء .. لم يبق لنا الا ان نتحمل العبء . لعل هذا عدل ، لاننا كنا نريد ان نقتص بدم الابرياء .. ان قنابلنا تمزقنا .. ولعل هذا عدل .. لكن ليس لنا ان نختار الوسائل ، لان الواحد منا يقاتل الفا .. »

ان « كاتب ياسين » لا يهتم بان يجذب القارىء او المشاهد ، عن طريق احداث مترابطة .. بل يكتفي بان يعرض شخصيات متمايزة لكل منها ابعادها وردود فعلها ..
هناك المجاهدون ، ونجمة المراة التي تبحث عن كرامتها المداسة عبر المعركة الثورية .. و « مارك » صاحب البار .. ومرغريت التي تتعاون مع الثوار لانها آمنت بعدالة قضيتهم .. هذا هو الاطار .. ومن خلال الحوار ، وتدخلات الجوقة ، نشرف على اغوار هذه الشخصيات التي تعكس لنا فترة حاسمة من حياة شعب الجزائر ..

ولا جدال في ان البناء المسرحي « للمراة المتوحشة » يستحق دراسة نقدية مفصلة لاظهار خصائص هذا الاسلوب الشعري الغنائي ، وامتزاجه بالحدث المختار ، للتعبير عن « افكار خطيرة » . ذلك ان « الافكار الخطيرة » كثيرا ما تحول العمل الفني الى منبر للخطابة والدعاية الوقتية اذا لم تتح لها رؤية فنية عميقة .. وقد استطاع « كاتب ياسين » ان يحقق لمسرحيته كل عناصر النجاح ... وهو يستعد بعد تمثيلها في باريس ، ان يعرضها في نفس المكان الذي جرت فيه حوادث المسرحية بالجزائر .. فهل يمكن ان يحظى المغرب بمشاهدة هذه الرائعة المسرحية ؟

ذلك ما نامل ان يتنبه اليه المسؤولون عن المسرح في بلادنا ..

الرباط : محمد برادة



* عين صاحب الجلالة الملك الاستاذ عبد الوهاب بن منصور في منصب مؤرخ الدولة وسيواصل الاستاذ ابن منصور القيام باشغاله العادية بالديوان الملكي الى جانب منصبه الجديد .

* علم ان جلالة الملك تبرع بمبلغ عشرة ملايين فرنك لاعادة تحويل جامع الباي بقسطنطينة الى صبغته الاسلامية، وقد كان هذا المسجد وهو من افخم مساجد القطر الشقيق قد حوله الفرنسيون خلال حكمهم الى كتدرائية ، وسيخصص قسم من التبرع الملكي لشراء مصاحف قرآنية وكتب دينية ، تحبس على المسجد المذكور باسم جلالة الملك المرحوم محمد الخامس .

* تراس جلالة الملك المعظم دروسا في التفسير والحديث خلال شهر رمضان المعظم . وقد شارك فيها علماء من المشرق الى جانب علماء المغرب .

* احيت الامة المغربية يوم الثلاثاء 10 رمضان الذكرى الثانية لوفاة المغفور له جلالة الملك محمد الخامس ، والقيت بهذه المناسبة امام جلالة الملك قصائد شعرية واحاديث وامداح دينية .

* صدر عن مطبعة القصر الملكي كتاب (نظم السلوك ، في ذكر الانبياء والخلفاء والملوك) نظم الشاعر المريني عبد العزيز الملزوزي وتحقيق الاستاذ عبد الوهاب بن منصور

* تطبع (دار الكتاب اللبناني) ببيروت كتاب « الحسن الثاني ملك المغرب » تاليف الكاتب الانجليزي روم لاندو ، تعريب الدكتور عمر فروخ .

* صدر عن المجمع العلمي العربي بدمشق كتاب «النفس» لابن باجة

* تبرع جلالة الملك الحسن الثاني بالف مجلد على مكتبة جامعة الجزائر ، ويعاد الى الذاكرة ان الفرنسيين احرقوا 600 الف مجلد من كتبها في العام الماضي

* صدر ظهير شريف بانشاء جامعة القرويين وأسندت عمادة هذه الجامعة الى السيد عبد السلام الفاسي رئيس مكتب الابحاث والارشادات بالقصر الملكي .

* حضر مشروع ظهير شريف بانشاء مجمع علمي مغربي يطلق عليه اسم (مجمع محمد الخامس).

* شرعت المطبعة الملكية في طبع الجزء السابع من كتاب (انبعاث امة) .

* الاستاذ محمد الامين محمد عضو البعثة الثقافية العربية ، واحد كتاب مجلتنا ، عاد اخيرا من اسبانيا بعد ان حصل على درجة الدكتوراة في الادب العربي من جامعة مدريد بامتياز ، وكان موضوع رسالته : « ابن السيد البطلبوسي ـ حياته ومؤلفاته » .

واسرة المجلة تهنىء الاخ محمد الامين وتتمنى له اطراد التوفيق والنجاح .

* قدم للطبع الاستاذ محمد العربي الخطابي كتابا عن التعليم يتناول مشكلة التربية والتعليم

في المغرب ويقدم آراء وحلولا يجعل التعليم مماشيا للتطور الانساني العام وممثلا لقيمنا الفكرية والاجتماعية .

* سافر الاستاذ عبد الله كنون الى مصر لحضور مؤتمر المجمع اللغوي العربي ولالقاء سلسلة من المحاضرات عن الادب المغربي في معهد الدراسات العربية العالمية التابع للجامعة العربية .

* سيقوم المجمع العلمي العراقي باعادة طبع خريطة الادريسي التي سبق للمجمع ان قام بتحقيقها منذ بضع سنوات .

* تأسست في الجزائر جمعية وطنية للنساء العربيات ترمي الى السهر على تكوين وتطوير النساء الجزائريات وقد انتخبت البطلة الجزائرية جميلة بوحريد رئيسة شرفية لهذه الجمعية ، بينما انتخبت السيد خديجة خيضر في منصب خليفة لها ، وقد اجرى هذا الانتخاب اثناء الدورة النهائية للمجلس الوطني التأسيسي .

* يقوم الاستاذ خالد الحلبي باعداد دراسة ادبية موسعة عن « الجزائر في الشعر العراقي » .

* قدم الكاتب التونسي محمد الحليوي للطبع مجموعة احاديث عن الادب التونسي بالاضافة الى رسائل ابي القاسم الشابي .

* يعتزم الاستاذ ابو القاسم كرو اصدار مجلة ثقافية تربوية جامعة بتونس باسم « الثقافة » .

* « قابس ، جنة الدنيا » عنوان كتاب جديد لمؤلفه محمد المرزوقي اصدرته مكتبة الخانجي بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ، والكتاب يبحث في تاريخ قابس .

* سيعقد في شهر ابريل القادم بتونس مؤتمر لوكالات الانباء يحضره مندوبون من حوالي ثلاثين بلدا افريقيا تحت اشراف منظمة اليونيسكو للبحث في تطوير وكالات الانباء في افريقيا وغيرها من الاقطار .

* زار تونس الاستاذ عادل الغضبان المستشار الثقافي لدار المعارف بمصر والقى هناك عدة محاضرات في مختلف النوادي الثقافية التونسية .

* صدرت في تونس مجلة « الالهام » وهي خاصة بالقصة .

* « موسى الكليم » لمؤلفها الهادي نعمان ، مسرحية صدرت اخيرا في تونس .

* اصدر الاديب الليبي محمد عبد السلام رواية « الايدي الخشنة » .

* يشتغل الاستاذ محمد فريد ابو حديد في وضع تخطيط شامل للتعليم بليبيا .

في القاهرة حوار متواصل حول كتاب « فلسفة تاريخ محمد » للاستاذ محمد جميل بيهم يدور بين السادة العلماء والاساتذة . برز هذا الحوار مذ صدر مقال الاستاذ محمود الشرقاوي في عدد اكتوبر 1962 بمجلة الازهر ، وهو قد قرظ هذا الكتاب ونقده . وعلق عليه في نفس العدد الشيخ عبد الرحيم فوره.

وفي العدد التالي للمجلة دار نقاش بين الاستاذ الشرقاوي والشيخ فوره ورافقه تعقيب للشيخ محمد سعاد جلال ، ورد للاستاذ محمد عبد القوي تناول فيه الشيخ ابراهيم فوره .

وقد شاء الاستاذ عبد الرحيم القناوي ان تكون له كلمة في هذا الحوار فنشر في عدد ديسمبر 1962 بمجلة الازهر تعقيبا واقتراحا . ولا ندري من بعد اذا كان هذا الحوار قد انتهى ام سيستمر باشتراك آخرين فيه ، ولكن الذي لا ريب فيه أن كتاب الاستاذ بيهم جدير بهذا الاهتمام .

* لاول مرة ادخلت اللغة الفرنسية للتدريس بها في جامعة الخرطوم ، ويتوقع ادخال اللغتين الالمانيتين والروسية في نفس الجامعة .

* قامت دار المعارف بالقاهرة باعادة طبع كتاب « جمهرة النسب » لابن حزم الاندلسي بتحقيق الاستاذ هارون .

* يقوم الاستاذ محمد عبد الله عنان بتكملة موسوعته الكبرى في تاريخ الاندلس ، وسيصدر له قريبا الجزء الاخير الذي يبحث في الموحدين والمرابطين .

✻ دعا المجلس الاعلى للعلوم بالقاهرة ستة علماء بارزين فى بريطانيا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الغربية للحضور الى القاهرة للمساهمة مع العلماء العرب فى تنفيذ بحوث الخطة العلمية للجمهورية العربية المتحدة .

✻ سافر عميد كلية الفلسفة والآثار فى جامعة مدريد الدكتور سلفادرو كوميس الى القاهرة لدراسة وثائق ومخطوطات المسلمين الذين حكموا اسبانيا فى العصور الوسطى .

✻ اعد الاستاذ محمود تيمور كتابا جديدا للطبع هو « أفانين » يضم طائفة من البحوث فى الادب واللغة»

✻ ستقوم وزارة الثقافة بالقاهرة باصدار كتاب « المعجم الكبير للالفاظ العالمية » للعلامة احمد تيمور الذي قام بتحقيقه الدكتور عبد الحميد يونس .

✻ قصة « ابراهيم الكاتب » للمازني ، ترجمها الى الانجليزية الدكتور مجدي وهبة ، وراجعها جونز .

✻ وافقت لجنة الفنون الشعبية برآسة الدكتور عبد العزيز الاهواني على طبع كتاب خيال الظل وتمثيليات بن دانيال ، لابراهيم حمادة .

✻ شيخ الازهر محمود شلتوت يقرا فى هذه الايام سيناريو ووثائق ومستندات فيلم يتناول انتاجه حياة النبي محمد (ص) . طلب مؤلفه الايراني زين الدين راهنما الذي يقيم فى لندن ، من شيخ الازهر ان يراجعه ويحقق وقائعه التاريخية ويصحح ما يحتاج منها الى تصحيح قبل عرضه .

✻ مجلس الآداب والفنون يقوم بمشروع لتعبئة روائع الشعر العربي فى اسطوانات باللغات الاجنبية ، بدأ المشروع بتعبئة قصيدتي «النيل» و «مجنون ليلى» لشوقي باللغة الايطالية .

✻ ترانيم الليل » عنوان الديوان الثالث الذي صدر للشاعر على الجندي .

✻ بمناسبة اقامة مهرجان الشاعر احمد محرم بمحافظة البحيرة قرر المحافظ طبع « الالياذة الاسلامية » الذي كتبها احمد محرم .

✻ « الادب القبطي » القديم والحديث كتاب جديد اصدره محمد السيد كيلاني يضم دراسة وترجمة لمشاهير شعراء الاقباط .

✻ « المساء الاخير » مجموعة من النثر الغنائي، و « لغة الحوار العالمية والفصحى » ودراسات فى الادب العربي المعاصر » ثلاث كتب تصدر قريبا ليوسف الشاروني .

✻ قامت احدى مكاتب القاهرة باعادة طبع كتاب « الام » للامام الشافعي عن نسخة بولاق .

✻ الدكتور محمد صبري السربوني انتهى من كتابة بحث تاريخي جديد عن « عرب الكونغو » تشرف على تأليفه جامعة ليبزيج .

✻ اقامت رابطة الاخوة بين تونس والجمهورية العربية المتحدة بمدينة الاسكندرية مهرجانا شعريا بمناسبة الذكرى الثامنة لثورة الجزائر ، اشترك فيه عشرون شاعرا وحضرها نخبة من رواد الادب فى العالم العربي .

✻ يعكف الاستاذ محمود تيمور على كتابة مسرحية جديدة بعنوان « طارق بن زياد » .

✻ سيقام للدكتور علي ابراهيم تمثال فى حديقة كلية الطب بالقاهرة .

✻ احرز الدكتور عاطف السيد الخبير، فى معهد التخطيط القومي بالقاهرة على جائزة حكومة فرنسا عن احسن رسالة دكتوراة دولة يتقدم بها اجنبي عام 1961 ، وقد سافر الدكتور المذكور الى باريس لتسلم الجائزة فى احتفال رسمي ، والرسالة التي كان يقوم بها موضوعها « دراسة الضريبة المصرية كعامل من عوامل النمو الاقتصادي والاصلاحات اللازمة » ، وقد نالها بتقدير ممتاز .

✻ انهت الدكتورة نوال السعداوي من الترجمة العربية لرواية « الشجرة تنمو فى بروكلن » للكاتبة الامريكية ، بتيتي سميث ، وستصدر قريبا فى القاهرة .

✻ مسرحية الليلة الثانية عشرة لشيكسبير ، انتهى عباس يونس من ترجمتها وقدمها الى مجلس الاداب والفنون بالقاهرة .

※ صدرت في القاهرة مجموعة قصص « الغرباء » للاستاذ حافظ رجب ، قدم لها الدكتور عبد القادر القط .

※ عين الدكتور محمود قاسم الاستاذ بكلية دار العلوم عميدا للكلية المذكورة .

※ خلال هذا العام يفتتح بالقاهرة المعهد العالي للتكنولوجيا بحلوان قرب القاهرة .

※ انتهى ابو الوفاء المراغي مدير مكتبة الازهر من اعداد كتاب عنوانه « المعجم الاصفر في تراجم ومؤلفات علماء الازهر » .

※ « مديحة » مجموعة قصص صدرت اخيرا بالقاهرة لعباس خضر .

※ صدر للمستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس العضو المراسل لمجمع اللغة العربية بالقاهرة كتاب : « مختارات من الادب العربي » منذ العصر الجاهلي الى العصر الحاضر .

※ قررت لجنة الترجمة في مجلس الفنون بالقاهرة اصدار كتاب « قضايا الانسان في المسرح المعاصر » للدكتور عز الدين اسماعيل .

※ بدات « مؤسسة التاليف والنشر » بالقاهرة في تنفيذ مشروعها الخاص باصدار طبعات شعبية من الموسوعات العربية ، وكتابها الاول الذي ستصدره هو : « عيون الاخبار » لابن قتيبة .

※ يعد المجلس الاعلى للفنون والآداب بالقاهرة كتابا عن الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية في الفنون والآداب لهذا العام ، والكتاب سيتضمن سردا لحياتهم واعمالهم الادبية والفنية وتأثيرهم في حياتهم الثقافية .

※ تصدر في الشهر القادم بالقاهرة مجموعة قصص قصيرة لجمال ربيع بعنوان «الليلة الاخيرة»

※ الدكتور محمد غنيمي هلال تقدم بكتابه « المدخل الى النقد الادبي الحديث » لنيل جائزة الدولة التشجيعية في النقد الادبي .

※ « ياطالع الشجرة » آخر مسرحية الفها توفيق الحكيم ، وقد اجمع نقاد العرب باستثناء الدكتور القط على ان هذه المسرحية فتح جديد في ادب المؤلف وفي الادب العربي .

※ آخر كتاب صدر للاستاذ العقاد : « التفكير فريضة اسلامية » .

※ تستعد الجمهورية العربية للاحتفال بالعيد الالفي لمدينة القاهرة .

※ صدر الجزء الاول من دراسة « الخنساء في مرآة عصرها » للاستاذ اسماعيل القاضي .

※ اصدرت دار الكرنك في القاهرة ديوانا جديدا للشاعر علي الحلبي اسمه « طعام المقصلة » بتقديم الاستاذ هلال ناجي .

※ نال بعض اعلام الصحافة والفن والادب بالجمهورية العربية المتحدة تقدير الدولة ، فمنحهم الرئيس جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى وهم السادة والسيدات : احسان عبد القدوس ، احمد بهاء الدين ، امينة السعيد ، الدكتور حسين فوزي ، حلمي سلام ، محمود تيمور، نجيب محفوظ ، يوسف السباعي .

※ احرز الدكتور محمد مندورعلى جائزة الدولة التشجيعية عن كتاب « المسرح النثري » .

※ تعاقدت الكاتبة السورية كوليت الخوري مع احدى دور النشر ببيروت على اعادة طبع روايتيها « ايام معه » و « ليلة واحدة » .

※ انتهى الشيخ عبد العزيز العلايلي من اعداد الجزء الثالث من معجمه وسيطبع هذا المعجم على غرار معجم المنجد .

※ اعادت المكتبة الاهلية بلبنان طبع كتاب « دراسات في فقه اللغة » تاليف الدكتور صبحي الصالح .

※ صدر في الايام الاخيرة الجزء الرابع من دائرة المعارف اللبنانية التي يشرف عليها الدكتور فؤاد افرام البستاني .

* يصدر قريبا لساطع الحصري كتاب بعنوان « آراء واحاديث فى التربية » .

* سيصدر قريبا لمطاع صفدي كتاب « الايديولوجيات الثورية » يتحدث فيه عن الماركسية ، والوجودية والثورية الغربية .

* اصدرت وزارة الثقافة بدمشق الترجمة العربية لكتاب «الراي العام » لمؤلفه الفريد سوفي.

* قدمت وزارة الثقافة بدمشق كتاب « الصبي الاسود » لمؤلفه ريتشارد درايث والذي قام بترجمته الى العربية سهيل ايوب .

* « مقالات » كتاب جديد صدر للدكتور علي جواد الطاهر يتضمن مجموعة من المقالات والخواطر والنقد .

* صدر ديوان « شرر اللهيب » للشاعر زهير غازي زاهد بتقديم صفاء خلوصي .

* اصدر الشاعر صفاء الحيدري ديوانا بعنوان « قنوط » .

* انتخب الاستاذ الدكتور ناجي الاصيل رئيسا للمجمع العلمي العراقي .

* « فهمي المدرس رائد الفكر العربي » عنوان الكتاب الذي صدر مؤخرا للدكتور ناجي الاصيل .

* « الانتظار والمطر » مجموعة قصص صدرت فى بغداد من تأليف موفق خضر .

* اعد الاستاذ اسماعيل القاضي للطبع كتابا فى عدة اجزاء عنوانه « الخنساء » يشتمل على دراسة وافية للمرأة العربية .

* « آمال خائبة » كتاب صدر فى بغداد لعبد الوهاب الكيلاني .

* صدرت فى بغداد قصة للاستاذ طارق عيسى حسن تحت عنوان « ايام فى القرية » .

* قدم للطبع الدكتور مصطفى جواد مجموعة احاديث عنوانها « قل ولا تقل » .

* « عجلة لا ترحم » مجموعة قصص صدرت فى بغداد من تأليف محمد جودي محمد .

* سيفتح فى جامعة بغداد معهد للصحافة يكون تابعا لكلية الآداب .

* « الغلو فى الاسلام » عنوان الكتاب الذي صدر فى بغداد للدكتور علي الوردي .

* « نداء الفجر العربي » مسرحية صدرت فى بغداد لمؤلفها عبد الباقي السعدي .

* اعلن فى بغداد ان منظمة اليونيسكو قبلت الاقتراح الذي تقدم به العراق لاقامة مهرجان للموسيقى العربية فى بغداد سيستغرق ثلاثة اشهر ابتداء من شهر فبراير من العام القادم . ويهدف المهرجان الذي سيستدعى اليه اعلام الموسيقى الغربية والشرقية الى تسجيل تطور الموسيقى العربية من اقدم العصور حتى اليوم والتعرف الى العوامل التي اثرت فيها .

* « الكندي الرائد الاول للفلسفة الاسلامية » عنوان الكتاب الذي سيصدره فى هذه الايام الاستاذ محمد بحر العلوم .

* صدر عن مكتبة المثنى ببغداد كتاب « فهرست ابن خير الاشبيلي » من تأليف العلامة محمد بن خير ابن عمر بن خليفة المتوفى سنة 575 هجرية ، وقد تم طبع هذا الكتاب عن الاصل الذي نشره المستشرق الاسباني كوديرا بسرقسطة .

* انجزت مطبعة المجمع العلمي العراقي المجلد الثاني من كتاب « تاريخ الادب العربي فى العراق » لمؤلفه الاستاذ عباس العزاوي .

* تباشر مكتبة « المثنى » ببغداد طبع كتابين هما « الانساب المتفقة فى الخط المتماثلة فى النقط والضبط » من تأليف الشيخ الامام ابن الفضل طاهر بن المقدس المعروف بابن القيسراني باعتناء المستشرق الهولندي ديونك المطبوع فى ليدن سنة 1765 وكتاب

« نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » من تاليف الشيخ شمس الدين ابي طالب الانصاري المعروف بشيخ الربوة الدمشقي عن النسخة المطبوعة فى لينينغراد سنة 1923 باعتناء المستشرق الروسي مهرين .

* صدر عن منشورات دار البصري ببغداد كتاب « عنوان المجد فى بيان احوال بغداد والبصرة ونجد » لمؤلفه العلامة ابراهيم فصيح بن السيد صبغة الله بن الحيدري البغدادي الذي كتبه سنة 1286 هـ.

* يصدر فى كربلاء الجزء الاول من كتاب « الوصول الى كفاية الاصول » للعلامة السيد محمد الشيرازي وهو شرح لكتاب « كتابة الاصول » لآية الله العظمى الشيخ محمد كاظم الخرساني .

* « الكندي خالد بفلسفته » عنوان كتاب لمؤلفه الفيلسوف الزنجاني .

* انتهت دار العلم للملايين من طبع كتابين جديدين بمناسبة مهرجان بغداد والكندي ، اولهما للدكتور صلاح الدين المنجد عن « تاريخ الحركات التقدمية فى بغداد والعراق » وثانيهما للدكتور عمر فروخ بعنوان : « حياة الكندي وفلسفته » .

* الدكتور اكرم فاضل انتهى من ترجمة كتاب المستشرق الفرنسي الراحل لويس ماسينيون « تعليقات على لغة بغداد الدارجة » .

* « الكندي فيلسوف العرب » عنوان الكتاب الذي قام بتاليفه الاستاذ محمد كاظم الطريحي .

* قام يوسف عبد المسيح ثروت بترجمة مسرحية « الحلقة المفرغة » لبول سارتر الى اللغة العربية .

* سيصدر فى بغداد الجزء الاول من معجم اللغة العامية البغدادية فى الاسبوع المقبل لمؤلفه الشيخ جلال الحنفي .

* مجلة « الافق الجديد » التي تصدر فى القدس اصدرت عددا خاصا ممتازا عن « القصة » .

* « ما اقل الثمن » مجموعة قصص صدرت حديثا للكاتب الاردني محمود سيف الدين الايراني.

* « النغم الاول » عنوان الديوان الذي اعده للطبع الشاعر السعودي علي مهدي الشنواح .

* الشيخ ابراهيم العبد المحسن آل عبير اعد مؤلفا تاريخيا هاما يقع فى خمسة اجزاء كل جزء يشتمل على 360 صفحة وسيباشر طبعه فى جدة فى الايام القريبة .

* تقرر انشاء كلية للطباعة بجامعة الملك سعود بالرياض .

* « نظرات ادبية » كتاب اعده للطبع الاستاذ علي مهدي الشنواح سكرتير تحرير مجلة « قريش »

* تستعد جامعة لينينغراد لعقد مؤتمر للدراسات العربية – على غرار مؤتمر الدراسات الايرانية – فى العام الماضي تحضره وفود البلدان من العلماء .

* يقوم الاستاذ توفيق فقيس عضو المعهد الشرقي بسرايفو بيوغوسلافيا بوضع القاموس العربي اليوغوسلافي .

* توفى فى الايام الاخيرة فى موسكو العالم السوفييتي الكسندر توشيف نائب رئيس اكاديمية العلوم السوفييتية عن 55 سنة .

* صدر اخيرا فى موسكو كتاب «الناس والحياة» لصاحبها ايليا هرنبورغ مشتملا على مذكراته عن موقفه من العالم والمصير الانساني .

* بدا العمل فى موسكو لانشاء مكتبة ضخمة للانتاج الادبي فى الدول الاجنبية ، وستضم 4 ملايين من الكتب باكثر من مائة لغة .

* احتفلت الاوساط الادبية الفرنسية بمرور 10 سنوات على وفاة الشاعر الكبير بول ايوار .

* صدر حديثا كتاب « حكم الاسلام فى الاشتراكية » من تاليف الاستاذ عبد العزيز البدري وتقديم الشيخ امجد الزهاوي .

فهرس العدد الرابع - السنة السادسة

صفحة

دراســـات اسلاميـــة :

ابحـــاث ومقالات :

ديـوان دعـوة الحـق :

قصـة العـدد :

منـاقشـــات :



بمناسبة حلول عيد الفطر السعيد تتقدم مجلة دعـوة الحق وعلى رأسها وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية الى صاحب الجلالة الحسن الثانـي وأسرته الكريمة باسمى آيات التهاني والتبريـك ، راجية من المولى سبحانه أن يعيد أمثال هذا العيد على العاهل الكريم واسرته والشعب المغربي والامة الاسلامية باليمـن والخيـر والبركات .

صورة الغلاف الثانية

مدرسة العطارين بفاس ، وهـي من أعمال المرينيين

مطبعـة فضـالـة ـ المحمدية